وزارة المعارف العمومية

كتاب أدب الدنيا والدين

تأليف

العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة

أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى

رحمه الله تعالى

قررت وزارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها

واستعماله بالمدارس الأميرية

الطبعة الثالثة عشرة

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٤٠ ه — ١٩٢٢ م

وزارة المعارف العمومية

كتاب أدب الدنيا والدين

تأليف
العالم العلامة الحبر الفهامة الامام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة
أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المـاوردى
رحمه الله تعـالى

قررت وزارة المعارف العمومية طبع هذا الكتاب على نفقتها
واستعماله بالمدارس الأميرية

الطبعة الثالثة عشرة
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م

محتويات الكتاب

صفحة

ترجمة مؤلف هذا الكتاب

هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرىّ المعروف بالماوردىّ . ولد بالبصرة ونشأ بها ثم استوطن بغداد وفوض اليه القضاء فى بلدان كثيرة . وكان جليل القدر متقدّما عند السلطان دينا تقيا كثير المجاهدة لنفسه دائبا فى مراقبتها . وهو من وجوه فقهاء الشافعية وكبارهم وكان حافظا للمذهب وله فيه كتاب الحاوى الذى لم يطالعه أحد إلا شهد له بالتبحر والمعرفة التامّة بالمذهب . ومن مصنفاته كتاب أدب الدنيا والدين والأحكام السلطانية وقانون الوزارة وسياسة الملك . درّس ببغداد والبصرة سنين كثيرة وانتفع الناس به وبمصنفاته فى حياته وبعد مماته . وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ (٢٦ مايه سنة ١٠٥٨ م) وله من العمر ٨٦ سنة ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد رحمه الله تعالى ورضى عنه .

والماوردىّ نسبة الى بيع الماورد هكذا قال السمعانى اه مقتطفا من وفيات الأعيان وغيره مع التصرف فى العبارة ٥١

أحمد ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال القاضي أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردىّ رحمه الله تعالى :

الحمد لله ذى الطول والآلاء وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء وعلى آله وأصحابه الأتقياء (أما بعد) فان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه و بحسب منافعه تجب العناية به وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته . وأعظم الأمور خطرا وقدرا وأعمها نفعا ورفدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والأولى لأنه باستقامة الدين تصح العبادة و بصلاح الدنيا تتم السعادة . وقد توخيت بهذا الكتاب الاشارة الى آدابهما وتفصيل ما أجمل من أحوالها على أعدل الأمرين من إيجاز و بسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وترقيق الأدباء فلا ينبو عن فهم ولا يدق فى وهم . مستشهدا من كتاب الله جل اسمه بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ثم متبعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء لأن القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ان القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فأهدوا اليها طرائف الحكمة فكأن هذا الأسلوب يحب التنقل فى المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا فى داره من مكان الى مكان وينشد قول أبى العتاهية رحمه الله :

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الأول) فى فضل العقل وذم الهوى (الباب الثانى) فى أدب العلم (الباب الثالث)

فى أدب الدين (الباب الرابع) فى أدب الدنيا (الباب الخامس) فى أدب النفس . وأنا أستمدّ من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

باب فضل العقل وذم الهوى

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أَدب ينبوعا . وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدّين أصلا وللدنيا عمادا فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز فى العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويردّه عن ردى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل شيء دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصرى رحمه الله : ما استودع الله أحدا عقلا الا استنقذه به يوما مّا . وقال بعض الحكماء : العقل أفضل مرجوّ والجهل أنكى عدوّ . وقال بعض الأدباء : صديق كل امرئ عقله وعدوّه جهله . وقال بعض البلغاء : خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم بن حسان :

يزين الفتى فى الناس صحة عقله ... وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله ... وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى فى الناس بالعقل انه ... على العقل يجرى علمه وتجاربه

وأفضل قسم الله للمرء عقله   فليس من الأشياء شىء يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله   فقد كملت أخلاقه ومآربه

واعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات . وقد ينقسم قسمين غريزىّ ومكتسب

فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حدّ يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حدّ الكمال كما قال صالح ابن عبد القدّوس :

اذا تم عقل المرء تمت أموره   وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى : لينذر من كان حيا أى من كان عاقلا واختلف الناس فيه وفى صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا فى محله فقالت طائفة منهم : محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم : محله القلب لأن القلب معدن الحياة ومادّة الحواس وهذا القول فى العقل بأنه جوهر لطيف فاسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثانى أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا . وقال آخرون : العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الادراك من صفات الحىّ والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذا أو آلما أو مشتهيا . وقال آخرون من المتكلمين : العقل

هو جملة علوم ضرورية وهذا الحدّ غير محصور لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال والحدّ انما هو بيان المحدود بما ينفى عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح : إن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثانى ما كان مبتدأ فى النفوس . فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه فى حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم . وأما ما كان مبتدأ فى النفوس فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدّين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل . وسمى بذلك تشبيها بعقل الناقة لأن العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد القيس : اذا عقلك عقلك عما لا ينبغى فأنت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول فى العقل وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «العقل نور فى القلب يفرق به بين الحق والباطل» وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله فى القلب لأنَّ القلب محل العلوم كلها . قال الله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثانى أن محله القلب . وفى قوله تعالى : يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثانى يعتبرون بها فهذه

جملة القول فى العقل الغريزىّ . وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزى وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكرة وليس لهذا حدّ لأنه ينمو إن استعمل وينقص ان أهمل ونماؤه يكون بأحد وجهين إما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صادّ من شهوة كالذى يحصل لذوى الأسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الأمور ولذلك حمدت العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم : المشايخ أشجار الوقار ومنابع الأخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم ان رأوك فى قبيح صدّوك وان أبصروك على جميل أمدّوك . وقيل : عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرّت على عيونهم وجوه العبر وتصدّت لأسماعهم آثار الغير . وقيل فى منثور الحكم : من طال عمره نقصت قوّة بدنه وزادت قوّة عقله . وقيل فيه : لا تدع الأيام جاهلا الا أدّبته . وقال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الأيام عظة . وقال بعض البلغاء : التجربة مرآة العقل والغرّة ثمرة الجهل . وقال بعض الأدباء : كفى مخبرا عما بقى ما مضى وكفى عبرا لأولى الألباب ما جربوا . وقال بعض الشعراء :

ألم تر أن العقل زين لأهله وأن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر :

اذا طال عمر المرء فى غير آفة أفادت له الأيام فى كرّها عقلا

وأما الوجه الثانى فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس فى زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزى صارت نتيجتهما نموّ العقل المكتسب كالذى يكون فى الأحداث من وفور العقل وجودة الرأى حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر ابن الطفيل وعلقمة بن علاثة : عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكرا

قوله إذعانا للحق فصارا الى أبي جهل لحداثة سنه وحدّة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد :

ياهرم ابن الأكرمين منصبا   انك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب : عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه زطوبة الهرم . وقد قال الشاعر :

رأيت العقل لم يكن انتهابا   ولم يقسم على عدد السنينا

ولو أن السنين تقاسمته   حوى الآباء أنصبة البنينا

وحكى الأصمعي رحمه الله قال : قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني بفصاحة وملاحة : أيسرّك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق قال لا والله قال : فقلت ولم قال : أخاف أن يجني على حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سنا وأكثر تجربة . وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه إلا عبد الله فقال له عمر رضي الله عنه : مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين : لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا لجودة القريحة نهاية . وحكى أن سليمان ابن عبد الملك أمر الفرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لا يقطع شيئا فقال الفرزدق : بل أضربهم بسيف أبي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق :

أيعجب الناس أن أضحكت سيدهم   خليفة الله يستسقى به المطر

لم ينب سيفى من رعب ولا دهش عن الأسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم أغمد سيفه وهو يقول :

ما إن يعاب سيد اذا صبا ولا يعاب صارم اذا نبا
* ولا يعاب شاعر اذا كبا *

ثم جلس وهو يقول كأنى بابن المراغة قد هجانى فقال :

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشد له الشعر فأنشأ يقول:

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا أمير المؤمنين كأنى بابن القين وقد أجابنى فقال :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم اذا أثقل الأعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق :

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع أحيانا مناط التمائم
ولن نقتل الأسرى ولكن نفكهم اذا أثقل الأعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومىّ جاعلة لكم أبا عن كليب أو أخا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكى أن المهدى أتى بأسرى من الروم فأمر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبة فقال له : اضرب عنق هذا العلج فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلى به الفرزدق فعير به قومه الى اليوم فقال : انما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضرا فقال :

جزعت من الرومىّ وهو مقيد فكيف ولو لاقيته وهو مطلق
دعاك أمير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يفرق
فنح شبيبا عن قراع كتيبة وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق الخاطرين . ولمثل ذلك قالت الحكماء : آية العقل سرعة الفهم وغايته إصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان أعضل كما قيل لعلى رضى الله عنه : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال : كما يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله ابن عباس : أين تذهب الأرواح اذا فارقت الأجساد فقال : أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان وهذان الجوابان جوابا إسكات تضمنا دليلى اذعان وحجتى قهر . ومن غير هذا الفن وان كان مسكتا ما حكى عن إبليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال : ألست تقول إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك قال نعم قال : فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه إن يقدّر لك السلامة تسلم فقال له : ياملعون ان لله أن يختبر عبـاده وليس للعبد أن يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعـالى الذين أمدّهم بوحيه وأيدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعوّل على بديهته . وروى قثم بن العباس رضى الله عنهما قال : قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه كم بين السماء والأرض قال : دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال : مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله إما اختبارا وإما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما أسكت . فأما اذا اجتمع هذان الوجهان فى العـقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق فى الرجل الفاضل بالاستحقاق . روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أُثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال : كيف عقله قالوا يارسول الله : إن من عبادته إن من خلقه إن من فضله إن من أدبه

فقال كيف عقله قالوا يارسول الله : نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وانما يَقْرُب الناس من ربهم بالزُّلَف على قدر عقولهم . واختلف الناس فى العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم : لا يكون فضيلة لأن الفضائل هيآت متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر : أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الأمور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خير الأمور أوساطها . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : خير الأمور النمط الأوسط اليه يرجع العالى وبه يلحق التالى . وقال الشاعر :

لا تذهبنّ فى الأمور فرطا   لا تسألنّ ان سألت شططا
وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا : لأن زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الأشعرى أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد : ياأمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك . ولأجل هذا المحكى عن عمر ماقيل قديما إفراط العقل مضر بالجسد وقال بعض الحكماء : كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك . وقال بعض البلغاء : قليل يكفى خير من كثير يطغى . وقال آخرون وهو أصح القولين : زيادة العقل فضيلة لأن المكتسب غيرمحدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما لأن ما جاوز الحد لايسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حدّ الشجاعة نسب الى التهوّر والسخىّ اذا زاد على حدّ السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال

العقل المكتسب لأن الزيادة فيه زيادة علم بالأمور وحسن إصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لانقص. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أفضل الناس أعقل الناس. وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: العقل حيث كان ألوف مألوف وقد قيل فى تأويل قوله تعالى: «قل كل يعمل على شاكلته» أى بحسب عقله. وقال القاسم بن محمد: كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه. وقيل فى منثور الحكم: كل شيء اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا. وقال بعض البلغاء: ان العاقل من عقله فى إرشاد ومن رأيه فى إمداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله فى إغواء ومن هواه فى إغراء فقوله سقيم وفعله ذميم. وأنشدنى ابن لنكك لأبيه:

من لم يكن أكثره عقله أهلكه أكثر ما فيه

فأما الدهاء والمكر فهو مذموم لأن صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا. وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر ابن الخطاب فقال: كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وقال عمر: لست بالخب ولا يخدعنى الخب. واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد وأشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا فقال بعضهم: أسميه عاقلا لوجود العقل فيه وقال آخرون: لا أسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا لأن الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقلا وانما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل: العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعى رضى الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لأعقل الناس: أنه يكون مصروفا فى الزهاد لأنهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل. وروى لقمان بن أبى عامر عن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ياعويمر ازدد عقلا

تزدد من ربك قربا قلت بأبى أنت وأمى ومن لى بالعقل قال : اجتنب محارم الله وادّ فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الأعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا . وأنشدنى بعض أهل الأدب هذه الأبيات وذكر أنها لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه

إن المكارم أخلاق مطهرة فالعقل أولها والدّين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم أنى لا أصدّقها ولست أرشد إلا حين أعصيها
والعين تعلم من عينى محدّثها ان كان من حزبها أو من أعاديها
عيناك قد دلتا عينىّ منك على أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزى لأنه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزىّ عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالأنوك الذى لا تجد له فضيله والأحمق الذى قلما يخلو من رذيله : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الأحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الأحمق أبغض خلق الله اليه إذ حرمه أعز الأشياء عليه . وقال بعض الحكماء : الحاجة الى العقل أقبح من الحاجة الى المال . وقال بعض البلغاء : دولة الجاهل عبرة العاقل . وقال أنوشروان لبزرجمهر : أى الأشياء خير للمرء قال : عقل يعيش به قال : فان لم يكن قال : فاخوان يسترون عيبه قال : فان لم يكن قال : فمال يتحبب به الى الناس قال : فان لم يكن قال : فعىّ صامت قال : فان لم يكن قال : فموت جارف . وقال سابور بن أردشير : العقل نوعان : أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

رأيت العقل نوعين فمسموع ومطبوع

ولا ينفـع مسموع   اذا لم يك مطبـوع
كما لا تنفع الشمس   وضـوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بمـا فيه من الفضائل والاحمق بمـا فيه من الرذائل فقـال العاقل : اذا والى بذل فى المودّة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله إن أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وإن أساء اليه مسيء سبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والأحمق ضالّ مضل إن أونس تكبّر وإن أوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنه ومعاتبته محنـه ومحـاورته تغرّ وموالاته تضر ومقاربتـه عمى ومقارنتـه شقا . وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والأحمق يسيء الى غيره ويظن أنه قد أحسن اليه فيطالبـه بالشكر ويحسن اليـه فيظن أنه قد أساء اليه فيطالبـه بالوتر فمساوى الأحمق لا تنقضي وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراءها بمـا هو أدنى منها وأردى وأمر وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر . وقال الأحنف بن قيس : من كل شيء يحفظ الأحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء : إن الدنيا ربمـا أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فان أتتك منها سُهْمة مع جهل أو فاتتك منها بُغْية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة فى الجهل والزهد فى العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شيء من ذاته كمن استوجبه بآلتـه وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذى يحنّ الى النقله ودولة العاقل كالنسيب الذى يحنّ الى الوصله فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالهـا بغير عقل أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويردّه الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه

ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا. واعلم أنه بحسب ماينتشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا فى الغابرين وحديثا فى الاخرين مع هتكه فى عصره وقبح ذكره فى دهره كالذى رواه عطاء عن جابر قال: كان فى بنى إسرائيل رجل له حمار فقال يارب: لو كان لك حمار لعلفته مع حمارى فهمّ به نبىّ من بنى اسرائيل فأوحى الله اليه انما أثيب كل إنسان على قدر عقله . واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال: لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمىّ فبلغ ذلك معاوية فقال: قبحه الله أترونه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامرى (وكان من النوكى) سائر اليمامة فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر:

شهدت بأن الله حق لقاؤه وأن الربيع العامرىّ رقيع
أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لمعار الجهل غايه ولا لمضار الحمق نهايه قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطبّ به الا الحماقة أعيت من يداويها

(فصل) وأما الهوى فهو عن الخير صادّ وللعقل مضادّ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها ويظهر من الأفعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا. قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه» وقال عكرمة فى قوله تعالى: «ولكنكم فتنتم أنفسكم» يعنى بالشهوات «وتربصتم» يعنى بالتوبة «وارتبتم» يعنى فى أمر الله «وغرّتكم الأمانىّ» يعنى بالتسويف «حتى جاء أمر الله» يعنى الموت «وغرّكم بالله الغرور» يعنى الشيطان . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية إن هذا الحق

ثقيل مرىّ وان البـاطل خفيف وبىّ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل فان اتباع الهوى يصـدّ عن الحق وطول الأمل ينسى الآخرة . وقال الشعبيّ : انما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه . وقال أعرابى : الهوى هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال :

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه ... فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منثور الحكم : من أطاع هواه أعطى عدوّه مناه . وقال بعض الحكماء : العقل صديق مقطوع والهوى عدوّ متبوع . وقال بعض البلغاء : أفضل الناس من عصى هواه وأفضـل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن مروان :

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... الى كل ما فيه عليـك مقـال

قال ابن المعتز رحمه الله : لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت وقال الشاعر :

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى ... فقـد ثكلته عنـد ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه ... وقد وجدت فيـه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس الا حازم الرأى كامله

ولـما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته ويدفع بادرة سطوته ويدفع خداع حيلته لأن سلطان الهوى قوىّ ومدخل مكره خفىّ ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليـه أعنى بأحد الوجهين قوىّ سلطانه وبالآخر خفـاء مكره فأما الوجه الأوّل فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولى عليه غلبةُ الهوى والشهوات فيكلّ العقل عن دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها فى العقل المقهور

بها وهذا يكون فى الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوّة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وأنهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير :

كل يرى أن الشباب له   فى كل مبلغ لذة عــذر

ولذلك قال بعض الحكماء : الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الأدباء : الهوى عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء :

ياعاقلا أردى الهوى عقله   مالكقدسدّت عليكالأمور
أتجعل العقل أسـير الهوى   وإنما العقل عليــه أمـير

وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفور فيشعرها ما فى عواقب الهوى من شدّة الضرر وقبح الأثر وكثرة الأجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » أخبر أن الطريق الى الجنة باحتمال المكاره والطريق الى النار باتباع الشهوات . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوّفها بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعتا على النفس ذلت لها وانقادت . وقد قال ابن السماك : كن لهواك مسوّفا ولعقلك مسـعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر :

صبرت على الأيام حتى تولت   وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
وماالنفس الا حيث يجعلها الفتى   فان أطمعتْ تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصـير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الأوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى : «وأما من خاف مقام ربه

ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى» . وقال الحسن البصرى: أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء : أعز العز الامتنـاع من تملك الهوى . وقال بعض البلغاء : خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه . وقال بعض الأدباء : من أمات شهوته فقد أحيا مروءته . وقال بعض العلمـاء : ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحراهم بالظفر فى مجاهدته قال : من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس فى مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء :

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى بطاعة الحزم وعصيـان الهوى

وأما الوجه الثـانى فهو أن يخفى الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو اليه أحد شيئين إما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشيء فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : حبك الشيء يعمى ويصم أى يعمى عن الرشد ويصمّ عن الموعظة . وقال على رضى الله عنه : الهوى عمى . قال الشاعر :

* حسن فى كل عين من تودّ *

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه :

ولست براء عيب ذى الودّ كله ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكنّ عين السخط تبدى المساويا

وأما السبب الثانى فهو استثقال الفكر فى تمييز ما اشتبه وطلب الراحة فى اتباع ما يسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه اغترارا بأنّ الأسهل محمود والأعسر مذموم فلن يعدم أن يتورّط بخدع الهوى

وزينة المكر فى كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب: الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب. وقال سليمان بن وهب: الهوى أمتع والرأى أنفع وقيل فى المثل: العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح. وقال الشاعر:

اذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الإثم والعار بالذى دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعى العقل. وقال بعض الحكماء: نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك أسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهو آثر. وقد قال العباس ابن عبد المطلب: اذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقيل تبطئ النفس عن التسرع اليه فيصح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم. وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: من تفكر أبصر والمحبوب السهل تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه ليقضى فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل والاستدراك بعد الفوت. وقال بعض الحكماء: ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا. وقال الشاعر:

أليس طلاب ما قد فات جهلا وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فاترك الهوى تسلم وأعرض عن

الدنيا تغنم ولا يغرّنك هواك بطيب الملاهى ولا تفتننك دنياك بحسن العوارى فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترجع ويبـق عليك ما ترتكبه من المحـارم وتكتسبه من المآثم . وقال على بن عبد الله الجعفرى : سمعتنى امرأة فى الطواف وأنا أنشد :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت : هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الأخرى . فأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما فى العـلة والمعلول واتفاقهما فى الدلالة والمدلول فهو أن الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهى أخص والهوى أصل هو أعم . ونحن نسأل الله أن يكفينا دواعى الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنـا مرشدا . فقد روى أن الله تعـالى أوحى الى عيسى عليه السـلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى . وقال محمد بن كناسة :

ما مَنْ روى أدبا ولم يعمل به ويكفّ عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بمـا تعلم عامـلا من صـالح فيكون غير معيب
ولقلما تغـنى إصـابة قائل أفعاله أفعـال غـير مصيب

وقال آخر

يأيها الرجـل المعـلم غـيره هـلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سـقيم
ابدأ بنفسـك فانهها عن غيّها فاذا انتهت عنـه فأنت حكيم
فهناك تعذر إن وعظت ويقتـدى بالقول منك ويقبـل التعليم
لاتنـه عن خلق وتأتى مثـله عار عليـك اذا فعلت عظيم

حكى أبو فروة أن طارقا صاحب شرطة خالد بن عبـدالله القسرى مر بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة :

أراها وان كانت تحب كأنها سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا أن مر بك طارق فى موكبه فقال يابنى انهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم ان أباك أكل من حلوائهم فخبط فى أهوائهم أما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأقلق جنانا اذا رمقتنا أعين المتتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

باب أدب العلم

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجدّ فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لأن شرفه ينمّ على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه. قال الله تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى: «وما يعقلها الا العالمون» فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام إنى عليم أحب كل عليم . وروى أبو أمامة قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه: الناس أبناء ما يحسنون . وقال مصعب ابن الزبير لابنه: تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وإن لم يكن لك مال كان لك مالا . وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بنىّ: تعلموا

العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سـدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء : العلم شرف من لا قَدْرَ له والأدب مالٌ لا خوف عليه وقال بعض الأدباء : العـلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف . وقال بعض البلغاء : تعلم العلم فانه يقوّمك ويسـدّدك صغيرا ويقدّمك ويسوّدك كبـيرا ويصلح زيغك وفاسـدك ويرغم عدوّك وحاسـدك ويقوّم عوجك وميلك ويصحح همتـك وأملك . وقال على رضى الله تعالى عنه : قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال :

لا يكون العلىّ مثـلَ الدنِىّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبىّ
قيمة المرء قدر مايحسـن المر ء قضـاء من الإمام علىّ

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لأن فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لأن فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا أهله وتوهموا أن ماتميل اليـه نفوسهم من الأموال المقتناه والطرف المشتهاه أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها . وقد قال ابن المعتز فى منثور الحكم : العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالمـا وهـذا صحيح ولأجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لأن من جهل شيئا عاداه . وأنشدنى ابن لنكك لأبى بكر بن دريد :

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادى العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدّرا ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر : العلم أفضل أم المـال فقال بل العلم قيل : فمـا بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنيـاء ولا نكاد نرى الأغنيـاء على أبواب العلمـاء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المـال وجهل الأغنياء بفضل

العلم . وقيل لبعض الحكماء : لم لا يجتمع العلم والمال فقال : لعز الكمال . وأنشدت لبعض أهل هذا العصر :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله　　فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحى بالعلم ميت　　فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فأخرج له طعام ونفقة فقال : فاقتى الى كلامكم أشد من حاجتى الى طعامكم إنى طالب هدى لا سائل ندى فأذن له العالم وأفاده عن كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم أوضح لبسا خير من مال أغنى نفسا * واعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال . قيل لبعض الحكماء : من يعرف كل العلوم فقال : كل الناس . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» . وقال بعض العلماء : لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدأنا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص فى كل يوم من الجهل ونزداد فى كل يوم من العلم . وقال بعض العلماء : المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا . وقيل لحماد الراوية : أما تشبع من هذه العلوم فقال : استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر :

* اذا قطعنا علما بدا علم *

وأنشد الرشيد عن المهدى بيتين وقال أظنهما له :

يا نفس خوضى بحار العلم أو غوصى　　فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شىء فى هذه الدنيا نحيط به　　الا إحاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها . وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لأن

الناس بمعرفته يرشدون و بجهله يضلون اذ لا يصح أداء عبادة جهل فاعلها صفات أدائها ولم يعلم شروط إجزائها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لأن العلم يبعث على فعل العبادة والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم . «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وفيه تأويلان : أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات . والثانى جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية . واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الأعيان وفرض جميعه على الكفاية كان أولى مما لم يجب فرضه على الأعيان ولا على الكفاية . قال الله تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون» . وروى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الىّ من صاحبه . أما هؤلاء فيذكرون الله تعالى ويسألونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى أهل الفقه . وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها . وروى معاذ بن رفاعة عن ابراهيم بن عبدالرحمن العدوى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عُدُولُه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال : علىّ بخلفائى قالوا : ومن خلفاؤك قال : الذين يحيون سنتى يعلمونها عباد الله . وروى حميد عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الفقه فى الدين فرض على كل مسلم ألا فتعلموا أو علموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا . وروى سليمان بن يسار عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين ولفقيه واحد أشدّ على الشيطان من ألف عابد ولكل شىء عماد وعماد الدين الفقه . وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا فى اصل لا يتسع له هذا الفصل ولن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أوسدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تئول اليه أمورهم من الاختلاف والتنازع وتفضى اليه أحوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يتألفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو تابع له ولو تصوّر هذا المختل التصوّر أن الدين ضرورة فى العقل وأن العقل للدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضلّ وأضل . وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعى رحمه الله فضيلة كل واحد منها فقال : من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . ولعمرى إن صيانة النفس أصل الفضائل لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لأن القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من

الفضيلة إذ الناس لمـا فى طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليـه منسوبا فان زلتـه لا تقال وهفوته لا تعذر إما لقبح أثرها واغترار كثير من الناس بهـا . وقد قيل فى منثور الحكم : زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير . وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام : من أشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل هلك بزلته عالم كثير فهذا وجه وإما لأن الجهال بذمه أغرى وعلى تنقيصه أجرا ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينـة التخصيص عنادا لمـا جهلوه ومقتا لما باينوه لأن الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذمّا . وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه :

ومنزلة السـفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السـفيه
فهذا زاهد فى قرب هذا وهذا فيـه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه تنطع فى مخـالفة الفقيـه

وقال يحيى بن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدوّ ما جهل وأنا أكره أن تكون عدوّ شىء من العلم وأنشد :

تفنن وخذ من كل علم فانمـا يفوق امرؤ فى كل فنّ له علم
فأنت عدوّ للذى أنت جاهل به ولعـلم أنت تتقنه سـلم

واذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالى وتنقيص المعادى وجمع الى فضيلة العلم جميل الصـيانة وعزة النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله . وروى أبو الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : العلماء ورثة الأنبياء لأن الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولادرهما وانمـا ورّثوا العلم . وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنبياء : على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . وقال بعض البلغاء : إنّ من الشريعة أن تجل أهل الشريعة ومن

الصنيعة أن ترب حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطنته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجدة ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فان من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق. وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك . وقد قال بعض الأدباء : كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله. وقال بعض علماء السلف : اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم وقال بعض البلغاء: العلم عصمة الملوك لأنه يمنعهم من الظلم ويردّهم الى الحلم ويصدّهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويستبطنوا أهله فأما المال فظل زائل وعارية مسترجعة وليس فى كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان أكثر أنبياء الله تعالى مع ماخصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شيء حتى صاروا فى الفقر مثلا قال البحترى :

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصيانة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة فى المال منحه الله الكافر وحرمه المؤمن .

قال الشاعر :

كم كافر بالله أمواله تزداد أضعافا على كفره
ومؤمن ليس له درهم يزداد إيمانا على فقره
يالائم الدهر وأفعاله مشتغلا يزرى على دهره
الدهر مأمور له آمر ينصرف الدهر على أمره

وقد بين على بن أبى طالب رضى الله عنه فضل ما بين العلم والمـال فقال: العلم خير من المـال العلم يحرسك وأنت تحرس المـال العلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الأموال وبقى خزان العلم أعيانهم مفقودة وأشخاصهم فى القلوب موجودة . وسـئل بعض العلماء أيمـا أفضـل المـال أم العلم فقال : الجواب عن هذا أيمـا أفضل المـال أم العقل .

وقال صالح بن عبد القدّوس :

لاخير فيمن كان خير ثنائه فى الناس قولهم غنىّ واجد

وربمـا امتنع الانسان من طلب العـلم لكبر سـنه واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره فرضى بالجهل أن يكون موسوما به وآثره على العـلم أن يصـير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لأن العلم اذا كان فضـيلة فرغبة ذوى الأسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولأن يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا . حكى أن بعض الحكماء رأى شـيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحيي فقال له ياهذا : أتستحيي أن تكون فى آخر عمرك أفضـل ممـا كنت فى أوله . وذكر أن إبراهيم بن المهدىّ دخل على المأمون وعنده جمـاعة يتكلمون فى الفقه فقال : ياعم ما عندك ما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين : شغلونا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر فقال: لم لانتعلمه اليوم قال: أو يحسن بمثلى طلب العلم قال نعم والله لأن تموت طالبـا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال : والى متى يحسن بى طلب العلم قال : ما حسنت بك الحياة لأن الصغير أعذر وان لم يكن فى الجهـل عذر لأنه لم تطل به مدة التفريط ولا استمرت عليـه أيام الاهمال . وقد قيل فى منثور الحكم : جهل الصغير معذور وعلمه محقور فأما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لأن علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت أيامه فى الجهل ماضيه ومن الفضل

حاليه كان الصغير أفضل منــه لأن الرجاء له أكثر والأمل فيه أظهر وحسبك نقصا فى رجل يكون الصغير المساوى له فى الجهل أفضــل منه . وأنشدت لبعض أهل الأدب :

اذا لم يكن مرّ السـنين مترجمـا عن الفضل للانسان سميته طفلا
وماتنفع الأعـوام حين تعدّهـا ولم تستفد فيهنّ علمـا ولافضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا الى كل ذى جهل كأنّ به جهلا

وربمـا امتنع من طلب العلم لتعذر المـادّة وشـغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان أعذر من غيره مع أنه قلّما يكون ذلك الا عند ذى شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغى أن يصرف للعلم حظـا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لهـا فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيـا وأسراء الحرص . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل شيء فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردّكم عن الردى . وقال بعض العلماء : من أحب العلم أحاطت به فضائله . وقال بعض الحكماء : من صاحب العلماء وقر ومن جالس السـفهاء حقر . وربمـا منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعـد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوى النقص وخيفة أهل العجز لأن الاخبـار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر :

لا تكونن للأمور هيـوبا فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لأبى هريرة رضى الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة . وليس وان تفاضلت الأذهان

وتفاوتت الفطن ينبغى لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وإدراك اليسـير الذى يخرج به من حدّ الجهالة الى أدنى مراتب التخصـيص فان الماء مع لينه يؤثر فى صم الصخور فكيف لا يؤثر العـلم الزكى فى نفس راغب شهىّ وطالب خلىّ لاسيما وطالب العـلم معان . قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب» وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصوّر فى نفسه حرفة أهـله وتضـايق الأمور مع الاشـتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وإن وجد كتابا أعرض عنه وإن رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالمـا مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هـذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم مايصحبنى من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا . فقد قال بزرجمهر الجهل فى القلب كالنز فى الأرض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحـديث المروى عن أبى الأشعث عن أبى عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خالطوا الناس بأخلاقهم وخالقوهم فى أعمالهم» . ولذلك قال بعض البلغاء : رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما . وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لأن من اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل إقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذى قال فيـه على بن أبى طالب رضى الله عنه : أُغد عالمـا أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك . وقد رواه خالد الحذاء عن عبدالرحمن بن أبى بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ولا فى الاستصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر : مالكم لا تعاتبون الجهال فقال : انا لا نكلف العمي أن يبصروا

ولا الصم أن يسمعوا وهـذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هـذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الأحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل والعلم هل يكون لخير أهلا أو لفضيلة موضعا

وقد قال بعض البلغاء: أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا أنهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان أكثر النوكى وإدبار أكثر الجهـال لأن فى العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل : العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتمييز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايمـاء الشامتين والجهال والحمق لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يُلْحَظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قُصِد المجدود منهم باشارة عانت فلذلك ظن الجاهل المرزوق أن الفقر والضيق مختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبـال فى أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمق مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى أكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لأنّ حظه عجب وإقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب وإقلاله عجيب . ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتـبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الأشياء فقال نجح الجاهل وإكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته وإجراء الأمور على مشيئته . وقد قالت الحكماء : لو جرت الأقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمـام الطائى فقال :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى من دهره وهو عالم

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهن البهـائم

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهـمّ منتشر

على أن العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قل معهما المـال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وإدبار وان كثر معهما المال واتسعت معهما الحال لأن السعادة ليست بكثرة المـال فكم من مكثر شقيّ ومقلّ سعيد وكيف يكون الجاهل الغنيّ سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه . وقد قيل فى منثور الحكم : كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله . وقال عبدالله بن المعتز : نعمة الجاهل كروضة مزبلة . وقال بعض الحكماء : كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا . وقال بعض العلماء لبنيه : يابنيّ تعلموا العلم وان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلأن يذم الزمان لكم أحب الىّ من أن يذم الزمان بكم . وقال بعض الأدباء : من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا وأنشد بعض أهل الأدب لابن طباطبا :

حسود مريض القلب يخفى أنينه ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت للعـلم طالبا أجمـع من عنـد الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعُونَه وأحفظ ممـا أسـتفيد عيونه
ويزعم أن العـلم لايكسب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيـالائمى دعـنى أغالى بقيمتى فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذله وبوادر الحمق المضله وأسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم»

فينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا . وقد قال الشاعر :

لا تعـذرانى فى الاساءة إنه　　شرار الرجال من يسىء فيعذر

ولا يسوّف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الأشغال المتصلة فإنّ لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا . وقال الشاعر :

نروح ونغـــدو لحاجاتنــا　　وحاجة من عاش لاتنقضى

تموت مع المـــرء حاجاته　　وتبـــقى له حاجة ما بـقى

ويقصد طلب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا وجه الله تعالى بنية خالصة وعزيمة صادقة . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من تعلم علما لغير الله وأراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار» . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «تعلموا العلم قبل أن يرفع ورفعه ذهاب أهله فان أحدكم لا يدرى متى يحتاج إليه أو متى يحتاج إلى ما عنده» وليحذر أن يطلبه لمراء أو رياء فانّ الممارى به مهجور لا ينتفع والمرائى به محقور لا يرتفع . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تعلموا العلم لتمـاروا به السفهاء ولا تعلموا العـلم لتجادلوا به العلماء فمن فعل ذلك منكم فالنار مثواه» . وليس الممـارى به هو المناظر فيـه طالبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه من فاسد أو صحيح وفيهم جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : «لا يجادل إلا منافق أو مرتاب» وقال الأوزاعى اذا أراد الله بقوم شرا أعطاهم الجدل ومنعهم العمل . وأنشد الرياشى لمصعب بن عبد الله :

أجادل كل معترض ظنين　　فأجعل دينه غرضا لدينى

وأترك ما علمت لرأى غيرى　　وليس الرأى كالعلم اليقين

وما أنا والخصومة وهى شىء　　يصرّف فى الشمال وفى اليمين

فأمّا ما علمت فقد كفاني وأما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض العلماء فقال لصاحبه: لا يمنعك حذر المراء من حسن المناظرة فان المماري هو الذى لا يريد أن يتعلم منه أحد ولا يرجو أن يتعلم من أحد

واعلم أن لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيئان رغبة أو رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا. أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته. وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدّتا إلى كنه العلم وحقيقة الزهد لأن الرغبة أقوى الباعثين على العلم والرهبة أقوى السببين فى الزهد. وقد قالت الحكماء: أصل العلم الرغبة وثمرته السعادة وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فياويح مفترقين فما أضر افتراقهما وأقبح انفرادهما. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من ازداد فى العلم رشدا ولم يزدد فى الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا». وقال مالك بن دينار: من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتى منه لا ينفعه. وقال بعض الحكماء: الفقيه بغير ورع كالسراج يضيء البيت ويحرق نفسه

(فصل) واعلم أن للعلوم أوائل تؤدّى الى أواخرها ومداخل تفضى إلى حقائقها فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى ولذلك أسباب فاسدة ودواع واهية. فمنها أن يكون فى النفس أغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل

يؤثر القضاء ويتصدّى للحكم فيقصد من علم الفقه إلى أدب القاضى وما يتعلق به من الدعوى والبينات . أو يحب الاتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل ما يعانى فاذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره وأدرك منه مشهوره ولم ير ما بقى إلا غامضا طلبه عناء وعويصا استخراجه فناء لقصور همته على ما أدرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهمّ مما أدرك لأن بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبله فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها وقد يصح قيام الأوائل بأنفسها فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركا للأوائل والأواخر فاذا ليس يعرى من لوم وإن كان تارك الكل ألوم. ومنها أن يحب الاشتهار بالعلم إما لتكسب أو لتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو لا يعرف مذهبا مخصوصا ولقد رأيت من هذه الطبقة عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتبحرين إذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم وإذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا إذا نمقوا فى المجالس كلاما مرصوفا ولفقوا على المخالف حجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدئ ويتداوله الناشئ فهم دائما فى لغط مضلّ أو غلط مذلّ . ورأيت قوما منهم يرون الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجّنى بعضهم عليه فقال : كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وعلم المناظر علما مشهورا فقلت : كيف يكون علم حافظ المذهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب لأنه ان لم يسأل سكت فلم يعرف والمناظر ان لم يسأل سأل فعرف وقلت

أليس اذا سئل الحافظ فأصاب بان فضله قال نعم قلت: أفليس اذا سئل المناظر فأخطأ بان نقصه وقد قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان فأمسك عن جوابى لأنه ان أنكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك إذعان والسكوت رضا ولأن ينقاد إلى الحق أولى من أن يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفونى وهو غير عروف ولا معروف وبعيد ممن لا يعرف العلم أن يعرفه به . وقد قال زهير:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أسباب التقصير أيضا أن يغفل عن التعلم فى الصغر ثم يشتغل به فى الكبر فيستحى أن يبتدئ بما يبتدئ الصغير ويستنكف أن يساويه الحدث الغرير فيبدأ بأواخر العلوم وأطرافها ويهتم بحواشيها وأكنافها ليتقدّم على الصغير المبتدى ويساوى الكبير المنتهى وهذا ممن رضى بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه لأن معقوله ان أحس ومعقول كل ذى حس يشهد بفساد هذا التصوّر وينطق باختلال هذا التخيل لأنه شيء لا يقوم فى وهم وجهل ما يبتدئ به المتعلم أقبح من جهل ما ينتهى اليه العالم . وقد قال الشاعر :

ترق الى صغير الأمر حتى يرقيك الصغير الى الكبير

فتعرف بالتفكر فى صغير كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعنى وأشباهه كان التعلم فى الصغر أحمد . روى مروان بن سالم عن إسمعيل بن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخر والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء» . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : قلب الحدث كالأراضى الخالية ما ألق فيها من شيء قبلته . وانما كان ذلك لأن الصغير أفرغ قلبا وأقل شغلا وأيسر تبذلا وأكثر تواضعا

وقد قيل فى منثور الحكم : المتواضع من طلاب العلم أكثرهم علما

كما ان المكان المنخفض أكثر البقاع ماء فأما أن يكون الصغير أضبط من الكبير اذا عرى من هـذه الموانع وأوعى منه اذا خلا من هـذه القواطع فلا . حكى أن الأحنف بن قيس سمع رجلا يقول : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر فقال الأحنف : الكبير أكثر عقلا ولكنه أشغل قلبا ولعمرى لقد لخص الأحنف عن المعنى وبينه ونبه على العلة لأن قواطع الكبير كثيرة . فمنها ماذكرنا من الاستحياء . وقد قيل فى منثور الحكم : من رق وجهه رق علمه . وقال الخليل بن أحمد : يرتع الجهل بين الحياء والكبر فى العلم . ومنها وفور شهواته وتقسم أفكاره . وقال الشاعر :

صرف الهوى عن ذى الهوى عزيز إن الهوى ليس له تمييز

وقال بعض البلغاء : القلب اذا علق كالرهن اذا غلق . ومنها الطوارق المزعجة والهموم المذهلة . وقد قيل فى منثور الحكم : الهمّ قيد الحواس . وقال بعض البلغاء : من بلغ أَشُدّه لاقى من العيش أشدّه . ومنها كثرة أشغاله وترادف أحواله حتى إنها تستوعب زمانه وتستنفد أيامه فاذا كان ذا رياسة ألهته وإن كان ذا معيشة قطعته ولذلك قيل : تفقهوا قبل أن تسوّدوا . وقال بزرجمهر : الشغل مجهده والفراغ مفسده . فينبغى لطالب العلم أن لاينى فى طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدئ من العلم بأوّله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب مالا يضر جهله فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله فإن لكل علم فضولا مذهلة وشذورا مشغلة إن صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شىء أحسنه . وقال بعض الحكماء : بترك ما لايعنيك يتم لك ما يعنيك . ولا ينبغى أن يدعوه ذلك إلى ترك ما استصعب عليه إشعارا لنفسه أن ذلك من فضول علمه وإعذارا لها فى ترك الاشتغال به فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن أخذ من العلم ما تسهل وترك منه

ما تعذر كان كالقانص إذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع إلا خائبا إذ ليس يرى الصيد إلا ممتنعا كذلك العلم طلبه صعب على من جهله سهل على من علمه لأن معانيه التى يتوصل اليها مستودعة فى كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا مسموعا ومعنى مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب . وقد قال بعض الحكماء : العلوم مطالعها من ثلاثة أوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصوّر فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعانى سقط عنـه كلفة استخراجها وبقى عليـه معاناة حفظها واسـتقرارها لأن المعانى شوارد تضـل بالاغفال والعلوم وحشية تنفر بالارسـال فاذا حفظها بعد الفهم أنست واذا ذكرها بعد الأنس رست . وقال بعض العلماء: من أكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم . وقال الشاعر:

اذا لم يذاكر ذو العـلوم بعلمه ولم يستفد علمـا نسى ما تعلمـا
فكم جامع للكتب من كل مذهب يزيد مع الأيام فى جمعـه عمى

وان لم يفهم معانى ما سمع كشف عن السبب المـانع منها ليعلم العلة فى تعذر فهمها فانه بمعرفة أسباب الأشياء وعللها يصل الى تلافى ما شذ وصلاح ما فسد . وليس يخلو السبب المـانع من ذلك من ثلاثة أقسام إما أن يكون لعلة فى الكلام المترجم وإما أن يكون لعـلة فى المعنى المستودع وإما أن يكون لعلة فى السامع المستخرج . فان كان السبب المـانع من فهـمها لعلة فى الكلام المترجم عنهـا لم يخل ذلك من ثلاثة أحوال : أحدها أن يكون لتقصير اللفظ عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهـذا يكون من أحد وجهين : إما من حصر المتكلم وعيـه وإما من بلادته وقلة فهمه . والحال الثانيـة أن يكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصـير الزيادة علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من أحد وجهين : إما من هذر

المتكلم وإكثاره وإما لسوء ظنه بفهم سامعه . والحال الثالثة أن يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها . فأما تقصير اللفظ وزيادته فمن الأسباب الخاصة دون العامة لأنك لست تجد ذلك عاما فى كل كلام وانما تجده فى بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر إلى الكلام المستوفى وعن الزائد إلى الكافى أرحت نفسك من تكلف ما يكدر خاطرك وإن أقمت على استخراجه إما لضرورة دعتك إليه عند إعواز غيره أو لحمية داخلتك عند تعذر فهمه فانظر فى سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لأن ما له من الكلام محصول لا يجوز أن يكون المختل منه أكثر من الصحيح وفى الأكثر على الأقل دليل . وان كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه أسهل . وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو أصعب الأمور حالا وأبعدها استخراجا لأن ما لم يفهمه مكلمك فأنت من فهمه أبعد إلا أن تكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له .

وأما المواضعة فضربان عامة وخاصة . فأما العامة فهى مواضعة العلماء فيما جعلوه ألقابا لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ولا يقف على معنى كلامهم إلا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والأعراض والأجسام ألقابا وضعوها لمعان اتفقوا عليها ولست تجد من العلوم علما يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا

وأما الخاصة فمواضعة الواحد يقصد بباطن كلامه غير ظاهره فاذا كانت فى الكلام كانت رمزا وان كانت فى الشعر كانت لغزا . فأما الرمز فلست تجده فى علم معنوى ولا كلام لغوى وانما يختص غالبا بأحد شيئين إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز سببا لتطلع النفوس اليه

واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه وإما لمـا يدعى أربابه أنه علم معوز وأن إدراكه بديع معجز كالصنعة التى وضعها أربابها اسما لعلم الكيمياء فرمزوا بأوصافه وأخفوا معانيــه ليوهموا الشح به والأسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . وقد قال الشاعر :

منعت شيئا فأكثرت الولوع به وحب شيء الى الانسان ما منعا

ثم ليكونوا برآء من عهدة ما قالوه اذا جرّب ولو كان ما تضمن هذين النوعين وأشــباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفىّ الى العلم الجلىّ فان أغراض الناس مع اختلاف أهوائهم لا تتفق على ستر سليم وإخفاء مفيد . وقد قال زهير :

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعانى وتعظيمه من الألفاظ ليكون أحلى فى القلوب موقعا وأجلّ فى النفوس موضعا فيصير بالرمز سائرا وفى الصحف مخلدا كالذى حكى عن فيثاغورس فى وصاياه المرموزة أنه قال : احفظ ميزانك من الندى وأوزانك من الصدى يريد بحفظ الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الأوزان من الصدى حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدوّنا ولو قاله باللفظ الصريح والمعنى الفصيح لما سار عنه ولا استحسن منــه وعلة ذلك أن المحجوب عن الأفهام كالمحجوب عن الأبصار فيما يحصل له فى النفوس من التعظيم وفى القلوب من التفخيم وما ظهر منها ولم يحتجب هان واســترذل وهذا إنمـا يصح استحلاؤه فيما قل وهو باللفظ الصريح مســتَقلّ . فأما العلوم المنتشرة التى تطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوّة الباعث عليها وشدّة الداعى اليها عن الاستدعاء اليها برمز مستحلى ولفظ مســتغرب بل ذلك منفر عنها لمـا فى الاشتغال باستخراج رموزها من الابطاء عن دركها وتصوّر معانيهـا فهذا حال

الرمز . وأما اللغز فهو تحدّى أهل الفراغ وشغل ذوى البطالة ليتنافسوا فى تباين قرائحهم ويتفاخروا فى سرعة خواطرهم فيستكدّوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدى نفعا ولا يفيد علما فهم كأهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة أجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهدّ أجسامهم لا يكسبهم حمدا ولا يجدى عليهم نفعا . أُنظر الى قول الشاعر :

رجل مات وخلف رجلا ابن أم ابن أ بى أخت أبيه
معـــه أم بنى أولاده وأبا أخت بنى عم أخيـــه

أخبرنى عن هذين البيتين وقد روّعك صعوبة ما تضمناه من السؤال إذا استكدّك الفكر فى استخراجه فعلمت أنه أراد ميتا خلف أبا وزوجة وعما ماالذى أفادك من العلم ونفى عنك من الجهل ألست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو أن السائل قلب لك السؤال فأخر ما قدّم وقدّم ما أخر لكنت فى الجهل به قبل استخراجه كما كنت فى الجهل الأوّل وقد كددت نفسك وأتعبت خاطرك ثم لا تعدم أن يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله . فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» . ثم اجعل ما منّ الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون إنفاق خاطرك فيه مذخورا وكدّ فكرك فيه مشكورا . وقد روى سعيد بن أبى هند عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : . « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» ونحن نستعيذ بالله من أن نغبن فضل نعمته علينا ونجهل نفع إحسانه الينا وقد قيل فى منثور الحكم : من الفراغ تكون الصبوة . وقال بعض البلغاء : من أمضى يومه فى غير حق قضاه أو فرض أدّاه

أو مجد أثله أو حمد حصله أو خير أسسه أو علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال بعض الشعراء :

لقد هاج الفراغ عليك شغلا وأسـباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما فى الكلام من الأسباب المـانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفاء الى الاطالة والكشف الى الاغماض

وأما القسم الثانى وهو أن يكون السبب المـانع من فهم السامع لعلة فى المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من ثلاثة أقسام : إما أن يكون مستقلا بنفسـه أو يكون مقدّمة لغيره أو يكون نتيجة من غيره . فأما المستقل بنفسه فضربان جلى وخفى فأما الجلى فهو يسبق إلى فهم متصوّره من أوّل وهلة وليس هذا من أقسام ما يشكل على ذى تصوّر وأما الخفى فيحتاج فى إدراكه الى زيادة تأمل وفضـل معاناة لينجلى عما أخفى وينكشف عما أغمض و باستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به و بالارتيـاض به يسهل منـه ما استصعب ويقرب منـه ما بعد فان للرياضة جراءة وللدراية تأثيرا . وأما ما كان مقدّمة لغيره فضربان أحدهما أن تقوم المقدّمة بنفسها وإن تعدت الى غيرها فتكون كالمستقل بنفسه فى تصوّره وفهمه وإن كان مستدعيا لنتيجته والثانى أن يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدّمة إلا بما يتبعها من النتيجة لأنها تكون بعضا وتبعيض المعنى أشكل له وبعضه لا يغنى عن كله . وأما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا بأوّله ولا يتصوّر على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء وإتعاب الفكر فى استنباطه قبل قاعدته أذى . فهذا يوضح تعليل ما فى المعانى من الأسباب المانعة من فهمها

وأما القسم الثالث وهو أن يكون السبب المانع لعلة فى المستمع فذلك ضربان أحدهما من ذاته والثانى من طارئ عليه . فأما ما كان من ذاته فيتنوّع نوعين أحدهما ما كان مانعا من تصوّر المعنى وفهمه والثانى ما كان

مانعا من حفظه بعد تصوّره وفهمه فأما المانع من تصوّر المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكماء: إذا فقد العالم الذهن قلّ على الأضـداد احتجاجه وكثر الى الكتب احتياجه وليس لمن بلى به إلا الصبر والاقلال لأنه على القليل أقدر وبالصبر أحرى أن ينال و يظفر. وقد قال بعض الحكماء: قدّم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر من هذه حالته الا أن يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوّة شهوته و يكلّف جسده احتمال التعب لبعد همته فاذا لاح له المعنى بمساعدة الشهوة أعقبه ذلك إلحاح الآملين ونشاط المدركين فقلّ عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لاتنالون ماتحبون إلا بالصبر على ماتكرهون ولاتبلغون ماتهوون إلابترك ماتشتهون» وقيل فى منثور الحكم: أتعب قدمك فكم من تعب قدّمك وقال بعض البلغاء: إذا اشتد الكلف هانت الكلف وأنشد بعض أهل الأدب لعليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه :

لا تعجزن ولا تدخلك مضجرة   فالنجح يهلك بين العجز والضجر

وأما المـانع من حفظه بعد تصوّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير و إهمال التوانى فينبغى لمن بلى به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس و يوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل: لن يدرك العلم من لا يطيل درسه و يكدّ نفسه وكثرة الدرس كَدٌّ لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العـلم وينفى عنه معرّة الجهل فانّ نيل العظيم بأمر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب و بحسب الراحة يكون التعب وقد قيل : علة الراحة قلة الاستراحة. وقال بعض الحكماء: أكمل الراحة ما كانت عن كدّ التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب وربمـا استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعانى على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عنـد الحاجة فلا يكون

إلا كمن أطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة إلا الخجلا والتفريط إلا الندما وهذه حال قد يدعو اليها أحد ثلاثة أشياء: إما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته وطولُ الأمل فى التوفر عليه عند نشاطه وفسادُ الرأى فى عزيمته وليس يعلم أن الضَّجور خائب وأن الطويل الأمل مغرور وأن الفاسد الرأى مصاب والعرب تقول فى أمثالها: حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك. وقالوا: لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى ولا يعمر بك النادى وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه:

علمى معى حيثما يممت يتبعنى قلبى وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصوّر ولا فهم حتى يصير حافظا لألفاظ المعانى قيما بتلاوتها وهو لا يتصوّرها ولا يفهم ما تضمنته يروى بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذى لا يدفع شبهة ولا يؤيد حجة وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية» . وقال ابن مسعود رضى الله عنه: كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوى من لا يروى ويروى من لا يرعوى. وحدّث الحسن البصرى بحديث فقال له رجل: يا أبا سعيد عمن قال: ما تصنع بعمن أما أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته . وربما اعتمد على حفظه وتصوّره وأغفل تقييد العلم فى كتبه ثقة بما استقر فى ذهنه وهذا خطأ منه لأن الشك معترض والنسيان طارق . وقد روى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قيدوا العلم بالكتاب» . وروى أن رجلا شكا الى النبى صلى الله عليه وسلم النسيان فقال له: استعمل يدك أى اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت . وقال الخليل بن أحمد: اجعل ما فى الكتب رأس المال وما فى قلبك النفقة . وقال مهبوذ: لولا ما عقدته الكتب من تجارب

الأولين لأنحلّ مع النسيان عقود الآخرين . وقال بعض البلغاء : إن هذه الآداب نوافر تندّ عن عقل الأذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والأقلام لها رعاة . وأما الطارئ فنوعان : أحدهما شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوّره وتدفع عن إدراك حقيقته فينبغى أن يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصوّر المعنى و إدراك حقيقته . ولذلك قال بعض العلماء : لا تخل قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فتصير سقيما وقال بشار بن برد :

شفاء العمى طول السؤال و إنما دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فانما دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

والثانى أفكار تعارض الخاطر فتذهل عن تصوّر المعنى وهذا سبب قلما يعرى منه أحد لا سيما من انبسطت آماله واتسعت أمانيه وقد يقل فيمن لم يكن له فى غير العلم أرب ولا فيما سواه همة فان طرأت على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصوّر لأن القلب مع الاكراه أشدّ نفورا وأبعد قبولا وقد جاء فى الأثر بأن القلب اذا أكره عمى ولكن يعمل فى دفع ما طرأ عليه من هم مذهل أو مكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا . وقد قال الشاعر :

وليس بمغن فى المودّة شافع اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء : إن لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتألفوها بالاقتصاد فى التعليم والتوسط فى التقديم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما فى المستمع من الأسباب المانعة من فهم المعانى . وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم يدخل فى جملة أقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره وهو الخط لأن من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج فى فهمه الى تأمل الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرنا من أقسامه ومنه ما كان

مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة مأخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : «أو أثارة من علم» قال الخط . وعن مجاهد فى قوله تعالى : «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» يعنى الخط والعرب تقول : الخط أحد اللسانين وحسنه إحدى الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به يفصل شذورها وينظم منثورها . وقال ابن المقفع : اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغائب . وقال حكيم الروم : الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية . وقال حكيم العرب : الخط أصيل فى الروح وان ظهر بحواس الجسد . واختلف فى أول من كتب الخط فذكر كعب الأحبار أن أول من كتب آدم عليه السلام كتب سائر الكتب قبل موته بثلثمائة سنة فى طين ثم طبخه فلما غرقت الأرض فى أيام نوح على نبينا وعليه السلام بقيت الكتابة فأصاب كل قوم كتابهم وبقى الكتاب العربى إلى أن خص الله تعالى به اسمعيل فأصابه وتعلمها . وحكى ابن قتيبة أن أول من كتب إدريس على نبينا وعليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعدّه من أجل نافع حتى قال عكرمة : بلغ فداء أهل بدر أربعة آلاف حتى ان الرجل ليفادى على أنه يعلم الخط لما هو مستقر فى نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه وأثره . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : «اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم» فوصف نفسه بأن علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم وعدّ ذلك من نعمه العظام ومن آياته الجسام حتى أقسم به فى كتابه فقال سبحانه وتعالى : «ن والقلم ومايسطرون» فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم . واختلف فى أول من كتب بالعربية فذكر كعب الأحبار أن أول من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان إسمعيل على نبينا وعليه السلام . وحكى ابن عباس رضى

الله عنهما أن أوّل من كتب بها ووضعها إسمعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه . وحكى عروة بن الزبير رضى الله عنه أن أوّل من كتب بها قوم من الأوائل أسماؤهم أبجد وهوّز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت وكانوا ملوك مدين . وحكى ابن قتيبة فى المعـارف أن أوّل من كتب بالعربى مرامر بن مرة من أهل الأنبار ومن الأنبار انتشرت . وحكى المدائنى أن أوّل من كتب بها مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر ابن جدرة فمرامر وضع الصور وأسلم فصل ووصل وعامر وضع الاعجام . ولمـا كان الخط بهذه الحال وجب على من أراد حفظ العـلم أن يعنى بأمرين : أحدهما تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها والثانى ضبط ما اشتبه منها بالنقط والأشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط فى صحته . وقد قال على بن عبيدة : حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير . وقال أبو العباس المبرد : رداءة الخط زمانة الأدب . وقال عبد الحميد : البيان فى اللسان والبنان . وأنشدنى بعض أهل العلم لأحد شعراء البصرة :

اعذر أخاك على رداءة خطه   واغفر نذالته لجودة ضبطه
واعلم بأن الخط ليس يراد من   تركيبـه إلّا تبيّن سمطـه
فاذا أبان عن المعانى لم يكن   تحسينه الا زيادةَ شرطـه

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محـل ما زاد على الكلام المفهوم من فصاحة الألفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب : حسن الخط إحدى الفصاحتين وكما أنه لا يعذر من أراد التقدّم فى الكلام أن يطرح الفصاحة والاعراب وإن فهم وأفهم كذلك لا يعذر من أراد التقدّم فى الخط أن يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وإن فهم وأفهم . وربما تقدّم بالخط من كان الخط أجل فضائله وأشرف خصائله حتى صار علما مشهورا وسيدا مذكورا غير

أن العلماء اطّرحوا صرف الهمة إلى تحسين الخط لأنه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلماء فى الأغلب رديئة إلا من أسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل : من سعادة المرء أن يكون ردىء الخط لو أن الزمان الذى يفنيه بالكتابة يشغله بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هى السعادة وانما السعادة أن لا يكون له صارف عن العلم وعادة ذى الخط الحسن أن يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هـذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وإن لم تكن رداءة الخط سعادة. واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط أسباب تمنع من قراءته ومعرفته كما يعرض للكلام أسباب تمنع من فهمه وصحته والأسباب المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمانية أوجه : (الوجه الأول) إسقاطه ألفاظا من أثناء الكلام يصير الباقى بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه وهذا يكون إما من سهو الكاتب أومن فساد نقله وهذا يسهل اسـتنباطه على من كان مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشى الكلام وما سـلم منه على ما سقط أو فسد لا سيما اذا قلّ لأنّ الكلمة تستدعى ما يليها ومعرفة المعنى توضح عن الكلام المترجم عنه فأما من كان قليل الارتيـاض بذلك النوع فانه يصعب عليـه استنباط المعنى منه لاسيما اذا كان كثيرا لأنه يحتاج فى فهم المعانى الى الفكرة والروية فيما قد استخرجه بالكتابة فاذا هو لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن إدراكه وضلّ فكره من استنباطه (والوجه الثانى) زيادة ألفاظ فى أثنـاء الكلام يشكل بها معرفة الصحيح غير الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا أن يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل فى أثنائه ما يمنع من فهمه فيصـير ذلك رمزا يعرف بالمواضعة فأما وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لايمنع من فهمه على المرتاض وغيره (والوجه الثـالث) إسقاط

حروف من أثناء الكلمة تمنع من استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقلّ وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول فيه كالقول فى الوجه الأوّل (والوجه الرابع) زيادة حروف فى أثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهــذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقلّ ولا يمنع من استخراج الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب إخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول فى الوجه الثـانى (والوجه الخامس) وصــل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو ذلك إلى الاشكال لأن الكلمة ينبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قلّ فسهل استخراجه وان كان ذلك من قلة معرفة بالخط أومشقا تسبق به اليد كثر فصعب استخراجه إلا على المرتاض به . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : شر الكتابة المشق كما أن شر القراءة الهــذرمة وان كان للتعمية والرمز لا يعرف إلا بالمواضعة (والوجه السادس) تغيير الحروف عن أشكالها وإبدالها بأغيارها حتى يكتب الحاء على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يكون فى رموز التراجم لا يوقف عليه إلا بالمواضعة إلا لمن قد زاد فيه الذكاء فيقدر على استخراج المعمى (والوجه السابع) ضعف الخط عن تقويم الحروف على الأشكال الصحيحة وإثباتها على الأوصاف الحقيقية حتى لا تكاد الحروف تمتاز عن أغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالحاء وهــذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة وشدّة التأمل وإن كان ربمـا أضجر قارئه وأوهى معانيه . ولذلك قيل : إن الخط الحسن ليزيد الحق وضوحا (والوجه الثامن) إغفال النقط والأشكال التى تتميز بها الحروف المشتبهة وهذا أيسر أمرا وأخف حالا لأن من كان متميزا بصحة الاســتخراج ومعرفة الخط لم تخف عليــه معرفة الخط وفهم

ما تضمنه مع إغفـال النقط والاشكال بل قد اسـتقبح الكتّاب ذلك فى المكاتبات ورأوه من تقصير الكاتب أوسوء ظنه بفهم المكاتب وكان استقباحهم له فى مكاتبة الرؤساء أكثر . حكى قدامة بن جعفر: أن بعض كتّاب الدواوين حاسب عاملا فشكا العامل منه إلى عبيدالله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هـذا هذا فأخذها العامل وقرأها فظنّ أن عبيدالله أراد بهذا هذا إثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال فى إثبات الشيء هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان وأراه خط عبيدالله وقال له : إن عبيد الله قد صـدّق قولى وصحح ما ذكرت فخفى على الكاتب ذلك وأطيف به على كتّاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله فردّ إليه ليسأل عن مراده فشدّد عبيدالله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان استعظاما منه لتقصيرهم فى اسـتخراج مراده حتى احتاج إلى إبانته بالشكل فهذه حال الكتّاب فى اسـتقباحهم إعجـام المكاتبات بالنقط والأشكال فأما غير المكاتبات من سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لاسيما فى كتب الأدب التى يقصد بهـا معرفة صيغة الألفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر والغريب فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والإعجام أكثر وهى مما سواه من العلوم أيسر وقد قال الثورىّ: الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة . وقال بعض البلغاء : إعجام الخط يمنع من اسـتعجامه وشكله يؤمن إشكاله : وقال بعض الأدباء : رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم محصوله . وكما استقبح الكتّاب الشكل والإعجام فى المكاتبات وإن كان فى كتب العلوم مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط فى المكاتبات وإن كان فى العلوم مستقبحا وسبب ذلك أنهم لفرط إدلالهم بالصنعة وتقدّمهم فى الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة إلى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولقصد

ما يعتقدونه من التقدّم بهذا الحال رأوا ما نبّه عليه من سواد المداد أثرا جميلا وعلى الفضل والتخصيص دليلا . حكى أن عبيد الله بن سليمان رأى على بعض ثيابه أثر صفرة فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران وأنشد :

إنما الزعفران عطر العذارى ومداد الدُّوِىّ عطر الرجال

فهذه جملة كافية فى الابانة عن الأسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه لفظا كان أو خطا والله ولىّ التوفيق

فينبغى لطالب العلم أن يكشف عن الأسباب المانعة من فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون بعد ذلك سائسا لنفسه مدبرا لها فى حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضى الى تقصير ووفورا يؤول الى سرف وقيادها عسر. ولها أحوال ثلاث: فحال عدل وإنصاف وحال غلو وإسراف وحال تقصير وإجحاف. فأما حال العدل والانصاف فهى أن تختلف قوى النفس من جهتين متقابلتين طاعة مسعدة وشفقة كافة فطاعتها تمنع التقصير وشفقتها تردّ عن السرف وهذه أحمد الأحوال لأن ما منع من التقصير نماء وما صدّ عن السرف مستديم والنمو إذا استدام فأخلِقْ به أن يستكمل . وقال بعض الحكماء : إياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف مثل المقصر فى الخروج عن الحدّ . وأما حال الغلوّ والاسراف فهى أن تختص النفس بقوى الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على إفراغ الجهد ويفضى بها إفراغ الجهد إلى عجز الكلام فيؤديها عجز الكلام الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا . وقد قالت الحكماء : طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام إن أخذ منه قوتا عصمه وإن أسرف فيه أبشمه وربما كان فيه منيته كأخذ الأدوية التى القصد فيها شفاء ومجاوزة الحدّ فيها السم المميت . وأما حال التقصير والاجحاف فهى أن تختص النفس بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة

فيدعوها الاشفاق إلى المعصية وتمنعها المعصية من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عائدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد ويقبل العائد ويحفظ المستودع فقَدَ الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خائب مغبون. وقد قال بعض الحكماء: العجز مع الوانى والفوت مع التوانى. وقد يكون للنفس مع الأحوال الثلاث حالتان مشتركتان بغلبة إحدى القوتين فيكون للنفس طاعة وإشفاق وإحداهما أغلب من الأخرى فان كانت الطاعة أغلب كانت الى الوفور المجاوز أميل وان كان الاشـفاق أغلب كانت الى التقصير أقربْ فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه إشفاقها راض نفسه ليلبث على أحمد حالاتها. وقد أشار إلى ماوصفنا من حال النفس الفرزدق فى قوله:

لكل آمرئ نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهنّ شفيعها

فان أهمل سياستها وأغفل رياضتها ورام أن يأخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد إلى طاعة ولم تنكف عن معصية. وقال سابق البربرى:

إذا زجرت لجوجا زدته علقا ولجّت النفسُ منه فى تماديها
فعُد عليه اذا ما نفسه جمحت باللّين منك فانّ اللّـين يثنيها

فاذا استصعب عليـه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سـياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك راحة ثم عاودها بعد الاستراحة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن القلب يموت ويحيا ولو بعد حين». وقال ابن مسعود: للقلوب شهوة وإقبال وفترة وإدبار فأتوها من قبل شهوتها ولا تأتوها من قبل فترتها. وقال الشاعر:

وما سمى الانسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وأما الشروط التى يتوفر بها علم الطالب وينتهى معها كمال الراغب

مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمدّ به من المعونة فتسعة شروط : (الأوّل) العقل الذى يدرك به حقائق الأمور (والثانى) الفطنة التى يتصوّر بها غوامض العلوم (والثالث) الذكاء الذى يستقر به حفظ ما تصوّره وفهم ما علمه (والرابع) الشهوة التى يدوم بها الطلب ولا يسرع اليها الملل (والخامس) الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب (والسادس) الفراغ الذى يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار (والسابع) عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال وأمراض (والثامن) طول العمر واتساع المدة لينتهى بالاستكثار الى مراتب الكمال (والتاسع) الظفر بعالم سمح بعلمه متأنّ فى تعليمه . فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم . وقد قال الاسكندر : يحتاج طالب العلم الى أربع : مدّة وجدة وقريحة وشهوة وتمامها فى الخامس معلم ناصح

(فصل) وسأذكر طرفا مما يتأدّب به المتعلم ويكون عليه العالم . اعلم أن للمتعلم فى زمان تعلمه ملقا وتذللا إن استعملهما غنم وان تركهما حرم لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفائدة وباستدامة صبره يكون الاكثار . وقد روى معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم» . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وقال بعض الحكماء : من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدا . وقال بعض حكماء الفرس : إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث لا تحب . ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله . فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من وقر عالما فقد وقر ربه» . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل . وقال بعض الشعراء :

إن المعلم والطبيب كلاهما لاينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما

ولايمنعه من ذلك علوّ منزلته إن كانت له وان كان العالم خاملا فان العلماء بعلمهم قد استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال . وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى بكر بن دريد :

لاتحقرن عالما و إن خلقت أثوابه فى عيون رامقه
وانظر إليه بعين ذى أدب مهذب الرأى فى طرائقه
فالمسك بينا تراه ممتهنا بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه فى عارضى ملك وموضع التاج من مفارقه

وليكن مقتديا بهم فى رضى أخلاقهم متشبها بهم فى جميع أفعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشئا ولما خالفها مجانبا . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : «خيارشبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرارشيوخكم المتشبهون بشبابكم» . وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من تشبه بقوم فهو منهم» : وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى بكر ابن دريد :

العالم العاقل إبن نفسه أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدّبا فانما المرء بفضل كيسه
وليس من تكرمه لغيره مثل الذى تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه و إن آنسه والادلال عليه وان تقدّمت صحبته . فقد قيل لبعض الحكماء : من أذلّ الناس؟ فقال : عالم يجرى عليه حكم جاهل . وكلمتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبى فقال لها : من أنت فقالت : بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه وسلم : « ارحموا عزيز قوم ذلّ ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال» . ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فإنّ

فى ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما وجد بعض المتعلمين قوة فى نفسه لجودة ذكائه وحدّة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه إزراء به وتبكيتا له فيكون كمن تقدّم فيه المثل السائر لأبى البطحاء :

أعلمه الرماية كل يوم　　فلما آشتدّ ساعده رمانى

وهذه من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من يعلمونه مستجهلين وعند من قدّموه مسترذلين . وقال صالح بن عبد القدوس :

و إن عناء أن تعلم جاهلا　　فيحسب جهلا أنه منك أعلم
متى يبلغ البنيان يوما تمامه　　اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟
متى ينتهى عن سيئ من أتى به　　اذا لم يكن منه عليه تندّم ؟

وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم :

يا فاخرا للسفاه بالسلف　　وتاركا للعلاء والشرف
آباء أجسادنا هم سبب　　لأن جعلنا عرائض التلف
من علم الناس كان خير أب　　ذاك أبو الروح لا أبو الجيف

ولا ينبغى أن يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما أخذ عنه فانه ربما غالى بعض الأتباع فى عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وان لم يستدل وأن اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضى به الأمر إلى التسليم له فيما أخذ عنه ويؤول به ذلك الى التقصير فيما يصدر منه لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت أو يخرج أهلها من عداد العلماء فيما شاركت لأنه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن إبانته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين . ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلا

يناظر فى مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها أن شيخى لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجبا ، لأن شيخه كان محتشما وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل ثم أقبل المستدل علىّ وقال لى: والله لقد أفحمنى بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة من بين مستهزئ ومتعجب ومستعيذ بالله من جهل مغرب فهل رأيت كذلك عالما أوغل فى الجهل وأدلّ على قلة العقل وإذا كان المتعلم معتدل الرأى فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الهجنتين وليس كثرة السؤال فيما ألتبس إعناتا ولا قبول ماصح فى النفس تقليدا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العلم خزائن ومفتاحه السؤال فاسألوا رحمكم الله فانما يؤجر فى العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ» . وقال عليه الصلاة والسلام: «هلا سألوا اذا لم يعلموا فانما شفاء العيّ السؤال» فأمر بالسؤال وحث عليه . ونهى آخرين عن السؤال و زجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم: «أنها كم عن قيل وقال وكثرة السؤال و إضاعة المال» . وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وكثرة السؤال فانما هلك من قبلكم بكثرة السؤال» وليس هذا مخالفا للأول وانما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به إعنات ما سمع واذا كان السؤال فى موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة . وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما: بم نلت هذا العلم قال: بلسان سؤول وقلب عقول . وروى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حسن السؤال نصف العلم» . وأنشد المبرد عن أبى سليمان الغنوى:

فسل الفقيه تكن فقيها مثله لا خير فى علم بغير تدبر

واذا تعسرت الأمور فأرجها وعليك بالأمر الذى لم يعسر

وليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت وحسن الذكر باتباع أهل المنازل من العلماء اذا كان النفع بغيرهم أعم إلا أن يستوى النفعان فيكون الأخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره أولى لأن الانتساب اليه أجمل والأخذ عنه أشهر. وقد قال الشاعر:

اذا أنت لم يشهرك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس يقبله

وان صانك العلم الذى قد حملته أتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل من وجه فلا تطلب ماصعب واذا حمدت مَن خَبَرْتَه فلا تطلب من لم تختبره فان العدول عن القريب إلى البعيد عناء وترك الأسهل بالأصعب بلاء والانتقال من المخبور إلى غيره خطر وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: عقبى الأخرق مضره والمتعسف لا تدوم له مسره وقال بعض الحكماء: القصد أسهل من التعسف والكف اودَع من التكلف وربما تَتَبَّع الانسانُ مَن بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطَلَبَ ماصعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطائل وقد قالت العرب فى أمثالها: العالم كالكعبة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء وأنشدنى بعض شيوخنا لمسيح بن حاتم:

لا ترى عالما يحل بقوم فيحلوه غير دار الهوان

قلما توجد السلامة والصحة مجموعتين فى إنسان

فاذا حلتا مكانا سحيقا فهما فى النفوس معشوقتان

هذه مكة العزيزة بيت الله يسعى لحجها الثقلان

وترى أزهد البرية فى الحج لها أهلها لقرب المكان

(فصل) فأما ما يجب أن يكون عليه العلماء من الأخلاق التى بهم أليق ولهم ألزم فالتواضع ومجانبة العجب لأن التواضع عطوف والعجب

منفر وهو بكل أحد قبيح و بالعلماء أقبح لأن الناس بهم يقتدون وكثيراً ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو أنهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم لكان التواضع بهم أولى ومجانبة العجب بهم أحرى لأن العجب نقص ينافى الفضـل لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» فلا يفى ما أدركوه من فضـيلة العلم بمـا لحقهم من نقص العجب . وقد روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قليل العلم خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما إذا عبدالله عز وجل وكفى بالمرء جهلا اذا أعجب برأيه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منـه ليتواضع لكم من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . وقال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به . وعلة إعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن فوقهم من العلماء فانه ليس متناه فى العلم الا وسيجد من هو أعلم منه اذ العلم أكثر من أن يحيط به بشر . قال الله تعالى : «نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم» يعنى فى العلم . قال أهل التأويل : يعنى فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك الى الله تعالى . وقيل لبعض الحكماء : من يعرف كل العلم قال : كل الناس . وقال الشعبي : ما رأيت مثلى وما أشاء أن ألقى رجلا أعلم منى إلا لقيته لم يذكر الشعبي هـذا القول تفضـيلا لنفسه فيستقبح منه وانمـا ذكره تعظيما للعـلم عن أن يحاط به فينبغى لمن علم أن ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما أدرك منه . وقد قيل فى منثور الحكم : إذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال ولكن انظر الى من فوقك من العلماء . وأنشدت لابن العميد :

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به في دينه ثم فى دنياه إقبالا
فلينظرنّ الى من فوقه أدبا ولينظرنّ الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا و بما أدركه منه مفتخرا إلا من كان فيه مقلا ومقصرا لأنه قد يجهل قدره ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره فأما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصدّه عن العجب به . وقد قال الشعبى : العلم ثلاثة أشبار فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه وظن أنه ناله ومن نال الشبر الثانى صغرت اليه نفسه وعلم أنه لم ينله وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا . ومما أنذرك به من حالى أنى صنفت فى البيوع كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس وأجهدت فيه نفسى وكددت فيه خاطرى حتى اذا تهذّب واستكمل وكدت أعجب به وتصوّرت أنى أشدّ الناس اضطلاعا بعلمه حضرنى وأنا فى مجلسى أعرابيان فسألانى عن بيع عقداه فى البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منهن جوابا فأطرقت مفكرا و بحالى وحالهما معتبرا . فقالا : ما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت : لا . فقالا : واها لك وانصرفا ثم أتيا من يتقدّمه فى العلم كثير من أصحابى فسألاه فأجابهما مسرعا بما أقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا و بحالهما وحالى معتبرا وانى لعلى ما كنت عليه فى تلك المسائل الى وقتى فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا أوتيته وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما . ومن أوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ فى كتاب البيان حيث يقول : اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك

من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من شرّ العيّ والحصر . ونحن نستعيذ بالله تعـالى مثل ما استعاذ فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهى اليها ولا حدّ يقف عنـــده ومن كان تكلفه غير محدود فأخلق به أن يضل ويضل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل» . وقال بعض الحكماء : من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم ولقد أحسن زِيَادَةُ بن زيد حيث يقول :

إذا ماانتهى علمى تناهيت عنده أطال فأملَى أو تناهى فأقصرا
ويخـــبرنى عن غائب المرء فعله كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار أن يجهل بعضه واذا لم يكن فى جهل بعضـــه عار لم يقبح به أن يقول لا أعلم فيما ليس يعلم . وروى أن رجلا قال : يارسول الله أىّ البقاع خير وأىّ البقـاع شر فقال : لا أدرى حتى أسأل جبريل . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : وما أبردها على القلب اذا ســئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول الله أعلم وإن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما : اذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله . وقال بعض العلماء : هلك من ترك لا أدرى . وقال بعض الحكماء : ليس لى من فضيلة العلم إلا علمى بأنى لست أعلم . وقال بعض البلغاء : من قال لا أدرى عُلّم فَدَرى ومن انتحل ما لا يدرى أُهْمِلَ فهَوى ولا ينبغى للرجل وان صــار فى طبقة العلماء الأفاضـــل أن يستنكف من تعـــلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له . وقد قال عيسى بن مريم على نبينا وعليه الســـلام : يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : خمس خذوهن عنى فلو ركبتم الفلك ما وجدتموهن إلا عندى ألا لا يرجونّ أحد إلا ربه

ولا يخافنّ إلا ذنبه ولا يستنكف أن يتعلم ما ليس عنده واذا سئل عما لا يعلم فليقل لا أعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد. وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى منه موسى على نبينا وعليه السلام ولمَـا قال هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا. وقيل للخليل بن أحمد: بم أدركت هذا العلم قال: كنت اذا لقيت عالما أخذت منه وأعطيته . وقال بزرجمهر: من العلم أن لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم. وقال المنصور لشريك : أنّى لك هذا العلم قال : لم أرغب عن قليل أستفيده ولم أبخل بكثير أفيده على أن العلم يقتضى ما بقى منه ويستدعى ما تأخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه . وروى عون بن عبدالله عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا» أما طالب العلم فانه يزداد من الرحمن قربا ثم قرأ «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وأما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرأ «كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى» وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهى عنها ولا يقنع من العلم بما أدرك لأن القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل. وقد قال بعض الحكماء: عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله أشبه شيء بقليل الخير وكثيره أشبه شيء بكثيره ولن يعيب الخير إلا القلة فأما كثرته فانها أمنية. وقال بعض البلغاء: من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغى أن يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا أن يتجاوز بها قدر حقها ولأن يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد أولى من أن يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد لأن من جهل حال نفسه كان لغيرها أجهل. وقد قالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله متى يعرف الانسان ربه قال: اذا عرف نفسه . وقد قسم الخليل بن أحمد أحوال الناس فيما علموه

أو جهلوه أربعة أقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها فقال: الرجال أربعة: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك ناس فذكروه ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك مسترشد فعلموه ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فارفضوه . وأنشد أبو القاسم الآمدى :

اذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى يسائل من يدرى فكيف إذا تدرى
جهلت ولم تعـلم بأنك جاهل فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى
اذا جئت فى كل الأمور بغمة فكن هكذا أرضا يدسك الذى يدرى
ومن أعجب الأشياء أنك لا تدرى وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على أن تأتمر بمـا يأمر به ولا يكن ممن قال الله تعالى فيهم: «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا» . وقد قال قتادة فى قوله تعالى: «وإنه لذو علم لمـا علمناه» إنه العامل بمـا علم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «ويل لِجُمّاع القول ويل لِلْمُصِرِّين» يريد الذين يستمعون القول ولا يعملون به . وروى عبدالله بن وهب عن سفيان أن الخضر على نبينا وعليه السلام قال لموسى عليه السلام : يابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدّث به فيكون عليك بُورُه ولغـيرك نورُه . وقال على ابن أبى طالب: انما زهد الناس فى طلب العلم لمـا يرون من قلة انتفاع من علم بما علم . وقال أبو الدرداء: أخوف ما أخاف اذا وقفت بين يدى الله أن يقول قد علمت فماذا عملت وكان يقال: خير من القول فاعله وخير من الصواب قائله وخير من العلم حامله . وقيل فى منثور الحكم: لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به . وقال بعض العلماء : ثمرة العلم أن يعمل به وثمرة العمل أن يؤجر عليه . وقال بعض الصلحاء: العلم يهتف بالعمل فان أجابه والا ارتحل . وقال بعض الحكماء: خير العلم مانفع وخير القول

ماردع . وقال بعض الأدباء : ثمرة العلوم العمل بالمعلوم . وقال بعض البلغاء : من تمام العلم استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد . وقال أبو تمام الطائى :

ولم يحمدوا من عالم غير عامل   خلاقا ولا من عامل غير عالم
رأوا طرقات المجد عوجا فظيعة   وأفظع عجز عندهم عجز حازم

لأنه لما كان علمه حجة على من أخذ عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير اليه كان عليه أحج وله ألزم لأن مرتبة العلم قبل مرتبة القول كما أن مرتبة العلم قبل مرتبة العمل . وقد قال أبو العتاهية رحمه الله :

اسمع الى الأحكام تحملها الرواة اليك عنكا
واعلم هديت بأنها   حجج تكون عليك منكا

ثم ليتجنب أن يقول ما لا يفعل وأن يأمر بما لا يأتمر وأن يسر غير ما يظهر ولا يجعل قول الشاعر هذا :

اعمل بقولى وان قصرت فى عملى   ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

عذرا له فى تقصيره فيضره وان لم يضر غيره فان إعذار النفس يغريها ويحسن لها مساويها فان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع ومن أسرّ غير ما يظهر فقد نافق . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المكر والخديعة صاحبهما فى النار» على أن أمره بما لا يأتمر مُطَّرَح و إنكاره ما لا ينكره من نفسه مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المأمور بترك ما أمر به عنادا وارتكاب ما نهى عنه كيادا . وحكى أنّ أعرابيا أتى ابن أبى ذئب فسأله عن مسألة طلاق فأفتاه بطلاق امرأته فقال : انظر حسنا قال : نظرت وقد بانت منك فولى الأعرابى وهو يقول :

أتيت ابن ذئب أبتغي الفقه عنده فطلق حــتى البت تبت أنامله
أطلق فى فتوى ابن ذئب حليلتى وعنــد ابن ذئب أهله وحلائله

فظنّ بجهله أنه لايلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب فيه اشتراك الآمر والمأمور كيف يكون مقبولا منـه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا . وقال أحمد بن يوسف :

وعامــل بالفجور يأمر بالــبر كهاد يخوض فى الظــلم
أو كطبيب قد شــفه سقم وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ النـاس غير متعظ ثوبَك طهّــرْ أَوْ لاَ فلا تَلُمِ

وقال آخر

عوّد لسـانك قــلة اللفظ واحفظ كلامك أيما حفظ
إياك أن تعظ الرجال وقــد أصبحت محتاجا الى الوعظ

وأما الانقطاع عن العلم الى العمل أو الانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكى عن الزهرى فيــه ما يغنى عن تكلف غيره وهو أنه قال : العلم أفضل من العمل به لمن جهل والعمل أفضل من العلم لمن علم وأما فضــل ما بين العلم والعبادة اذا لم يخلّ بواجب ولم يقصر فى فرض فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يبعث العالم والعابد فيقال للعابد : ادخل الجنة و يقال للعالم : اتئد حتى تشفع للناس» . ومن آداب العلماء أن لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من إفادة مايعلمون فان البخل به لؤم وظلم والمنع منـه حسد و إثم وكيف يسوغ لهم البخل بمـا منحوه جودا من غير بخل وأوتوه عفوا من غير بذل أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونمـا وان كتموه تناقص ووهى ولو آستنّ بذلك من تقدّمهم لمـا وصــل العلم اليهــم ولانقرض عنهــم بانقراضهم ولصاروا على مرور الأيام جهالا و بتقلب الأحوال وتناقصها أرذالا . وقد قال الله تعالى : «و إذ أخذ

الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننـه للناس ولا تكتمونه» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تمنعوا العلم أهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم» ثم قرأ «إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعـد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال : «من كتم علما يحسـنه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» . وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : ما أخذ الله العهد على أهـل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العـلم أن يعلموا . وقال بعض الحكماء : اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل . وقال بعض العلماء : كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم . وقد قيل فى منثور الحكم : من كتم علما فكأنه جاهله . وقال خالد بن صفوان إنى لأفرح بافادتى المتعلم أكثر من فرحى باستفادتى من العلم . ثم له بالتعليم نفعان : أحدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال : تصدّقوا على أخيكم بعلم يرشده ورأى يسدّده . وروى ابن مسعود عن النبي صـلى الله عليه وسلم انه قال : «تعلموا العلم وعلموا فان أجر العالم والمتعلم سواء قيل : وما أجرهما قال : مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة» . والنفع الثـانى زيادة العلم وإتقان الحفظ فقد قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك . وقال ابن المعتز فى منثور الحكم : النـار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن يخمدها أن لا تجد حطبا كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحـاملين له سبب عدمه فاياك والبخل بمـا تعلم . وقال بعض العلماء : علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا أنت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت * واعلم أن المتعلمين ضربان :

مستدعًى وطالب فأما المستدعَى الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من جودة ذكائه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتها درك النجباء وظفر السعداء لأن العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته وذكائه مستكثر وأما طالب العلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعى دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم أن يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفى عليه مكنونا ولا يطوى عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغى أن لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر مؤثر. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تمنعوا العلم أهله فتظلموا ولا تضعوه فى غير أهله فتأثموا». وقال بعض الحكماء: لا تمنعوا العلم أحدا فان العلم أمنع لجانبه. فأما ان لم يكن الداعى دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرياسة فالقول فيه يقارب القول الأوّل فى تعليم من قبْله لأن العلم يعطفه الى الدين فى ثانى الحال وان لم يكن مبتدئا به فى أوّل حال. وقد حكى عن سفيان الثورى أنه قال: تعلمنا العلم لغير الله تعالى فأبى أن يكون إلا لله. وقال عبدالله بن المبارك: طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا. وان كان الداعى محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شرّ كامن ومكر باطن يريد أن يستعملهما فى شبه دينية وحيل فقهية لا تجد أهل السلامة منهما مخلصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أهلك أمتى رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد فقيل: يارسول الله أىّ الناس شرّ فقال: العلماء اذا فسدوا» فينبغى للعالم اذا رأى من هذه حاله أن يمنعه من طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على إمضاء مكره وإكمال شره. فقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «واضع العلم

فى غير أهــله كمقلد الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب» . وقال عيسى ابن مريم على نبينا وعليه السلام : لا تلقوا الجوهر للخنزير فالعلم أفضل من اللؤلؤ ومن لا يستحقه شر من الخنزير. وحكى أن تلميذا سأل عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له : لم منعته فقال : لكل تربة غرس ولكل بناء أس . وقال بعض البلغاء : لكل ثوب لابس ولكل علم قابس . وقال بعض الأدباء : ارثِ لروضةٍ توسطها خنزير وابكِ لعلمٍ حواه شرّير وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فانه أروح للعــالم وأنجح للمتعلم . وقد روى ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنّ لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم» . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : اذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت . وقال عبدالله بن الزبير : لا عاش بخير من لم ير برأيه ما لم ير بعينيه . وقال ابن الرومى :

ألمــعىّ يرى بأوّل رأى   آخر الأمر من وراء المغيب
لوذعى له فؤاد ذكــىّ   ماله فى ذكائه من ضريب
لا يروّى ولا يقلب طرفا   وأكف الرجال فى تقليب

واذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم خبيرا لم يضــع له عناء ولم يخب على يديه صاحب وإن لم يتوسمهم وخفيت عليــه أحوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا وإياه فى عنــاءٍ مُكْدٍ وتعب غير مُجْدٍ لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكى محتاج الى الزيادة وبليد يكتفى بالقليل فيضجر الذكى ويعجز البليد ومن تردّد أصحابه بين عجز وضجر ملوه وملهم . وقد حكى عبدالله بن وهب أن سفيان بن عبد الله قال : قال الخضر لموسى عليهما السلام : ياطالب العلم إن القائل أقلُّ ملالةً من المستمع فلا تُمِل جلساءَك اذا حدّثتهم ياموسى واعلم أن قلبك وعاء

فانظر ما تحشو فى وعائك. وقال بعض الحكماء : خير العلماء من لا يقلّ ولا يملّ. وقال بعض العلماء : كل علم كثر على المستمع ولم يطاوعه الفهم ازداد القلب به عمى وانما ينفع سمع الآذان اذا قوى فهم القلوب فى الأبدان وربما كان لبعض السلاطين رغبة فى العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة فى الانبساط عنده والادلال عليه بل يعطيه ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغى أن يبتدئه الا بعد الاستدعاء ولا يزيده على قدر الاكتفاء فربما أحب بعض العلماء إظهار علمه للسلطان فأكثره فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده فان السلطان متقسم الأفكار مستوعب الزمان فليس له فى العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به. وقد حكى الأصمعى رحمه الله قال : قال لى الرشيد : يا أبا عبد الملك أنت أعلم منا ونحن أعقل منك فلا تعلمنا فى ملا ولا تسرع الى تذكيرنا فى خلا واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد الا أن نستدعى ذلك منك وانظر الى ما هو ألطف فى التأديب وأنصف فى التعليم وأبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم. وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والافادة لأن لتأخير التعلم خجلة تقصير يجل السلطان عنها فان ظهر منه خطأ أو زلل فى قول أو عمل لم يجاهره بالرّد وعرّض باستدراك زلله وإصلاح خلله. وحكى أن عبدالملك بن مروان قال للشعبي : كم عطاءَك قال : ألفين قال : لحنت قال : لما ترك أمير المؤمنين الاعراب كرهت أن أعرب كلامى عليه . ثم ليحذر اتّباعَه فيما يجانب الدين ويضادّ الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت أقدام العلماء فى ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا مع سوء العاقبة وقبح الآثار. وقد روى الحسن البصرى رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزال هذه الأمة بخير

تحت يد الله وفى كنفه ما لم يمال قراؤها أمراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها ولم يمار أخيارها أشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا» . ومن آدابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كدّ المطالب فان شبه المكتسب إثم وكدّ الطالب ذل والأجر أجدر به من الاثم والعز أليق به من الذل . وأنشدنى بعض أهل الأدب لعلى ابن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى :

يقولون لى فيك انقباض وإنما — رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم — ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما — بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى — ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى — ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنها عن بعض ما لا يشينها — مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى — لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة — إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم — ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا — محياه بالأطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بدّا منه . وقال بعض البلغاء : من تفرّد بالعلم لم توحشه خلوه ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوه ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الاخوان . وقال بعض العلماء : لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم . ومن آدابهم أن يقصدوا وجه الله بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا . فقد قال الله تعالى : «ولا تشتروا بآياتى ثمنا

قليلا» . قال أبو العالية : لا تأخذوا عليـه أجرا وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول يابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أجر المعلم كأجر الصائم القائم» وحسب من هذا أجره أن يلتمس أجرا . ومن آدابهم نصح من علموه والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود فى رفدهم ومعونتهم فان ذلك أعظم لأجرهم وأسنى لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى كرم الله وجهه : ياعلى «لأن يهدى الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس» . ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فان ذلك أدعى اليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبـة فيما لديهم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف» : وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «وقروا من تتعلمون منـه ووقروا من تعلمونه» . ومن آدابهم أن لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما لمـا فى ذلك من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض العـلم بانقراضهم . فقـد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا : بلى يارسول الله قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤيسهم من روح الله ولا يدع القرآن رغبة الى ما سواه ألا لا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر» فهذه جملة كافية والله ولىّ التوفيق

باب أدب الدين

إعلم أن الله سبحانه وتعالى إنمـا كلف الخلق متعبداته وألزمهم مفترضاته وبعث اليهم رسـله وشرع لهم دينـه لغـير حاجة دعته الى

تكليفهم ولا ضرورة قادته الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عدّا من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به أعظم لأن نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والآخرة وما جمع نفعى الدنيا والآخرة كان أعظم نعمة وأكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل لأن الشرع لا يَرِد بما يمنع منه العقل والعقل لا يُتَّبَع فيما يمنع منه الشرع فلذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته وألزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلا عليهم كتابه فيما أحله وحرمه وأباحه وحظره واستحبه وكرهه وأمر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن أطاعه وأوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لأن الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع أمرا بطاعة ونهيا عن معصية ولذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة . وكان ماتخلل كتابه من قصص الأنبياء السالفة وأخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة وكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا فالحمد لله الذى نعمه لا تحصى وشكره لا يؤدّى . ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه . قال الله تعالى: «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون» ثم جعل الى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه وأشار الى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم

قال الله تعالى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» وقال الله تعالى: «وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم» فصار الكتاب أصلا والسنة فرعا واستنباط العلماء إيضاحا وكشفا. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «القرآن أصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمة المجتمعة حجة على من شذ عنها» وكان من رأفته بخلقه وتفضله على عباده أن أقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد أعدّه لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصى. قال الله تعالى: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وقال: «وما جعل عليكم فى الدين من حرج». وجعل ما كلفهم به ثلاثة أقسام قسما أمرهم باعتقاده وقسما أمرهم بفعله وقسما أمرهم بالكف عنه ليكون اختلاف جهات التكليف أبعث على قبوله وأعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما أمرهم باعتقاده قسمين قسما إثباتا وقسما نفيا. فأما الإثبات فاثبات توحيده وصفاته وإثبات بعثه رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وأما النفى فنفى الصاحبة والولد والحاجة والقبائح أجمع وهذان القسمان أول ما كلفه العاقل. وجعل ما أمرهم بفعله ثلاثة أقسام: قسما على أبدانهم كالصلاة والصيام وقسما فى أموالهم كالزكاة والكفارة وقسما على أبدانهم وفى أموالهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف عنهم أداؤه نظرا منه تعالى لهم وتفضلا منه عليهم. وجعل ما أمرهم بالكف عنه ثلاثة أقسام: قسما لاحياء نفوسهم وصلاح أبدانهم كنهيه عن القتل وأكل الخبائث وشرب الخمور المؤدّية الى فساد العقل وزواله وقسما لائتلافهم وإصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغضب والغلبة والظلم والسرف المفضى الى القطيعة والبغضاء وقسما لحفظ أنسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا كنعمته فيما أباحه لنا

وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما أمرنا به . فهل يجد العاقل فى رويته مساغا أن يقصر فيما أمر به وهو نعمة عليه أو يرى فسحة فى ارتكاب مانهى عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من آنعم عليه بنعمة فأهملها مع شدّة فاقته اليها الا مذموما فى العقل مع ما جاء من وعيد الشرع . ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده أن جعل لهم من جنس كل فريضة نفلا وجعل لهم من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه . ومن لطيف حكمته أن جعل لكل عبادة حالين حال كمال وحال جواز رفقا منه بخلقه لما سبق فى علمه أن فيهم العجل المبادر والبطىء المتثاقل ومن لا صبر له على أداء الأكمل ليكون ما أخل به من هيئات عبادته غير قادح فى فرض ولا مانع من أجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره الينا فكان أوّل ما فرض بعد تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم عبادات الأبدان وقد قدمها على ما يتعلق بالأموال لأن النفوس على الأموال أشح وبما يتعلق بالأبدان أسمح وذلك الصلاة والصيام فقدّم الصلاة على الصيام لأن الصلاة أسهل فعلا وأيسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إذا قام أحدكم الى صلاته فانما يناجى ربه فلينظر بم يناجيه» . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفرّ مرة واحمرّ أخرى فقيل له فى ذلك فقال : أتتنى الأمانة التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملتها ولا أدرى أسيء فيها أم أحسن . ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وإزالة نجس ليستديم النظافة للقاء ربه والطهارة لأداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من أوامره ونواهيه ويعتبر إعجاز ألفاظه ومعانيه

ثم علقها بأوقات راتبة وأزمان مترادفة ليكون ترادف أزمانها وتتابع أوقاتها سببا لاستدامة الخضوع له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون استيفاؤها على الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «الصلاة مكيال فمن وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله فى المطففين» . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من هانت عليه صلاته كان على الله عز وجل أهون» . وأنشدت لبعض الفصحاء فى ذلك :

أقبل على صلواتك الخمس كم مصبح وعساه لا يمسى
واستقبل اليوم الجديد بتوبة تمحو ذنوب صحيفة الأمس
فليفعلن بوجهك الغض البلى فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدّمه على زكاة الأموال لتعلق الصيام بالأبدان وكان فى إيجابه حث على رحمة الفقراء و إطعامهم وسدّ جوعاتهم لما عانوه من شدّة المجاعة فى صومهم . وقد قيل ليوسف على نبينا وعليه السلام : لم تجوع وأنت على خزائن الأرض فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع . ثم لما فى الصوم من قهر النفس و إذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها وإشعار النفس ما هى عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء ذليل به وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى على نبينا وعليه السلام وأمّه إلهين من دونه فقال : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام» فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن أن يكونا إلهين . وقد وصف الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال مسكين ابن آدم محتوم الأجل مكتوم الأمل مستور العلل

يتكلم بلحم وينظر بشحم ويسمع بعظم أسير جوعه صريع شبعه تؤذيه البقة وتنتنه العرقة وتقتله الشرقة لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . فانظر الى لطفه بنا فيما أوجبه من الصيام علينا كيف أيقظ العقول له وقد كانت عنه غافلة أو متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة ولا نافعة

ثم فرض زكاة الأموال وقدّمها على فرض الحج لأن فى الحج مع إنفاق المال سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة أسرع إجابة منها الى الحج فكان فى ايجابها مواساة للفقراء ومعونة لذوى الحاجات تكفهم عن البغضاء وتمنعهم من التقاطع وتبعثهم على التواصل لأن الآمل وصول والراجى هائب واذا زال الأمل وانقطع الرجاء واشتدّت الحاجة وقعت البغضاء واشتدّ الحسد فحدث التقاطع بين أرباب الأموال والفقراء ووقعت العداوة بين ذوى الحاجات والأغنياء حتى تفضى الى التغالب على الأموال والتغرير بالنفوس . هذا مع ما فى أداء الزكاة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لأن السماحة تبعث على أداء الحقوق والشح يصدّ عنها ومايبعث على أداء الحقوق فأجدر به حمدا وما صدّ عنها فأخلق به ذما . وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع» . فسبحان من دبرنا بلطيف حكمته وأخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفائها أعظم مما استوجبه بابدائها

ثم فرض الحج فكان آخر فروضه لأنه يجمع عملا على بدن وحقا فى مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الأبدان وفروض الأموال ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع بين النوعين فكان فى ايجابه تذكير ليوم الحشر بمفارقة المال والأهل وخضوع العزيز والذليل فى الوقوف بين يديه واجتماع المطيع والعاصى فى الرهبة

منه والرغبة اليه وإقلاع أهل المعاصى عما اجترحوه وندم المذنبين على ما أسلفوه فقلّ من حج الا وأحدث توبة من ذنب وإقلاعا من معصية. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من علامة الحجة المبرورة أن يكون صاحبها بعدها خيرا منه قبلها» وهذا صحيح لأن الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان يقدم عليه أنبأ عن صحة توبته وصحة التوبة تقتضى قبول حجته ثم نبه بما يعانى فيه من مشاق السفر المؤدى اليه على موضع النعمة برفاهة الاقامة وأنسة الأوطان ليحنو على من سلب هذه النعمة من أبناء السبيل ثم أعلم بمشاهدة حرمه الذى أنشأ منه دينه وبعث فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بمشاهدة دار الهجرة التى أعز الله بها أهل طاعته وأذل بنصرة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام أهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل له زعماء المتكبرين أنه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوى بعد الضعف البين حتى طبق الأرض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز. فاعتبر ألهمك الله الشكر ووفقك للتقوى إنعامه عليك فيما كلفك وإحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى فطنتك وأحلتك على بصيرتك بعد أن كنت لك رائدا صدوقا وناصحا شفيقا هل تحسن نهوضا بشكره اذا فعلت ما أمرك وتقبلت ما كلفك كلا انه لا يوليك نعمة توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر فى المؤتنف . وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : نعم الله أكثر من أن تشترى الا ما أعان عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر الا ما عفا عنه . وأنشدت لمنصور بن اسماعيل الفقيه المصرى رحمه الله تعالى

شكر الاله نعمة موجبة لشكره
فكيف شكرى برّه وشكره من برّه

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما أمرك

أو فرطت فيما كلفك ونفعه أعود عليك لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه الا كفورا وببداية العقول الا مزجورا وقد قال الله تعالى: «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها» . قال مجاهد : أى يعرفون ما عدّد الله عليهم من نعمه وينكرونها بقولهم إنهم ورثوها عن آبائهم أو اكتسبوها بأفعالهم. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله يابن آدم ما أنصفتنى أتحبب اليك بالنعم وتمقت الىّ بالمعاصى خيرى اليك نازل وشرك الىّ صاعد كم من ملك كريم يصعد الىّ منك بعمل قبيح». وقال بعض صلحاء السلف قد أصبح بنا من نعم الله تعالى ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندرى أيهما نشكر أجميل ما ينشر أم قبيح ما يستر فحق على من عرف موقع النعمة أن يقبلها ممتثلا لما كلف منها وقبولها يكون بأدائها ثم بشكر الله تعالى على ما أنعم به من إسدائها فان بنا من الحاجة الى نعمه أكثر مما كلفنا من شكر نعمه فان نحن أدينا حق النعمة فى التكليف تفضل باسداء النعمة من غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد أوتى حظ الدنيا والآخرة وهذا هو السعيد على الاطلاق وان قصرنا فى أداء ما كلفنا من شكره قصر عنا ما لا تكليف فيه من نعمه فنفرت النعمتان ومن نفرت عنه النعمتان فقد سلب حظ الدنيا والآخرة فلم يكن له فى الحياة حظ ولا فى الموت راحة وهذا هو الشقى بالاستحقاق وليس يختار الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم. وقد قال الله تعالى: «ليس بأمانيّكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به». وروى الأعمش عن مسلم قال: قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يارسول الله ما اشدّ هذه الآية «من يعمل سوءا يجز به» فقال: ياأبا بكر ان المصيبة فى الدنيا جزاء. واختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى: «سنعذبهم مرتين» فقال بعضهم: أحد العذابين الفضيحة فى الدنيا والثانى عذاب القبر: وقال عبدالرحمن بن يزيد : أحد العذابين مصائبهم فى الدنيا

فى أموالهم وأولادهم والثانى عذاب الآخرة فى النار وليس وان نال أهل المعاصى لذة من عيش أوأدركوا أمنية من الدنيا كانت عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة . وروى ابن لهيعة عن عقبة ابن مسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اذا رأيت الله تعالى يعطى العباد ما يشاؤون على معاصيهم إياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون»

فأما المحرمات التى يمنع الشرع منها وآستقر التكليف عقلا أو شرعا بالنهى عنها فتنقسم قسمين : منها ما تكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسفاح وشرب الخمر فقد زجر الله عنها لقوة الباعث عليها وشدة الميل اليها بنوعين من الزجر . أحدهما حدّ عاجل يرتدع به الجرىء والثانى وعيد آجل يزدجر به التقى . ومنها ما تكون النفوس نافرة منها والشهوات مصروفة عنها كأكل الخبائث والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله فى الزجر عنها بالوعيد وحده دون الحد لأن النفوس مستعدّة فى الزجر عنها والشهوات مصروفة عنها وعن ركوب المحظور منها . ثم أكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فأوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليكون الأمر بالمعروف تأكيدا لأوامره والنهى عن المنكر تأييدا لزواجره لأن النفوس الأشرة قد ألهتها الصبوة عن اتباع الأوامر وأذهلتها الشهوات عن تذكار الزواجر فكان إنكار المجانسين أزجر لها وتوبيخ المخالطين أبلغ فيها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : «ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر» . واذا كان ذلك فلا يخلو حال فاعلى المنكر من أمرين : أحدهما أن يكونوا آحادا متفرقين وأفرادا متبدّدين لم يتحزبوا فيه ولم يتضافروا عليه وهم رعية مقهورون وافذاذ مستضعفون فلا خلاف بين الناس أن أمرهم بالمعروف ونهيهم

عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد ذلك من فاعليه وسمعه من قائليه وانما اختلفوا فى وجوب ذلك على منكريه هل وجب عليهم بالعقل أو بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل لأنه لما وجب بالعقل أن يمتنع من القبيح وجب أيضا بالعقل أن يمنع غيره منه لأن ذلك أدعى الى مجانبته وأبلغ فى مفارقته . وقد روى عبدالله بن المبارك رحمه الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فأخذ كل واحد منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا: ماتصنع فقال: هو مكانى أصنع فيه ماشئت فلم يأخذوا على يديه فهلك وهلكوا . وذهب آخرون الى وجوب ذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لو أوجب النهى عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار أهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم لأن واجبات العقول لا يجوز إبطالها بالشرع وفى ورود الشرع بذلك دليل على أن العقل غير موجب لانكاره فأما اذا كان فى ترك انكاره مضرة لاحقة بمنكره وجب إنكاره بالعقل على القوانين معا فأما ان لحق المنكر مضرة من إنكاره ولم تلحقه من كفه و إقراره لم يجب عليه الانكار بالعقل ولا بالشرع أما العقل فلأنه يمنع من اجتلاب المضارّ التى لا يوازيها نفع وأما الشرع فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنكر المنكر بيدك فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الايمان» فان أراد الاقدام على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن إظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله ولا إظهار كلمة الحق لم يجب عليه النكير اذا خشى بغالب الظن تلفا أو ضررا ولم يحسن منه النكير أيضا وان كان فى إظهار النكير إعزاز دين الله تعالى و إظهار كلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف وان لم يجب عليه

اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان انتصر أوقتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن من أفضل الأعمال كلمة حق تقال عند سلطان جائر» فاما اذا كان يقتل قبل حصول الغرض قبح فى العقل أن يتعرض لانكاره وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهى إغراء بفـعل المنكر ولجاجا فى الاكثار منــه قبح فى العقل إنكاره . والحالة الثانية أن يكونــ فعل المنكر من جماعة قد تضافرت عليــه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس فىوجوب إنكاره على مذاهب شتى: فقالت طائفة من أصحاب الحديث وأهل الآثار: لا يجب انكاره والأولى بالانسان أن يكون كافا ممسكا وملازما لبيته وادعا غير منكر ولا مستفز . وقالت طائفة أخرى ممن يقول بظهور المنتظر : لايجب إنكاره ولاالتعرّض لازالته الا أن يظهر المنتظر فيتولى إنكاره بنفسه و يكونوا حينئذ أعوانه . وقالت طائفة أخرى منهم الأصم : لايجوز للناس إنكاره الا أن يجتمعوا على إمام عدل فيجب عليهم الانكار معه . وقال جمهور المتكلمين : إنكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه من وجود أعوان يصلحون له فأما مع فقد الأعوان فعلى الانسان الكف لأن الواحد قد يقتل قبل بلوغ الغرض وذلك قبيح فى العقل أن يتعرض له . فهذا حكم ما أكد الله تعـالى به أوامره وأيد به زواجره من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يختلف من أحوال الآمرين به والناهين عنه . ثم ليس يخلو حال الناس فيما أمروا به ونهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصى من أربعة أحوال: فمنهم من يستجيب الى فعل الطاعة و يكف عن ارتكاب المعاصى وهى أكمل أحوال أهل الدين وأفضــل صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين. روى محمد بن عبدالملك المدائنى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت

وكما تدين تدان» وقد قيل : كل يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع بل قالوا : زرع يومك حصاد غدك . ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصى وهى أخبث أحوال المكلفين وشر صفات المتعبدين فهذا يستحق عذاب اللاهى عن فعل ما أمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة : عجبت لمن يحتمى من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمى من المعاصى مخافة النار فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال :

جسمك قد أفنيته بالحمى دهرا من البارد والحار
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصى حذر النار

وقال ابن ضبارة : إنا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذاب الله تعالى . وقال آخر : اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه . وقيل للفضيل بن عياض رضى الله عنه : رضى الله عنك . فقال : كيف يرضى عنى ولم أرضه . ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب المجترئ لأنه تورّط بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير فى فعل الطاعة . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أفلعوا عن المعاصى قبل أن يأخذكم الله فيدعكم هَتًّا بَتًّا» (الهت الكسر والبت القطع) ولذلك قال بعض العلماء : أفضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تنزل الشبهة يقينه وقال حماد بن زيد : عجبت لمن يحتمى من الأطعمة لمضراتها كيف لا يحتمى من الذنوب لمعرّاتها . وقال بعض الصلحاء : أهل الذنوب مرضى القلوب . وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله : ما أعجب الأشياء فقال : قلب عرف الله عز وجل ثم عصاه . وقال بعض الألباء : يُدل بالطاعة العاصى وينسى عظيم المعاصى . وقال رجل لابن عباس

رضى الله عنهما : أيما أحب اليك رجل قليل الذنوب قليل العمل ، أو رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس رضى الله عنهما : لا أعدل بالسلامة شيئا . وقيل لبعض الزهاد : ما تقول فى صلاة الليل فقال خف الله بالنهار ونم بالليل . وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم : أهلككم النوم فقال : بل أهلكتكم اليقظة . وقيل لأبى هريرة رضى الله عنه : ما التقوى فقال : أجزت فى أرض فيها شوك ؟ فقال : نعم فقال : كيف كنت تصنع ؟ فقال : كنت أتوقى قال : فتوق الخطايا . وقال عبد الله بن المبارك :

أيضمن لى فتى ترك المعاصى وأرهنه الكفالة بالخلاص
أطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصى

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصى فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه المنذر بقلة يقينه . وروى أبو إدريس الخولانى عن أبى ذرّ الغفارى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كانت صحف موسى على نبينا وعليه السلام كلها عبرا عجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم يتعب وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجتهدوا فى العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصى » وهذا واضح المعنى لأن الكف عن المعاصى ترك وهو أسهل وعمل الطاعات فعل وهو أثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب المعصية بعذر ولا بغير عذر لأنه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وانما أباح ترك الأعمال بالأعذار لأن العمل قد يعجز المعذور عنه . وقال بكر بن عبد الله : رحم الله آمرأ كان قويا فأعمل قوّته فى طاعة الله تعالى أو كان ضعيفا

فكف عن معصية الله تعالى . وقال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى رحمه الله تعالى :

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عثرات الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسأل عن سنيه فيشتهى تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم أن لأعمال الطاعة ومجانبة المعاصى آفتين : إحداهما تكسب الوزر . والأخرى توهن الأجر . فأما المكسبة للوزر فاعجاب بما سلف من عمله وقدّم من طاعته لأن الاعجاب به يفضى الى حالتين مذمومتين : إحداهما أن المعجب بعمله ممتنّ به والممتنّ على الله تعالى جاحد لنعمه قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوحى الله تعالى الى نبيٍّ من أنبيائه أما زهدك فى الدنيا فقد استعجلت به الراحة وأما انقطاعك الىّ فهو عزٌّ لك فهذان لك و بقيت أنا . والثانية أن المعجب بعمله مدل به والمدلّ بعمله مجترئ والمجترئ على الله عاص . وقال مؤرق العجلى : خير من العجب بالطاعة أن لا تأتى بطاعة . وقال بعض السلف : ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربه و باك نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه . وأما الموهنة للأجر فالثقة بما أسلف والركون الى ما قدّم لأن الثقة تئُول الى أمرين : أحدهما يحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصر واتكل لم يرج أجرا ولم يؤدّ شكرا . والثانى أن الواثق آمن والآمن من الله تعالى غير خائف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه أوامره وسهلت عليه زواجره . وقال الفضيل بن عياض : رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى . وقال مؤرق العجلى : لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب الىّ من أن أبيت قائما وأصبح ناعما . وقال الحكماء : ما بينك و بين أن لا يكون فيك خير إلا أن ترى أن فيك خيرا . وقيل لرابعة العدوية

رحمها الله : هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك قالت : إن كان شيء تخوفى من ان يردّ عليّ عملى . وحكى أن بعض الزهاد وقف على جمع فنادى بأعلى صوته : يامعشر الأغنياء لكم أقول : استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة يا معشر الفقراء لكم أقول. أقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة. فينبغى — أحسن الله اليك بالتوفيق — أن لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصـير فى طاعة ربك والثقة بسالف عملك فاجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مسـتعدّا ولا مافات مسـتدركا وللفراغ زيغ أو ندم وللخلوة ميل أو أسف . وقال عمر بن الخطاب : الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة. وقال بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة . وقال بعض الحكماء : إياكم والخلوات فانهـا تفسد العقول وتعقد المحلول . وقال بعض البلغاء : لا تمض يومك فى غير منفعة ولا تضع مالك فى غير صنيعة فالعمر أقصر من أن ينفـد فى غير المنافع والمـال أقل من أن يصرف فى غير الصـنائع والعاقل أجل من أن يفنى أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق أمواله فيما لا يحصـل له ثوابه وأجره . وأبلغ من ذلك قول عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : البر ثلاثة : المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه فى غير ذكر فقـد لغا ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها

واعلم أن للانسان فيما كلف من عباداته ثلاث أحوال : إحداها أن يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية أن يقصر فيها والثالثة أن يزيد عليها . فأما الحال الأولى فهى أن يأتى بها على حال الكمال من غير تقصـير فيهـا ولا زيادة تطوّع على راتبتها فهى أوسـط الأحوال وأعدلها لأنه لم يكن منه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد ابن أبى سعيد رضى الله عنـه عن أبى هريرة رضى الله عنـه أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : «سدّدوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» وقال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

وأما الحال الثانية وهو أن يقصر فيها فلا يخلو حال تقصيره من أربعة أحوال : إحداها أن يكون لعذر أعجزه عنه أو مرض أضعفه عن أداء ما كلف به فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق بأحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز . وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عنه مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله» . والحال الثانية أن يكون تقصيره فيه اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل فقد جعل الظنّ ذخرا والرجاء عدّة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بأنه سيجده فى المفاوز الجدبة فيفضى به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر أغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه . وحكى أن اسرائيل بن محمد القاضى قال : لقينى مجنون كان فى الخربات فقال : يا اسرائيل خف الله خوفا يشغلك عن الرجاء فان الرجاء يشغلك عن الخوف وفرّ الى الله ولا تفرّ منه . وقيل لمحمد بن واسع رحمه الله : ألا تبكى ؟ فقال : تلك حلية الآمنين . وحكى أن أبا حازم الأعرج أخبر سليمان بن عبدالملك بوعيدالله للمذنبين فقال سليمان : أين رحمة الله ؟ قال : قريب من المحسنين . وقال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما : ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الى علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه : أما بعد فان الانسان ليسرّه درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلته من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن

ممن يرجو الآخرة بغير عمل و يؤخر التوبة لطول الأمل فكأن قد والسلام .
وقال محمود الوراق رحمه الله :

أخاف على المحسن المتـق وأرجو لذى الهفوات المسى
فذلك خوفى على محسـن فكيف على الظالم المعتدى؟
على أن ذا الزيغ قد يستفيق و يستأنف الزيغ قلب التق

والحال الثالثة أن يكون تقصيره فيه ليستوفى ما أخل به من بعد فيبدأ بالسيئة فى التقصير قبل الحسـنة فى الاستيفاء اغترارا بالأمل فى إمهاله ورجاء لتلافى ما أسلف من تقصيره و إخلاله فلا ينتهى به الأمل الى غاية ولا يفضى به الى نهاية لأن الأمل هو فى ثانى حال كهو فى أول حال . فقـد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من يؤمل أن يعيش غدا فانه يؤمل أن يعيش أبدا» ولعمرى إن هـذا صحيح لأن لكل يوم غدا فاذن يفضى به الأمل الى الفـوت من غير درك و يؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصـير الأمل خيبة والرجاء يأسا . وقد روى عمرو بن سعيد عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : « أول صلاح هـذه الأمة بالزهد واليقين وفسادها بالبخل والأمل » وقال الحسن البصرى رحمه الله : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل . وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة : ألك حاجة ببغداد؟ قال : ما أحب أن أبسط أملى الى أن تذهب الى بغداد وتجىء .
وقال بعض الحكماء : الجاهل يعتمد على أمله والعاقل يعتمد على عمله .
وقال بعض البلغاء : الأمل كالسراب غرّ من رآه وخاب من رجاه .
وقال محمد بن يزداد : دخلت على المأمون وكنت يومئذ وزيره فرأيته قائما وبيده رقعة فقال : يا محمد أقرأت ما فيها؟ فقلت : هى فى يد أمير المؤمنين فرمى بها الىّ فاذا فيها مكتوب :

إنك فى دار لهـا مـدّة يقبل فيها عمـل العامل

أما ترى الموت محيطا بها   يقطع فيها أمل الآمل ؟
تعجل بالذنب لما تشتهى   وتأمل التوبة من قابل
والموت يأتى بعد ذا بغتة   ما ذاك فعل الحازم العاقل

فلما قرأتها قال المأمون رحمه الله تعالى: هذا من أحكم شعر قرأته. وقال أبو حازم الأعرج: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت. وقال بعض البلغاء: زائد الامهال رائد الاهمال. والحال الرابعة أن يكون تقصيره فيه استثقالا للاستيفاء وزهدا فى التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث بما بقى فهذا على ثلاثة أضرب: أحدها أن يكون ما أخل به وقصر فيه غير قادح فى فرض ولا مانع من عبادة كمن اقتصر فى العبادة على فعل واجباتها وعمل مفترضاتها وأخل بمسنوناتها وهيآتها فهذا مسىء فيما ترك إساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لأن أداء الواجب يسقط عنه العقاب وإخلاله بالمسنون يمنع من إكمال الثواب. وقد قال بعض الحكماء: من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر:

ويصون توبته ويترك غير ذلك لا يصونه
وأحق ما صان الفتى ورعى أمانته ودينه

والضرب الثانى أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته لكن لا يقدح ترك ما بقى فيما مضى كمن أكمل عبادات وأخل بغيرها فهذا أسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب. والضرب الثالث أن يكون ما أخل به من مفروض عبادته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التى يرتبط بعضها ببعض فيكون المقصر فى بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له ما عمل لاخلاله بما بقى فهذا أسوأ أحوال المقصرين وحاله لاحقة بأحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدى حقا فقد ساوى التاركين فى استحقاق الوعيد وزاد عليهم

فى تكلف ما لا يفيد فصار من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لعله لا يفطن لشانه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهى واختل .
وأنشدنى بعض أهل العلم :

أبنىّ إن من الرجال بهيمة فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله واذا يصاب بدينه لم يشعر

وأما الحال الثالثة وهو أن يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة أقسام : أحدها أن تكون الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس فى الأخيار وهو ضدهم وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرائى بعمله مثلا فقال : «المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور» يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبى زور هو الذى يلبس ثياب الصلحاء فهو بريائه محروم الأجر مذموم الذكر لأنه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه ولا يخفى رياؤه على الناس فيحمد به قال الله تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا» قال جميع أهل التأويل : معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أى لا يرائى بعمله أحدا فجعل الرياء شركا لأنه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودا به غير الله تعالى .
وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى : «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها» قال : لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء . وكان سفيان ابن عيينة رحمه الله يتأول قوله تعالى : «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى» أن العدل استواء السريرة والعلانية فى العمل لله تعالى والاحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته وكان

غيره يقول العـدل شهادة أن لا إله الا الله والاحسان الصبر على أمره ونهيـه وطاعة الله فى سره وجهره وإيتـاء ذى القربى صـلة الأرحام وينهى عن الفحشاء يعنى الزنا والمنكر القبائح والبغى الكبر والظلم وليس يخرج الرياء بالأعمـال من هـذا التأويل أيضا لأنه من جملة القبائح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أخوف ما أخاف على امتى الرياء الظاهر والشهوة الخفية» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة من يرى أن فيه خيرا ولا خير فيه» . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا تعمل شيئا من الخير رياء ولا تتركه حياء . وقال بعض العلماء : كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء . وقد يفضى الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكى أن طاهر بن الحسين قال لأبى عبدالله المروزى : منذ كم صرت الى العراق يا أبا عبدالله قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم فقال : يا أبا عبدالله سألتك عن مسألة فأجبت عن مسألتين . وحكى الأصمعى رحمه الله : أن أعرابيا صلى فأطال والى جانبه قوم فقالوا : ما أحسن صلاتك ! فقال : وأنا مع ذلك صائم !

صلى فأعجبنى وصـام فرابنى نح القلوص عن المصلى الصائم

فانظر الى هذا الرياء مع قبحه ما أدله على سخف عقل صاحبـه . وربما ساعد الناس مع ظهور ريائه على الاستهزاء بنفسه كالذى حكى أن زاهدا نظر الى رجل فى وجهه سجادة كبيرة واقفا على باب السلطان فقال : مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقف ههنا فقال : انه ضرب على غير السكة وهذا من أجوبة الخلاعة التى يدفع بها تهجين المذمة . ولقد استحسن الناس من الأشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال بعض أهل المسجد خففت صلاتك جدّا فقال : انه لم يخالطها رياء فتخلص من تنقيصهم بنفى الرياء عن نفسه ورفع التصنع فى صـلاته

وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به . ومرّ أبو أمامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلى وهو يبكى فقال له : أنت أنت لو كان هذا فى بيتك فلم ير ذلك منه حسنا لأنه اتهمه بالرياء ولعله كان بريئا منه فكيف بمن صار الرياء أغلب صفاته وأشهر سماته مع أنه أثم فيما عمل وأنم من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال عبدالله بن المبارك : أفضل الزهد إخفاء الزهد ور بما أحس ذو الفضل من نفسه ميلا الى المراءاة فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس من المراءاة فكان ذلك أبلغ فى فضله وقال عمر بن عبدالعزيز لمحمد بن كعب القرظى عظنى : . فقال : لا أرضى نفسى لك واعظا لأنى أجلس بين الغنى والفقير فأميل على الفقير وأوسع للغنى ولأن طاعة الله تعالى فى العمل لوجهه لا لغيره . وحكى أن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا: قد ضللنا فكيف الطريق فقال : ههنا وأومأ بيده الى السماء

والقسم الثانى أن يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد تثمره مجالسة الأخيار الأفاضل وتحدثه مكاثرة الأتقياء الأماثل . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» . فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدى بهم فى أفعالهم ويتأسى بهم فى أعمالهم ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم ولا أن يكون فى الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم فيصيرون سببا لسعادته و باعثا على استزادته والعرب تقول : لولا الوئام لهلك الأنام أى لولا أن الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدى بهم فى الخير لهلكوا . ولذلك قال بعض البلغاء : من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار مودّة الأشرار وهذا صحيح لأن للمصاحبة تأثيرا فى اكتساب الأخلاق فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح وتفسد بمصاحبة أهل الفساد . ولذلك قال الشاعر :

رأيت صـلاح المرء يصلح أهله ويعديهم داء الفساد إذا فسـد
يعظم فى الدنيا بفضـل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى بكر الخوارزمى :

لا تصحب الكسلان فى حالاته كم صـالح بفساد آخر يفسـد
عدوى البليد الى الجليد سريعة والجمر يوضـع فى الرماد فيخمد

والقسم الثالث أن يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة فى الزلفة بها فهذا من نتـائج النفس الزاكيـة ودواعى الرغبـة الوافية الدالين على خلوص الدين وصحة اليقين وذلك أفضل أحوال العاملين وأعلى منازل العابدين وقد قيل : الناس فى الخير أربعة : منهم من يفعله ابتـداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردىء ومن تركه حرمانا فهو شقى . ثم لما يفعله من الزيادة حالتان : إحداهما أن يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهى أفضل الحالتين وأعلى المنزلتين عليها انقرض أخيار السلف وتتبعهم فيها فضلاء الخلف . وقد روت عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أيها الناس افعلوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يمّل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه» والعرب تقول القصد والدوام وأنت السابق الجواد . ولأن من كان صحيح الرغبة فى ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا فى طاعته . وقال عبدالله ابن المبارك قلت لراهب : متى عيدكم ؟ قال : كل يوم لا أعصى الله فيه فهو يوم عيد . أنظر الى هذا القول منه وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما أبلغه فى حب الطاعة وأحثه على بذل الاسـتطاعة . وخرج بعض الزهاد فى يوم عيد فى هيئة رثة فقيل : لم تخرج فى مثل هذا اليوم فى مثل هذه الهيئة والناس متزينون ؟ فقال : ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته . والحالة الثانية

أن يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر أشبه لأن الاستكثار من الزيادة إما أن يمنع من أداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لأنه تطوع بزيادة أحدثت نقصا وبنفل منع فرضا وإما أن يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير إخلال بلازم ولا تقصير فى فرض فهى اذا قصيرة المدى قليلة اللبث والقليل العمل فى طويل الزمان أفضل عند الله عز وجل من كثير العمل فى قليل الزمان لأن المستكثر من العمل فى الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار فى زمان تركه لاهيا أو ساهيا والمقلل فى الزمان الطويل مستيقظ الأفكار مستديم التذكار. وقد روى أبو صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن للاسلام شرة وللشرة فترة فمن سدّد وقارب فارجوه ومن أشير اليه بالأصابع فلا تعدوه» فجعل للاسلام شرة وهى الايغال فى الاكثار وجعل للشرة فترة وهى الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل بما أثبت من أن تكون هذه الزيادة تقصيرا أو إخلالا ولا خير فى واحد منهما.

واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك واليك أن الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بدّ فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتأمن فجعاتها فقد قيل: المرء مقترض من عمره المنقرض مع أن العمر وان طال قصير والفراغ وان تمّ يسير. وأنشدت لعلى بن محمد رحمه الله تعالى:

إذا كملت للمرء ستون حجة ... فلم يحظ من ستين الا بسدسها
ألم تر أن النصف بالليل حاصل ... وتذهب أوقات المقيل بخمسها
فتأخذ أوقات الهموم بحصة ... وأوقات أوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره ... اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضــة نفسك لذلك تترتب على أحوال ثلاث وكل حالة منها تتشعب وهى لتسهيل ما يليها سبب :

(فالحالة الأولى) أن تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن آخرتك ولا تجعل سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوقّ الركون اليها ولا تكن آمنا لها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أُشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها ٱلتاط منها بشغل لا يفرغ عناه وأمل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه» . وقال عيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : الدنيا لابليس مزرعة وأهلها له حراث. وقال على بن أبى طالب : مثل الدنيا مثل الحية لين مسها قاتل سمها فأعرض عما أعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أحذر ما تكون لها وأنت آنس ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى إيناس أزاله عنها إيحاش . وقال بعض البلغاء: الدنيا لا تصفو لشارب ولا تبقى لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلى من محنة فأعرض عنها قبــل أن تعرض عنك واستبدل بها قبل أن تستبدل بك فان نعيمها يتنقل وأحوالهــا تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى : وقال بعض الحكماء : انظر الى الدنيا نظر الزاهــد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بهــا . وقال بعض الشعراء :

ألا انمــا الدنيا كأحلام نائم ... وما خير عيش لايكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالأمس لذة ... فأفنيتها هل أنت إلا كحــالم
فكم غافل عنــه وليس بغافل ... وكم نائم عنـــه وليس بنائم

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من هوان الدنيا على الله أن لا يعصى إلا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها» . وروى سفيان أن الخضر قال لموسى عليهما السلام: ياموسى أعرض عن الدنيا وانبذها

وراءك فانهـا ليست لك بدار ولا فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال عليّ كرم الله وجهه يصف الدنيا : أوّلها عناء وآخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيهـا أمن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن ومن ساعاها فاتته ومن قعد عنها أتته ومن نظر اليها أعمته ومن نظر بهـا بصرته . وقال بعض البلغاء : إن الدنيا تقبل إقبال الطالب وتدبر إدبار الهارب وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصـير وإقبالها خديعة وإدبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزوّد من يومك لغدك . وقال وهب بن منبه : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرّتين ان أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى . وقال عبد الحميد : الدنيا منازل فراحل ونازل . وقال بعض الحكماء : الدنيا إما نقمة نازلة وإما نعمة زائلة وقيل فى منثور الحكم : من الدنيا على الدنيا دليل . وقال الشاعر :

تمتع من الأيام ان كنت حازما ... فانك منهـا بين ناه وآمر
اذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فمـا فاته منهـا فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن ذرّ من جناح لطائر
فمـا رضى الدنيا ثوابا لمؤمن ... ولا رضى الدنيـا جزاء لكافر

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الدنيـا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهمـا زائل عنك فدعوا ما يزول وأتعبوا نفوسـكم فى العمل لمـا لا يزول» . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : لا تنازعوا أهل الدنيا فى دنياهم فينازعوكم فى دينكم فلا دنياهم أصبتم ولا دينكم أبقيتم . وقال علىّ بن أبى طالب : لا تكن ممن يقول فى الدنيـا بقول الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين فان أعطى منها لم يشـبع وان

منع منها لم يقنع يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وينهى الناس ولا ينتهى ويأمر بما لا يأتى يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الطالحين وهو منهم . وقال الحسن البصرى : الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح . وقال بعض العلماء : ان الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع أسباب الهوى عن قلبك واجعل أبعد أملك بقية يومك وكن كأنك ترى ثواب أعمالك . وقال بعض الحكماء : الدنيا إما مصيبة موجعة وإما منية مفجعة . وقال الشاعر :

خلّ دنياك إنها يعقب الخير شرها
هى أم تعق من نسلها من يبرّها
كل نفس فانها تبتغى مايسرّها
والمنايا تسوقها والأمانى تغرّها
فاذا استحلت الجنى أعقب الحلو مرّها
يستوى فى ضريحه عبد أرض وحرّها

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت آعتضت منها بثلاث خلال : إحداهنّ أن تكفى إشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة . والثانية أن تأمن الاغترار بملاهيها فتسلم من عادية دواهيها فان اللاهى بها مغرور والمغرور فيها مذعور . والثالثة أن تستريح من تعب السعى لها ووصب الكدّ فيها فان من أحب شيئا طلبه ومن طلب شيئا كدّ له والمكدود فيها شقىّ ان ظفر ومحروم ان خاب وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لكعب : يا كعب الناس غاديان فغاد بنفسه فمعتقها وموبق نفسه فموثقها . وقال عيسى بن مريم عليهما السلام : تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها الا بعمل . وقال بعض البلغاء : من نكد

الدنيـا أن لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحاله تصلح جانبا بإفساد جانب وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالركون اليها خطر والثقة بها غرر. وقال بعض الحكماء: الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا يأتى على شىء الا غيره ولمن عاش حاجة لا تنقضى . ولمـا بلغ مزدك من الدنيـا أفضل ما سمت اليه نفسه نبذها وقال: هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم وملك لولا أنه هلك وغَنـاء لولا أنه فنـاء وجسـيم لولا أنه ذمـيم ومحمود لولا أنه مفقود وغِنًى لولا أنه مُنًى وارتفـاع لولا أنه اتضـاع وعلاء لولا أنه بلاء وحسن لولا أنه حزن وهو يوم لو وثق له بغـد . وقال بعض الحكماء : قد ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهـد فلا الراغب فيها استبقت ولا عن الزاهـد فيها كفت وقال أبو العتاهية :

هى الدار دار الأذى والقذى ودار الفنـاء ودار الغـير
فـلو نلتهـا بحـذافيرها لمت ولم تقض منهـا الوطر
أيا من يؤمّل طول الخـلود وطول الخلود عليـه ضرر
اذا ما كبرت و بان الشباب فلاخير فى العيش بعد الكبر

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم انى أعوذ بك من علم لاينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع أحدكم إلا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أومرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو الدجال فهو شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر . وحكى أن الله تعالى أوحى الى عيسى بن مريم عليه السـلام أن هب لى من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضـوع ومن عينك الدموع فانى قريب . وقال عيسى بن مريم عليه السـلام : أوحى الله الى الدنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه . وقال بعض البلغاء: زد من طول أملك فى قصـير عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها

ثم طلبها فقد أخطأ الطريق وحرم التوفيق . وقال بعض الحكماء : لا يؤمننك إقبال الدنيا عليك من إدبارها عنك ولا دولة لك من إدالة منك . وقال آخر : ما مضى من الدنيا كما لم يكن ومابقى منها كما قدمضى . وقيل لزاهد : قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال : أيقنت أنى أخرج منها كارها فرأيت أن أخرج منها طائعا . وقيل لحرقة بنت النعمان : مالك تبكين؟ . فقالت : رأيت لأهلى غضارة ولم تمتلئ دار فرحا الا امتلأت ترحا . وقال ابن السماك : من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها . وقال صاحب كليلة ودمنة : طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وكان عمر ابن عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات :

نهارك يامغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والأسى لك لازم
تسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى ... كماسرّ باللذات فى النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه : لا أراك الله مكروها فقال : كأنك دعوت على صاحبك بالموت إن صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد أن يرى مكروها . وقال أبو العتاهية :

إن الزمان ولو يليـــن لأهــله لمخاشن
خطواته المتحـركا ت كأنهن سواكن

(والحالة الثانية) من أحوال رياضتك لها أن تصدّق نفسك فيما منحتك من رغائبها وأنالتك من غرائبها فتعلم أن العطية فيها مرتجعة والمنحة فيها مستردّة بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار وصولها اليك وخسران خروجها عنك . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث شبابه فيما أبلاه وعمره فيما أفناه وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه» . وروى عن عيسى بن مريم

عليه السلام أنه قال: في المال ثلاث خصال. قالوا: وما هن يا روح الله. قال: يكسبه من غير حله. قالوا: فان كسبه من حله. قال: يضعه في غير حقه. قالوا: فان وضعه في حقه. قال: يشغله عن عبادة ربه. ودخل أبو حازم على بشر بن مروان فقال: يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال: تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تأخذه الا بحقه قال: ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال: فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين. وعيرت اليهود عيسى بن مريم عليه السلام بالفقر فقال: من الغنى دهيتم. ودخل قوم منزل عابد فلم يجدوا شيئا يقعدون عليه فقال: لو كانت الدنيا دار مقام لا تخذنا لها أثاثا. وقيل لبعض الزهاد: ألا توصي قال بماذا أوصي والله مالنا شيء ولا لنا عند أحد شيء ولا لأحد عندنا شيء. أنظر الى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل: الفقر ملك ليس فيه محاسبة. وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام: ألا تتزوج؟ فقال: إنما نحب التكاثر في دار البقاء وقيل: لو دعوت الله تعالى أن يرزقك حمارا؟ فقال: أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادم حمار. وقيل لأبي حازم رضي الله عنه: ما مالك؟ قال شيئان: الرضا عن الله والغنى عن الناس وقيل له: إنك لمسكين فقال: كيف أكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟. وقال بعض الحكماء: رب مغبوط بمسرّة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه. وقال بعض الأدباء: الناس أشتات ولكل جمع شتات. وقال بعض البلغاء: الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثراء ومن قوى دينه أيقن بالجزاء فلا تغرنك صحة نفسك وسلامة أمسك فمدّة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة. وقال بعض الشعراء:

رب مغروس يعاش به عدمته عين مغترسه

وكذاك الدهـــر مأتمـه أقرب الأشياء من عُرُسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال : إحداهنّ نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لهـا وقد اعتمدت عليك فانّ غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مأفون . والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه . والثالثة انتهاز الفرصة فى مالك أن تضعه فى حقه وأن تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا فقد روى أن رجلا قال يارسول الله : إنى أكره الموت قال : ألك مال ؟ قال نعم . قال : قدّم مالك فان قلب المؤمن عند ماله . وقالت عائشة رضى الله عنها : ذبحنا شاة فتصدّقنا بها فقلت يارسول الله : ما بقى الا كتفها قال : كلها بقى الا كتفها . وحكى أن عبدالله بن عبيدالله ابن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين ألف درهم فقيل له : اتخذ لولدك من هذا المال ذخرا فقال : أنا أجعل هذا المال ذخرا لى عند الله عز وجل وأجعل الله ذخرا لولدى وتصدّق بها . وعوتب سهل بن عبدالله المروزى فى كثرة الصــدقة فقال : لو أن رجلا أراد أن ينتقل من دار الى دار أكان يبقى فى الأولى شيئا . وقال سليمان بن عبد الملك لأبى حازم : ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم أن تنتقلوا من العمران الى الخراب . وقيل لعبد الله بن عمر : ترك زيد بن خارجة مائة ألف درهم فقال : لكنها لا تتركه . وقال الحسن البصرى رحمه الله : ما أنعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان بن داود عليــه السلام فان الله تعالى قال له : «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» وقال أبو حازم : ان عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقد مازوى عنا . وقال بعض السلف : قدّموا كلا ليكون لكم ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم . وقال ابراهيم : نعم القوم السؤّال يدقون أبوابكم يقولون أتوجهون للآخرة شيئا . وقال سعيد بن المسيب : مرّ بى صلة بن أشيم فمـا تمالكت أن

نهضت اليه فقلت : يا أبا الصهباء ادع لى فقال : رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين الذى لا تسكن النفس الا اليه ولا يعوّل فى الدين الا عليه . ولما ثقل عبدالملك بن مروان رأى غسالا يلوى بيده ثوبا فقال : وددت أنى كنت غسالا لا أعيش الا بما أكتسبه يوما فيوما فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم يتمنون عند الموت مانحن فيه ولا نتمنى نحن عنده ما هم فيه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك يا بن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت . وقال خالد بن صفوان : بت ليلتى أتمنى فكسبت البحر الأخضر والذهب الأحمر فاذا يكفينى من ذلك رغيفان وكوزان وطمران . وقال مؤرق العجلى : يابن آدم تؤتى كل يوم برزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك . وقال أبوحازم : انما بيننا وبين الملوك يوم واحد أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته وإنا وهم من غد على وجل وإنما هو اليوم فما عسى أن يكون . وقال بعض السلف : تعز عن الشيء اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا أعطيته . وقال بعض الحكماء : من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الآخرة . وقال آخر : ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها أهون من رفضها بعد ملابستها . وقال آخر : ليكن طلبك الدنيا اضطرارا وتذكرك فى الأمور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال آخر : الزاهد لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود . وقال آخر : من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا ومن أيقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى . وقال آخر : من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر . وقال أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر ... وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج اليه

وحكى الأصمعى رحمه الله قال : دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر فى كتاب ودموعه تسيل على خدّه فلما أبصرنى قال : أرأيت ما كان منى؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين . فقال : أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى الىّ بالقرطاس فاذا فيه شعر أبى العتاهية رحمه الله تعالى :

هل أنت معتبر بمن خربت   منه غداة قضى دساكره
وبمن أذل الدهر مصرعه   فتبرأت منه عساكره
وبمن خلت منه أسرته   وتعطلت منه منابره
أين الملوك وأين عزهم ؟   صاروا مصيرا أنت صائره!
يامؤثر الدنيا للذته   والمستعدّ لمن يفاخره :
نل مابدالك أن تنال من الدّنيا* فان الموت آخره

فقال الرشيد رحمة الله عليه : والله لكأنى أخاطب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات رحمه الله . ثم الحالة الثالثة من أحوال رياضتك لها أن تكشف لنفسك حال أجلك وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الأمل أجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه : «أيها الناس إن الأيام تطوى والأعمار تفنى والأبدان تبلى وإن الليل والنهار يترا كضان كتراكض البريد يقرّبان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ورغب فى الباقيات الصالحات» وقال مسعر: كم من مستقبل يوما وليس يستكمله ومنتظر غدا وليس من أجله ولو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره . وقال رجل من الأنصار للنبى صلى الله عليه وسلم : من أكيس الناس قال : أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة . وقال عيسى بن مريم عليه السلام : كما تنامون كذلك تموتون

وكما تستيقظون كذلك تبعثون . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أيها الناس اتقوا الله الذى ان قلتم سمع وان أضمرتم علم و بادروا الموت الذى ان هربتم أدركم وان أقمتم أخذكم . وقال العلاء بن المسيب : ليس قبل الموت شىء الا والموت أشدّ منه وليس بعد الموت شىء الا والموت أيسرمنه . وقال بعض الحكماء : إن للباقى بالماضى معتبرا وللآخر بالأوّل مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع . وقال بعض الصلحاء : إن بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنائك الذى لا يبقى لبقائك الذى لا يفنى . وقال بعض العلماء : أىّ عيش يطيب وليس للموت طبيب . وقال بعض البلغاء : كل امرئ يجرى من عمره الى غاية تنتهى اليها مدّة أجله وتنطوى عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بأمسك وكف عن سيئاتك وزد فى حسناتك قبل أن تستوفى مدّة الأجل وتقصر عن الزيادة فى السعى والعمل . وقيل فى منثور الحكم : من لم يتعرض للنوائب تعرّضت له . وقال أبو العتاهية

ما للقابر لا تجيب اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة عليـ*ـهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان واطـ فال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن نفسى بفرقته تطيب
غادرته فى بعضـ*ـهن مجندلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وإنما عهدى برؤيته قريب

ووعظ النبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال : أقلل من الدنيا تعش حرا وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس . وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى : عظنى وأوجز فقال : اعلم أنك أوّل خليفة يموت . وعزى أعرابى رجلا عن ابن صغير له فقال : الحمد لله الذى نجاه مما ههنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من

الخطر. وقال بعض السلف : من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة. وقال بعض الصلحاء: استغنم تنفس الأجل وإمكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك فى أجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود. وقال بعض الحكماء: الطبيب معذور اذا لم يقدر على دفع المحذور . وقال بعض البلغاء : اعمل عمل المرتحل فان حادى الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

غرّ جهولا أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر قد غاب عنه أوّله ؟
والمرء لا يصحبه فى القبر إلا عمله

(وقال أبو العتاهية)

لا تأمن الموت فى لحظ ولا نفس وإن تمنعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدّرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال : إحداها أن تكفى تسويف أمل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الأمل غرار وتسويل المحال ضرار . والثانية أن تستيقظ لعمل آخرتك وتغتنم بقية أجلك بخير عملك فان من قصر أمله واستقل أجله حسن عمله . والثالثة أن يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق أمرا توطأ لحلوله فهان عليه عند نزوله . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى ذرّ : نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى ذر رضى الله عنه : عظنى فقال :

آرض بالقوت وخف من الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت . وقال عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه : ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرّين إنا لحمق وائن كنا جاحدين إنا لهلكى . وقال الحسن البصرى رحمة الله عليه : نهارك ضيفك فأحسن اليه فانك ان أحسنت اليه ارتحل بحمدك وان أسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك . وقال الجاحظ فى كتاب البيان وجد مكتوبا فى حجر : يابن آدم لو رأيت يسير ما بقى من أجلك لزهدت فى طويل ماترجو من أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك أسلمك أهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب . ولما حضر بشر ابن منصور الموت فرح فقيل له : أتفرح بالموت فقال : أتجعلون قدومى على خالق أرجوه كمقامى مع مخلوق أخافه . وقيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى مرضه الذى مات فيه : لو أرسلت الى الطبيب؟ فقال : قد رآنى . قالوا : فما قال لك؟ قال : قال انى فعال لما أريد . وقيل للربيع بن خيثم وقد اعتل : ندعو لك بالطبيب قال : قد أردت ذلك فذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت أنه كان فيهم الداء والمداوى فهلكوا جميعا . وسئل أنوشروان : متى يكون عيش الدنيا؟ ألذ قال : اذا كان الذى ينبغى أن يعمله فى حياته معمولا . وقال بعض الحكماء : من ذكر المنيه نسى الأمنيه . وقال بعض الأدباء : عن الموت تُسَلّ وهو كريشة تُسَلّ . وقال بعض البلغاء : الأمل حجاب الأجل . وأنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعلى رضى الله عنه :

فلو كنا اذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حىّ
ولكنا اذا متنا بعثنا ونسأل كلنا عن كل شىّ

(وقال بعض الشعراء)

ألا انما الدنيا مقيل لراكب   قضى وطرا من منزل ثم هجرا
فراح ولايدرى علام قدومه   ألا كل ماقــدّمت يبقى موفرا

وروى سعيد بن مســعود رضى الله عنه أن أبا الدرداء رضى الله عنه قال يارسول الله: أوصنى فقال صلى الله عليه وسلم: «اكسب طيبا واعمل صالحا واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى» وكتب الربيع بن خيثم الى أخ له: قدّم جهازك وافرغ من زادك وكن وصىّ نفسك والسلام. وقال بعض السلف: أصاب الدنيا من حذرها وأصابت الدنيا من أمنها. ومرّ محمد بن واسع رحمة الله عليه بقوم فقيل: هؤلاء زهاد فقال. ما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها ؟

وقال بعض الحكماء: السعيد من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه والشقى من جمع لغيره وبخل على نفسه. وقال بعض البلغاء: لا تبت من غير وصية وان كنت من جسمك فى صحه ومن عمرك فى فسحه فان الدهر خائن وكل ما هو كائن كائن. وقال بعض الشعراء:

من كان يعلم أن الموت مدركه   والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه   يوم القيـامة أو نار ستنضجه
فكل شئ سوى التقوى به سمج   وما أقام عليــه منــه أسمجه
ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنا   لم يدر أن المنـايا سوف تزعجه

وروى جعفر بن محمد عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بعض خطبه: «أيها الناس إن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وإن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وإن المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ماالله صانع فيه وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيــه فليتزوّد العبد من نفســه لنفسه ومن دنيــاه لآخرته ومن الحياة قبــل الموت فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة فوالذى نفس

محمد بيده ما بعـد الموت من مستعتب ولا بعـد الدنيا دار الا الجنة أو النار » . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : أمس أجل واليوم عمل وغدا أمل . فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا :

ليس فيما مضى ولا في الذى لم يأت من لذة لمستحليهـا
إنمـا أنت طول عمرك ما عـمّـرت في الساعة التي أنت فيها
قنع النفس بالـكفاف والا طلبت منك فـوق ما يكفيها

وقيل لزاهد : ما بالك تمشي على العصا ولست بكبير ولا مريض؟ فقال : إني أعلم أني مسافر وأنها دار بلغة وأن العصا من آلة السفر . فأخذه بعض الشعراء فقال :

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها علىّ ولا أني تحنيت من كبر
ولكنني ألزمت نفسي حملهـا لأعلمها أني مقـيم على سـفر

وقال بعض المتصوفة : الدنيا ساعه فاجعلها طاعه . وقال ذو القرنين عليه السلام : رتعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين وأخرجنا منها كارهين . وقال عبد الحميد : المرء أسير عمر يسير . وقيل في بعض المواعظ : عجبا لمن يخـاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعجبا لمن يرجو الثواب كيف لا يعمل . وقال بعض الحكماء : المسيء ميت وان كان في دار الحياة والمحسن حيّ وان كان في دار الأموات . وقال بعض السلف : الله المستعان على ألسنة تصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف . وقال آخر : الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقال آخر : اعملوا لآخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنها تطير . وقال آخر : الموت قصاراك فخذ من دنياك لأخراك . وقال آخر : عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر حتى كأنه قد غفر ولقد أمهل حتى كانه قد أُهمل . وقال آخر : الأيام صحائف أعمالكم فخلدوها أجمل أفعالكم . وقيل في منثور الحكم : اقبل

نصح المشيب وان عجل . وقيل : ما طلعت شمس الا وعظت بأمس . وقال محمد بن بشير رحمه الله :

مضى يومك الادنى شهيدا معدّلا ويومك هـذا بالفعال شهيـد
فان تك بالأمس اقترفت إساءة فثن باحسان وأنت حميـد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد لعـل غدا يأتى وأنت فقيـد

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما رأيت مثل الجنة نام طالبها وما رأيت مثل النار نام هاربها» وقال عيسى ابن مريم عليهما السلام : ألا إن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى آجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الناس طالبان يطلبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها فى نحره فانه ربما أدرك الذى يطلبه منها فهلك بما أصاب منها وطالب يطلب الآخرة فاذا رأيتم طالبا يطلب الآخرة فنافسوه فيها . ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه الشام فقال : يا أهل الشام اسمعوا قول أخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال : ما لى أراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون إن الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا وأملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فأصبح أملهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا

وقال أبو حازم : إن الدنيا غرّت أقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجأهم الموت فخلفوا مالهم لمن لا يحمدهم وصاروا لمن لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغى أن ننظر للذى كرهناه منهم فنجتنبه والذى غبطناهم به فنستعمله . ومرّ بعض الزهاد بباب ملك فقال : باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد . ومرّ بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال : ما هذا قالوا : مسكين سرق منه رجل جبة ومر به آخر فأعطاه جبة فقال :

صدق الله «إن سعيكم لشتى» وقال بعض الحكماء: ما أنصف من نفسه من أيقن بالحشر والحساب وزهد فى الأجر والثواب. وقال آخر: بطول الأمل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب. وقال آخر: إياك والمنى فانها من بضائع النوكى وتثبط عن الآخرة والأولى. وقال آخر: قصر أملك فان العمر قصير وأحسن سيرتك فالبر يسير. وقال عبد الله ابن المعتز رحمه الله:

نسـير الى الآجال فى كل ساعة وأيامنـا تطوى وهنّ مراحل
ولم نر مثـل الموت حقا كأنه اذا ما تخطته الأمانىّ باطـل
وما أقبح التفريط فى زمن الصبا فكيف به والشيب فى الرأس شامل
ترحل عن الدنيـا بزاد من التقى فعمرك أيام تعـدّ قـلائـل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين:

فاعمـل على مهل فانك ميت واكدح لنفسك أيها الانسان
فكأن ماقد كان لم يك إذ مضى وكأن ماهو كائن قد كانا (فيه إقواء)

ونظر سليمان بن عبدالملك يوما فى المرآة فقال: أنا الملك الشاب فقالت له جارية له:

أنت نعم المتاع لوكنت تبقى غير أنـ لا بقاء للانسـان
ليس فيما بدا لنـا منك عيب كان فى الناس غير أنك فانى

وروى عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبان عن أنس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته الجدعاء فقال: «أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا كتب وكأن الحق فيها على غيرنا وجب وكأن الذين نشيع من الأموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوئهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون بعدهم قد نسينا كل واعظه وأمنا كل جائحه طوبى لمن شغله عيبه عن عيب غيره وأنفق من مال كسبه من غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن أذب نفسه

وحسنت خليقته وصلحت سريرته طوبى لمن عمل بعلم وأنفق من فضل وأمسك من قِلّة ووسعته السنة ولم يعدها الى بدعة » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « زوروا القبور تذكروا بها الآخرة وغسلوا الموتى فان معالجة الأجساد الخاوية موعظة بليغة » وحفر الربيع بن خيثم فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قسوة جاء فاضطجع فى القبر فمكث فيه ماشاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد أرجعتك فجدّى فمكث كذلك ماشاء الله . وقال أبو محرز الطفاوى . كفتك القبور مواعظ الأمم السالفة . وقيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات قال : النظر الى محلة الأموات فأخذه أبو العتاهية فقال :

وعظتك أجداث صمت ... ونعتك أزمنـــة خفت
وتكلمت عن أوجـــه ... تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك فى الحيا ... ة وأنت حىّ لم تمـــت
ياشـــامتا بمنـــيتى ... إنّ المنيـــة لم تفت
فـــلربمـــا انقلب الشما ... ت فحلّ بالقوم الشمت

ووجد على قبر مكتوب قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة . وعلى آخر : من أمّل البقاء وقد رأى مصارعنا فهو مغرور . وقيل فى منثور الحكم : ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه . وقال بعض الحكماء : من لم يمت لم يفت . وقال بعض الصلحاء : لنـا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله . وقال بعض العلماء : من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول أحد . وقال بعض البلغاء : ما نقصت ساعة من أمسك الا ببضعة من نفسك فأخذه أبو العتاهية فقال :

إن مع الدهر فاعلمنّ غدا ... فانظر بما ينقضى مجىء غده
ما ارتد طرف امرئ بلذته ... الا وشىء يموت من جسده

ولمـا مات الاسكندر قال بعض الحكماء : كان الملك أمس أنطق

منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

كفى حزنا بدفنك ثم أنى نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال بعض الحكماء : لو كان للخطايا ريح لا فتضح الناس ولم يتجالسوا فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

أحسن الله بنا أن* الخطايا لا تفوح
فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا جميعه مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم . وكتب رجل الى أبى العتاهية رحمه الله :

يا أبا إسحاق إنى واثق منك بودّك
فأعنى بأبى أنت على عيبى برشدك

(فأجابه بقوله)

أطع الله بجهدك راغبا أو دون جهدك
أعط مولاك الذى تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء : من سره بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

إن ذى الابن كلما زاد منه مشرع زاد فى فناء أبيه
ما بقاء الأب الملح عليه بدبيب البلى شباب بنيه

وفى معناه ما حكى عن زرّ بن حبيش أنه قال وقد حضرته الوفاة وكان قد عاش مائة وعشرين سنة :

اذا الرجال ولدت أولادها وارتعشت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

(وكتب رجل الى صالح بن عبد القدوس)

الموت باب وكل الناس داخله   فليت شعرى بعد الباب ما الدار

(فأجابه بقوله)

الدار جنة عدن إن عملت بما   يرضى الاله وان فرطت فالنار

هما محلان ما للنـاس غيرهما   فانظر لنفسك ما ذا أنت مختار

باب أدب الدنيا

اعلم أن الله تعالى لنـافذ قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقـديره فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر أن خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفردا وبالقدرة مختصا حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بغناه أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقرّ بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعـل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه واستعانته صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة فى جوهره ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : «وخلق الانسان ضعيفا» يعنى عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز. ولمـا كان الانســان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزا لأن الحاجة الى الشيء افتقار اليه والمفتقر الى الشيء عاجز عنه . وقال بعض الحكماء المتقدمين : استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به . وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعانه من طغيـان الغنى وبغى القدرة لأن الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى والبغى مستول عليه اذا قدر وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه فقال : «كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى» ثم ليكون أقوى الأمور شاهدا على نقصه وأوضحها دليلا على عجزه . وأنشدنى بعض أهل الأدب لابن الرومى رحمه الله :

أعيرتني بالنقص والنقص شامل؟ ومن ذا الذى يعطى الكمال فيكمل؟
وأشهد أنى ناقص غير أننى إذا قيس بى قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا ففى أيما هذين أنت فتفضل؟
ولو منح الله الكمال ابن آدم لخلده والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله الانسان ماسّ الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسبابا ولدفع عجزه حيلا دله عليها بالعقل وأرشده اليها بالفطنة . قال الله تعالى : «والذى قدّر فهدى» . قال مجاهد قدّر أحوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشرّ. وقال ابن مسعود فى قوله تعالى : «وهديناه النجدين» يعنى الطريقين طريق الخير وطريق الشرّ . ثم لما كان العقل دالا على أسباب ما تدعو اليه الحاجة جعل الله تعالى الادراك والظفر موقوفا على ما قسم وقدّر كيلا يعتمدوا فى الأرزاق على عقولهم وفى العجز على فطنهم لتدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى على من ساء ظنه بخالقه حتى صار سبيلا لضلاله كما قال الشاعر :

سبحان من أنزل الأيام منزلها وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الألباب حائرة وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل فى صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صدّيقا لا زنديقا لأن من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمة استأثر الله بها . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : «حسن الظن بالله من عبادة الله» ثم إن الله تعالى جعل أسباب حاجاته وحيل عجزه فى الدنيا التى جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك أن يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لأنه لا غنى له عن التزوّد منها لآخرته ولا له بدّ من سدّ الخلة فيها عند حاجته . وليس فى هذا القول نقض لما ذكرنا قبل : من ترك

فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة إنما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول إنما ينطلق على ما زاد على قدر الكفاية . وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : «فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» . قال أهل التأويل : فاذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى أخذ البلغة منها . وعلى هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم : «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة» وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال رضى الله عنه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزوّد منها . وحكى مقاتل : أن إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال : يارب حتى متى أتردّد فى طلب الدنيا فقيل له : أمسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا . وقال سفيان الثورى رحمة الله عليه : مكتوب فى التوراة اذا كان فى البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يابن آدم حرّك يدك يسبب لك رزقك . وقال بعض الحكماء : ليس من الرغبة فى الدنيا اكتساب مايصون العرض فيها . وقال بعض الأدباء : ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن . وقال محمود الوراق :

لاتتبع الدنيا وأيامها ذما وإن دارت بك الدائره
من شرف الدنيا ومن فضلها أنّ بها تستدرك الآخره

فاذاً قد لزم بما بيناه النظر فى أمور الدنيا فواجب سبر أحوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم أسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفى عن أهلها شبه الحيرة وتنجلى لهم أسباب

الخيرة فيقصدوا الأمور من أبوابها و يعتمدوا صلاح قواعدها وأسبابها

وٱعلم أن صــلاح الدنيا معتبر من وجهين : أوّلها ما ينتظم به أمور جملتها . والثانى مايصلح بهحال كل واحد من أهلها فهما شيئان لاصلاح لأحدهما الا بصاحبه لأن من صلحت حاله مع فساد الدنيا واختلال أمورها لن يعدم أن يتعدى اليه فسادها و يقدح فيه اختلالها لأنه منها يستمدّ ولها يستعدّ ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا لأن الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليــه لأن نفسه أخص وحاله أمس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على مايمسه موقوفا . وٱعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع أهلها مسعده ولا عن كافة ذويها معرضه لأن إعراضها عن جميعهم عطب و إســعادها لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون فاذا تساوى حينئذ جميعهم لم يجد أحدهم الى الاســتعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز ما وصفنا فيذهبوا ضيعة و يهلكوا عجزا وأما اذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعونة متواصلين بالحاجة لأن ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول . وقد قال الله تعالى : «ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم» . قال الحسن : مختلفين فى الرزق فهذا غنيّ وهذا فقير ولذلك خلقهم يعنى للاختلاف بالغنى والفقر . وقال الله تعــالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » غير أن الدنيا اذا صلحت كان إسعادها موفورا و إعراضها ميسورا لأنهــا اذا منحت هنأت وأودعت واذا استردّت رفقت وأبقت واذا فسدت الدنيا كان إسعادها مكرا و إعراضها غدرا لأنها اذا منحت كدّرت وأتعبت واذا استردّت استأصلت وأجحفت ومع هذا فصلاح الدنيــا مصلح لسائر أهلها لوفور أماناتهم وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لســائر أهلها لقلة

أماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك فى مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا فلا شىء أنفع من صلاحها كما لا شىء أضرّ من فسادها لأن ما تقوى به ديانات الناس وتتوفر أماناتهم فلا شىء أحق به نفعا كما أن ما به تضعف دياناتهم وتذهب أماناتهم فلا شىء أجدر به ضررا . وأنشدت لأبى بكر بن دريد :

الناس مثل زمانهم قدّ الحذاء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك فى تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان جرى الفساد على رجاله

وإذ قد بلغ بنا القول الى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه بوصف ما يصلح به حال الانسان فيها

اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستة أشياء هى قواعدها وان تفرعت وهى : دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دارّ وأمل فسيح

(فأما القاعدة الأولى) وهى الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن إراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس فى خلواتها نصوحا لها فى ملماتها وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين أقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعا فى انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه مذ فطرهم عقلاء من تكليف شرع واعتقاد دين ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء ويستسلمون لأمره فلا تتصرف بهم الأهواء وإنما اختلف العلماء رضى الله عنهم فى العقل والشرع هل جاءا مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تعقبه الشرع . فقالت طائفة : جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه . وقالت طائفة : أخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لأنه بكمال العقل

يســتدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى : «أيحسب الانسان أن يترك سدًى» وذلك لا يوجد منه الاعند كمال عقله فثبت أن الدين من أقوى القواعد فى صــلاح الدنيا وهو الفرد الأوحد فى صــلاح الآخرة. وما كان به صــلاح الدنيا والآخرة فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا . وقال بعض الحكماء: الأدب أدبان أدب شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدّى الفرض وأدب السياسة ما عمر الأرض وكلاهما يرجع الى العدل الذى به سلامة السلطان وعمارة البلدان لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفســـه ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره . وقال سعيد بن حميد :

ماصحـــة أبدًا بنـافعــة حتى يصح الدين والخلق

(وأما القاعدة الثـانية) فهى سلطان قاهر تتألف برهبته الأهواء المختلفة وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الأيدى المتغالبة وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية لأن فى طباع الناس من حب المبالغة على ما آثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوىّ ورادع ملىّ . وقد أفصح المتنبي بذلك حيث يقول :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبــه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـــة فلعـــلة لا يظـلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لاتخلو من أحد أربعة اشياء : إما عقل زاجر أو دين حاجر أو سلطان رادع أو عجز صادّ فاذا تأملتها لم تجد خامسا يقترن بها ورهبة السلطان أبلغها لأن العقل والدين ربمـا كانا مضعوفين أو بداعى الهوى مغلوبين فتكون رهبة السلطان أشدّ زجرا وأقوى ردعا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن السلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل مظلوم» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله ليزع بالسلطان أكثر ممـا يزع بالقرآن» . وروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم انه قال: «إن لله حُرَّاسا فى السماء وحُرَّاسا فى الأرض فحُرَّاسه فى السماء الملائكة وحُرَّاسه فى الأرض الذين يقبضون أرزاقهم ويذبون عن الناس» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «الامام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفى بعض الشر خيار» . وقال عبد الله بن مسعود: السلطان يفسد وما يصلح الله به أكثر فان عدل فله الأجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر . وقال أبو هريرة رضى الله عنه سبت العجم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال: لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالى فعاش فيها عباد الله تعالى . وقال بعض البلغاء: السلطان فى نفسه إمام متبوع وفى سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل احد فى حكم وان عدل لم يجسر أحد على ظلم . وقال بعض الأدباء: إن أقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان الصالح وأولى الحسنات بالأجر والثواب أمره ونهيه فى وجوه المصالح فهذه آثار السلطان فى أحوال الدنيا وما ينتظم به أمورها . ثم لما فى السلطان من حراسة الدين والذب عنه ودفع الأهواء منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد أو بغى فيه بعناد أو سعى فيه بفساد وهذه أمور ان لم تحسم عن الدين بسلطان قوىّ ورعاية وافية أسرع فيه تبديل ذوى الأهواء وتحريف ذوى الآراء فليس دين زال سلطانه الا بدّلت أحكامه وطمست أعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فى وهيه أثر كما أن السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لأيامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب إقامة إمام يكون سلطان الوقت زعيم الأمة ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه . وقد قال عبد الله بن المعتز :

الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى

واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة: وجب بالعقل لأنه معلوم من حال العقلاء على اختلافهم الفزع الى زعيم مندوب للنظر فى مصالحهم. وذهب آخرون الى وجوبه بالشرع لأن المقصود بالامام القيام بأمور شرعية كاقامة الحدود واستيفاء الحقوق وقد كان يجوز الاستغناء عنها بأن لا يرد التعبد بها فبأن يجوز الاستغناء عما لا يراد الا لها أولى. وعلى هذا اختلفوا فى وجوب بعثة الأنبياء فمن قال بوجوب ذلك بالعقل قال بوجوب بعثة الأنبياء ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة الأنبياء لأنه لما كان المقصود ببعثتهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز من المكلفين أن لا تكون هذه الأمور مصلحة لهم لم يجب بعثة الأنبياء اليهم. فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا. فأما فى بلدان شتّى وأمصار متباعدة فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك لأن الامام مندوب للصالح وإذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لما يليه ولأنه لما جاز بعثة نبيين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك الى إبطال النبوة كانت الامامة أولى ولا يؤدّى ذلك الى إبطال الامامة. وذهب الجمهور الى أن إقامة إمامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا لما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا بويع أميران فولوا أحدهما» وروى فاقتلوا الأخير منهما. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا وليتم أبا بكر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل ضعيفا فى بدنه وإذا وليتم عمر تجدوه قويا فى دين الله عز وجل قويا فى بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا» فبين بظاهر هذا الكلام أن إقامة جميعهم فى عصر واحد لا يصح ولو صح لأشار اليه ولنبه عليه. والذى يلزم سلطان الأمة من أمورها سبعة أشياء: أحدها حفظ الدين من تبديل فيه

والحث على العمل به من غير إهمال له . والثانى حراسة البيضة والذب عن الأمة من عدو فى الدين أو باغى نفس أومال . والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها . والرابع تقدير ما يتولاه من الأموال بسنن الدين من غير تحريف فى أخذها وإعطائها . والخامس معاناة المظالم والأحكام بالتسوية بين أهلها واعتماد النصفة فى فصلها . والسادس إقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها . والسابع اختيار خلفائه فى الأمور أن يكونوا من أهل الكفاية فيها والأمانة عليها . فاذا فعل من أفضى اليه سلطان الأمة ما ذكرناه من هذه الأشياء السبعة كان مؤدّيا حق الله تعالى فيهم مستوجبا طاعتهم ومناصحتهم مستحقا صدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان معصية ومقت يتربصون الفرص لاظهارها ويتوقعون الدوائر لاعلانها . وقد قال الله تعالى : «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا» . وفى قوله تعالى : عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم تأويلان : أحدهما أن العذاب الذى هو من فوقهم أمراء السوء والذى من تحت أرجلهم عبيد السوء وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما . والثانى أن العذاب الذى هو من فوقهم الرجم والذى من تحت أرجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفى قوله تعالى : أَو يلبسكم شيعا تأويلان : أحدهما أنه الأهواء المختلفة وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما . والثانى انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ما من أمير على عشيرة الا وهو يجىء يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذى يطلقه أو يوبقه» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشرّ أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم

وتلعنونهم ويلعنونكم» وهذا صحيح لأنه اذا كان ذا خير أحبهم وأحبوه واذا كان ذا شرّ أبغضهم وأبغضوه . وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه إن الله تعالى اذا أحب عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس وآعلم أن ما لك عند الله مثل ما لله عندك فكان هذا موضحا لمعنى ما ذكرنا . وأصل هذا أَن خشية الله تبعث على طاعته فى خلقه وطاعته فى خلقه تبعث على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شَرِّه وقلة مراقبته . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض خلفائه : أوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : إنى أخاف الله فيما تقلدت فقال له : لست أخاف عليك أن تخاف الله وانما أخاف عليك أن لا تخاف الله وهذا واضح لأن الخائف من الله تعالى مأمون الحيف كالذى روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال لأبى مريم السلولى وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب : والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم قال : أفيمنعنى ذلك حقا؟ قال: لا قال: فلا ضير إنما يأسى على الحب النساء. وروى عبد الرحمن بن محمد قال : أصدق طلحة بن عبيد الله أم كلثوم بنت أبى بكر مائة ألف درهم وهو أوّل من أصدق هذا القدر فمرّ بالمال على عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : ماهذا قالوا : صداق أم كلثوم ابنة أبى بكر فقال : أدخلوه بيت المال فأخبر بذلك طلحة وقيل له : كَلّمه فى ذلك فقال : ما أنا بفاعل لئن كان عمر يرى له فيه حقا لا يردّه لكلامى وان كان لا يرى فيه حقا ليردّنه قال : فلما أصبح عمر أمر بالمـال فدفع الى أم كلثوم . وحكى أن الرشيد حبس أبا العتاهية فكتب على حائط الحبس :

أما والله إنـ الظلم لؤم ... وما زال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدّين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم فى المعاد اذا ٱلتقينا غدا عند المليك من الظلوم

فأخبر الرشـــيد بذلك فبكى بكاء شديدا ودعا أبا العتاهية فاستحله ووهب له ألف دينار وأطلقه

(وأما القاعدة الثالثــة) فهى عدل شامل يدعو الى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر به البلاد وتمو به الأموال ويكثر معه النسل ويأمن به السلطان فقد قال الهرمزان لعمر حين رآه وقد نام متبذلا : عدلت فأمنت فنمت . وليس شئ أسرع فى خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور لأنه ليس يقف على حدّ ولا ينتهى الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روى عن النبى صلى الله عليــه وسلم أنه قال : بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأما المنجيات فالعــدل فى الغضب والرضا وخشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر . وأما المهلكات : فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه . وحكى أن الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع بها : لم صارت سنن بلادكم قليلة ؟ قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم : أيما أفضل العدل أم الشجاعة ؟ قالوا : اذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة . وقال بعض الحكماء : بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف . وقال بعض البلغاء : إن العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه فى ميزانه ولا تعارضه فى سلطانه واستعن على العدل بخلتين : قلة الطمع وكثرة الورع . فاذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التى لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب أن يبدأ بعدل الانسان فى نفسه ثم بعدله فى غيره . فأما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبائح ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير فان التجاوز فيها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم

ومن جار عليها فهو على غيره أجور . وقد قال بعض الحكماء: من توانى في نفسه ضاع . وأما عدله مع غيره فقد ينقسم حال الانسان مع غيره على ثلاثة أقسام : فالقسم الأوّل عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان في رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون بأربعة أشياء : باتباع الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق في السيرة فان اتباع الميسور أدوم وحذف المعسور أسلم وترك التسلط أعطف على المحبة وابتغاء الحق أبعث على النصرة. وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر والاختلاف بتدبيره أظهر . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه» . وقال بعض الحكماء: الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم. وقال بعض الأدباء: ليس للجائر جار ولا تعمر له دار. وقال بعض البلغاء : أقرب الأشياء صرعة الظلوم وأنفذ السهام دعوة المظلوم. وقال بعض حكماء الملوك: العجب من ملك استفسد رعيته وهو يعلم أن عزه بطاعتهم. وقال أردشير بن بابك: اذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته . وعوتب أنوشروان على ترك عقاب المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم . والقسم الثاني عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة أشياء باخلاص: الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء. فان إخلاص الطاعة أجمع للشمل وبذل النصرة أدفع للوهن وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور ان لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقاء من كان يقيه كما قال البحتري :

متى أحوجت ذا كرم تخطى   اليك ببعض أخلاق اللئام

وفي استمرار هذا حل نظام جامع وفساد صلاح شامل . وقال أبرويس: أطع من فوقك يطعك من دونك. وقال بعض الحكماء: الظلم

مسلبة النعم والبغى مجلبة النقم. وقال بعض الحكماء: ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بتأدية حقه وحقه شكر النعمة ونصح الأمة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعة. والقسم الثالث عدل الانسان مع أكفائه ويكون بثلاثة اشياء: بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الأذى لأن ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال أعطف وكف الأذى أنصف وهذه أمور ان لم تخلص فى الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الأعداء فقسدوا وأفسدوا. وقد روى عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بشرار الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من نزل[1] وحده ومنع رفده وجلد عبده. ثم قال: أفلا أنبئكم بشرّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من لا يرجى خيره ولا يؤمن شرّه ثم قال: ألا أنبئكم بشرّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: من يبغض الناس ويبغضونه». وروى أن عيسى بن مريم عليهما السلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل فقال: يا بنى إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم. يا بنى إسرائيل الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه وأمر اختلفتم فيه فردّوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لآداب العدل فى الأحوال كلها. وقال بعض الحكماء: كل عقل لا يدارى به الكل فليس بعقل تام. وقال بعض الشعراء:

ما دمت حيا فدار الناس كلهم فانما أنت فى دار المداراة
من يدر دارى ومن لم يدر سوف يرى عما قليل نديما للندامات

وقد يتعلق بهذه الطبقات أمور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط فى حالتى التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل. وقد قالت الحكماء: الفضائل هيئات

(١) قوله من نزل المشهور بالحديث من أكل ولعل هذه رواية أخرى. كتبه مصححه

متوسطة بين حالتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين (فالحكمة) واسطة بين الشرّ والجهالة (والشجاعة) واسطة بين التقحم والجبن (والعفة) واسطة بين الشَّرَه وضعف الشهوة (والسكينة) واسطة بين السخط وضعف الغضب (والغيرة) واسطة بين الحسد وسوء العادة (والظرف) واسطة بين الخلاعة والفدامة (والتواضع) واسطة بين الكبر ودناءة النفس (والسخاء) واسطة بين التبذير والتقتير (والحلم) واسطة بين إفراط الغضب وعدمه (والمودّة) واسطة بين الخلابة وحسن الخلق (والحياء) واسطة بين القحة والحصر (والوقار) واسطة بين الهزء والسخافة. وإذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل كان ما خرج عن الأولى الى ما ليس بأولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل. وقد قال بعض البلغاء: السلطان السوء يخيف البريء ويصطنع الدنيء والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشى السر ويهتك الستر فجعل هذه الأشياء بخروجها عن الأولى الى ما ليس بأولى خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل. ولست تجد فسادا الا وسبب نتيجته الخروج فيه عن حال العدل الى ما ليس بعدل من حالتى الزيادة والنقصان فاذن لا شيء أنفع من العدل كما أنه لا شيء أضرّ مما ليس بعدل

(وأما القاعدة الرابعة) فهى أمْنٌ عامّ تطمئن اليه النفوس وتتيسر فيه الهمم ويسكن فيه البريء ويأنس به الضعيف فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمأنينة. وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرّفهم ويكفهم عن أسباب الموادّ التى بها قوام أودهم وانتظام جملتهم ولئن كان الأمن من نتائج العدل والجور من نتائج ما ليس بعدل فقد يكون الجور تارة بمقاصد الآدميين الخارجة عن العدل وتارة

يكون بأسباب حادثة عن غير مقاصد الآدميين فلا تكون خارجة عن حال العدل فمن أجل ذلك لم يكن ما سبق من حال العدل مقنعا عن أن يكون الأمن فى انتظام الدنيا قاعدة كالعدل فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة ويعم فتنوعه بأن يكون تارة على النفس وتارة على الأهل وتارة على المال وعمومه أن يستوعب جميع الأحوال ولكل واحد من أنواعه حظ من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف أسبابه ويتفاضل بتباين جهاته ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن أجل ذلك لم يجز أن يتصف حال كل واحد من أنواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لاسيما والخائف على الشيء مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن أن لاخوف له الا إياه فيغفل عن قدر النعمة بالأمن فيما سواه فصار كالمريض الذى هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه أعظم مما ابتلى به :

على أنها تعفو الكلوم وإنما يوكل بالأدنى وإن جلّ ما يمضى

(وحكى) أن رجلا قال — وأعرابى حاضر — ما أشدّ وجع الضرس ! فقال الأعرابى : كل داء أشدّ داء كذلك من عمه الأمن كمن استولت عليه العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بأمنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر النعمة بعافيته حتى يصاب . وقال بعض الحكماء : إنما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدّها فأخذ ذلك أبو تمام الطائى فقال :

والحادثات وان أصابك بؤسها فهو الذى أنباك كيف نعيمكا

فالأولى بالعاقل أن يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وأمنه وما انصرف عنه مما هو أشدّ من مرضه وخوفه فيستبدل بالشكوى شكرا و بالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا . حكى أن يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه . أى شيء كان خبرك بعدى ؟

قال : لاتسأل عما فعله بى إخوتى سلنى عما صنعه بى ربى . وقال الشاعر :

لا تنس فى الصحة أيام السقم فان عقبى تارك الحـزم ندم

(وأما القاعدة الخامسة) فهى خصب دارّ تتسع النفوس به فى الأحوال ويشترك فيه ذو الاكثار والاقلال فيقلّ فى الناس الحسد وينتفى عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس فى التوسـع وتكثر المواسـاة والتواصل وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها ولأن الخصب يئـول الى الغنى والغنى يورث الأمانة والسخاء . وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنـه الى أبى موسى الأشعرى : لاتستقضين الا ذا حسب أو مال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب فى مال غيره . وقال بعض السلف : انى وجدت خير الدنيا والآخرة فى التقى والغنى وشرّ الدنيا والآخرة فى الفجور والفقر . وقال بعض الشعراء :

ولم أر بعد الدين خيرا من الغنى ولم أر بعد الكفر شرّا من الفقر

وبحسب الغنى يكون إقلال البخيل وإعطاؤه وإكثار الجواد وسخاؤه كما قال دعبل :

لئن كنت لاتولى ندى دون إمرة فلست بمول نائلا آخر الدهر

وأىّ إناء لم يفض عنـد ملئه وأىّ بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من أسباب الصلاح ما وصفت كان الجدب يحدث من أسـباب الفساد ما ضادّها وكما أن صلاح الخصب عامّ فكذلك فساد الجدب عامّ وما عم به الصـلاح إن وجد عم به الفساد إن فقد فأحرى أن يكون من قواعد الصلاح ودواعى الاسـتقامة . والخصب يكون من وجهين : خصب فى المكاسب وخصب فى الموادّ . فأما خصب المكاسب فقـد يتفرّع من خصب المواد وهو من نتائج الأمن المقترن بها . وأما خصب الموادّ فقد يتفرّع عن أسـباب إلهية وهو من نتائج العدل المقترن بها

(وأما القاعدة السادسة) فهى أمل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل فى دركه بحياة أربابه ولولا أن الثانى يرتفق بما أنشأه الأوّل حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر الى إنشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وأراضى الحرث وفى ذلك من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفاء به فلذلك ما أرفق الله تعالى خلقه من اتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن بعد قرن فيتم الثانى ما أبقاه الأوّل من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثانى من شعثها لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة وأمورها على ممرّ الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدّى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد بأسوأ من ذلك حالا حتى لا ينمى بها نبت ولا يمكن فيها لبث . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الأمل رحمة من الله لأُمتى ولولاه ما غرس غارس شجرا ولا أرضعت أم ولدا» . وقال الشاعر :

وللنفوس وإن كانت على وجل ... من المنية آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها

وأما حال الأمل فى أمر الآخرة فهو من أقوى الأسباب فى الغفلة عنها وقلة الاستعداد لها وقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابيته بما تبين به حال الآمل فى الأمرين فقال :

واكذب النفس اذا حدثتها ... إنّ صدق النفس يزرى بالأمل
غير أن لا تكذبنها فى التقى ... واخزها بالبرّ لله الأجلّ

وفرق ما بين الآمال والأمانىّ أن الآمال ما تقيدت بأسباب والأمانىّ ما تجرّدت عنها

فهذه القواعد الست التى تصلح بها أحوال الدنيا وتنتظم أمور جملتها

فان كملت فيها كمل صلاحها . وبعيد أن يكون أمر الدنيا تاما كاملا وأن يكون صلاحها عاما شاملا لأنها موضوعة على التغير والفناء منشأة على التصرّم والانقضاء . وسمع بعض الحكماء رجلا يقول : قلب الله الدنيا قال : فاذن تستوى لأنها مقلوبة . وقال بعض الشعراء :

ومن عادة الأيام أن خطوبها ... اذا سرّ منها جانب ساء جانب
وما أعرف الأيام الا ذميمة ... ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختلّ من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

(فصل) وأما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة أشياء وهى قواعد أمره ونظام حاله وهى : نفس مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها . وألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها . ومادة كافية تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم أوده بها

(فأما القاعدة الأولى) التى هى نفس مطيعة فلانها اذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بأن لا يملك غيرها أحرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى . وقال بعض الحكماء : لا ينبغى للعاقل أن يطلب طاعة غيره ونفسه ممتنعة عليه وقد قال الشاعر :

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى ... وتزعم أن قلبك قد عصاكا؟

وطاعة نفسه تكون من وجهين : أحدهما نصح والثانى انقياد . فأما النصح فهو أن ينظر الى الأمور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغى غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعى الهوى ولذلك قيل : من تفكر أبصر . فأما الانقياد فهو أن تسرع الى الرشد اذا أمرها وتنتهى عن الغىّ اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات . قال الله تعالى : «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما» . وللنفس آداب هى تمام

طاعتها وكمال مصلحتها وقد أفردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا فى هذا الموضع على ما قد اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب

(وأما القاعدة الثانية) التى هى الألفة الجامعة فلأن الانسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفا مألوفا تخطفته أيدى حاسديه وتحكمت فيه أهواء أعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدّة فاذا كان آلفا مألوفا انتصر بالألفة على أعاديه وامتنع من حاسديه فسلمت نعمته منهم وصفت مدّته عنهم وان كان صفو الزمان غرّة وسلمه خطرا . وقد روى ابن جريج عن عطاء رحمهما الله عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبله جميعا ولا تتفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال» وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة . والعرب تقول : من قل ذل . وقال قيس بن عاصم :

إن القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيد،
عزت فلم تكسر وان هى بدّدت فالوهن والتكسير للمتبدّد

واذا كانت الألفة بما أثبت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر أسبابها . وأسباب الألفة خمسة : وهى الدّين والنسب والمصاهرة والمودّة والبر . فأما الدّين وهو الأوّل من أسباب الألفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر . وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فروى سفيان عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» هذا وان

كان اجتماعهم فى الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراث الجاهلية وإحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب أشدّ تقاطعا وتعاديا وأكثر اختلافا وتماديا حتى إن بنى الأب الواحد كانوا يتفرقون أحزابا فتثور بينهم بالتحزب والافتراق أحقاد الأعداء وإحن البعداء وكانت الأنصار أشدّهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الأوس والخزرج من الاختلاف والتباين أكثر من غيرهم الى أن أسلموا فذهبت إحنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام إخوانا متواصلين وبألفة الدين أعوانا متناصرين. قال الله تعالى: «واذكروا اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» يعنى أعداء فى الجاهلية فألف بين قلوبكم بالاسلام. وقال تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا» يعنى حبا. وعلى حسب التألف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف أهله فان الانسان قد يقطع فى الدين من كان به بارّا وعليه مشفقا هذا أبو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية فى الفضل والأثر المشهور فى الاسلام قتل أباه يوم بدر وأتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم حين بقى على ضلاله وانهمك فى طغيانه فلم تعطفه عليه رحمة ولا كفه عنه شفقة وهو من أبر الأبناء تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله تعالى على طاعة الأب. وفيه أنزل الله «لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم». وقد يختلف أهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل مايحدث بين المختلفين فى الأديان وعلة ذلك أن الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان أقوى أسباب الألفة كان الاختلاف فيه من أقوى أسباب الفرقة واذا تكافأ أهل الأديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن أحد الفريقين

أعلى يدا وأكثر عددا كانت العـداوة بينهم أقوى والإحن فيهم أعظم لأنه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسـد الأكفاء وتنافس النظراء .
وأما النسب وهو الثـانى من أسـباب الألفة فلأن تعاطف الأرحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة أنفة من استعلاء الأباعد على الأقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الأجانب وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الرحم اذا تماست تعاطفت» ولذلك حفظت العرب أنسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها ويكف الأذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بألفة الأنساب تناصرها على القوىّ الأيّد وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط . وقد أعذر نبىّ الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليهم : «لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد» يعنى عشيرة مانعة وروى أبو سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «رحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد» يعنى الله عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما بعث الله تعالى من نبىّ بعده إلا فى ثروة من قومه» . وقال وهب : لقد ردّت الرسل على لوط وقالوا : ان ركنك لشديد . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لايترك المرء مُفَرَّجًا حتى يضمه الى قبيلة يكون اليها . قال الرياشي : المُفْرَج الذى لاينتمى الى قبيلة يكون منها وكل ذلك حث منه صلى الله عليه وسلم على الألفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : «من كثر سواد قوم فهو منهم» . واذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقـد تعرض له عوارض تمنع منها وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذن قد لزم أن نصف حال الأنساب وما يعرض لها من الأسباب . فجملة الأنساب أنها تنقسم ثلاثة أقسام : قسم والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة

وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة . فأما الوالدون فهم الآباء والأمهات والأجداد والجدّات وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم بالطبع والثانى حادث باكتساب . فأما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد» وروى عنه أنه قال : «الولد مبخلة مجهلة مجبنة محزنة» فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الأوصاف ويحدث هذه الأخلاق . وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما . وقيل ليحيى بن زكرياء عليهما السلام : ما بالك تكره الولد؟ فقال : مالى وللولد إن عاش كدّنى وإن مات هدّنى . وقيل لعيسى بن مريم عليهما السلام : ألا تتزوج؟ فقال : انما يحب التكاثر فى دار البقاء . وأما ما كان حادثا بالاكتساب فهى المحبة التى تنمى مع الأوقات وتتغير مع تغير الحالات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «الولد أنوط» يعنى أن حبه ملصق بنياط القلب فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق أو تقصير مع بقاء الحذر والاشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه . فقد قال محمد بن على رضى الله عنه : إن الله تعالى رضى الآباء للأبناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم وإن شر الأبناء من دعاه التقصير الى العقوق وشرّ الآباء من دعاه البرّ إلى الافراط . والأمهات أكثر إشفاقا وأوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية فانهنّ أرق قلوبا وألين نفوسا وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهنّ وان كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر وجمع بينهما فى الوصية فقال تعالى : «ووصينا الانسان بوالديه حسنا» . وقد روى أن رجلا أتى الى النبي صلى الله

عليه وسلم فقال: إن لي أمّا انا مطيتها أقعدها على ظهري ولا أصرف عنها وجهي وأردّ اليها كسبي فهل جزيتها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة قال: ولم؟ قال: لأنها كانت تخدمك وهي تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها. وقال الحسن البصري: حق الوالد أعظم وبر الوالدة ألزم. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أنهاكم عن عقوق الأمهات ووأد البنات ومَنْع وهاتِ» وروى خالد بن معدان عن المقداد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب»

وأما المولودون فهم الأولاد وأولاد الأولاد والعرب تسمى ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين: أحدهما لازم والآخر منتقل. فأما اللازم فهو الأنفة للآباء من تهضم أو خمول والأنفة فى الأبناء فى مقابلة الاشفاق فى الآباء وقد لحظ أبو تمام الطائى هذا المعنى فى شعره فقال:

فأصبحت يلقانى الزمان لأجله باعظام مولود وإشفاق والد

وأما المنتقل فهو الادلال وهو أوّل حال الولد والادلال فى الأبناء فى مقابلة المحبة فى الآباء لأن المحبة بالآباء أخص والادلال بالأبناء أمس وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: قلت يارسول الله مابالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا؟ قال: لأنا ولدناهم ولم يلدونا. ثم الادلال فى الأبناء قد ينتقل مع الكبر الى أحد أمرين إما الى البر والاعظام وإما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا أوكان الأب برا عطوفا صار الادلال برا وإعظاما. وقد روى الزهرى عن عامر بن شراحيل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبدالله: ان حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب فان المكافئ ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها

وان كان الولد غاويا أو كان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا .
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «رحم الله امرأ أعان ولده على برّه» وبشر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بارّ أو عدوّ ضارّ. وقد قيل فى منثور الحكم : العقوق ثكل من لم يثكل. وقال بعض الحكماء : ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك سبعا ثم هو صديق أو عدو

وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الأنفة لأن الأنفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها فى كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث على الأنفة. وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والأجانب وهى معرضة لحسد الأدانى والأقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة المودّة وذلك أوكد أسباب الألفة. وقد قيل لبعض قريش : أيما أحب اليك أخوك أوصديقك قال : أخى اذا كان صديقا . وقال مسلمة ابن عبدالملك العيش فى ثلاث : سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الأهل . وقال بعض الحكماء : البعيد قريب بمودّته والقريب بعيد بعداوته . وإن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد أو منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة بعدا . وقال الكندى فى بعض رسائله : الأب رب والولد كمد والأخ فخ والعم غم والخال وبال والأقارب عقارب . وقال عبدالله بن المعتز :

لحومهم لحمى وهم يأكلونه   وما داهيات المرء الا أقاربه

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام وأثنى على واصلها فقال تعالى : «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم

ويخافون سوء الحساب» قال المفسرون: هى الرحم التى أمر الله بوصلها ويخشون ربهم فى قطعها ويخافون سوء الحساب فى المعاقبة عليها . وروى عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهى الرحم اشتققت اسمها من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته. وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة فى الأهل منسأة فى الأجل» وقال بعض الحكماء: بلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق. وقال بعض البلغاء: صلوا أرحامكم فانها لا تبلى عليها أصولكم ولا تهضم عليها فروعكم. وقال بعض الأدباء: من لم يصلح لأهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك . وقال بعض الفصحاء: من وصل رحمه وصله الله ورحمه ومن أجار جاره أعانه الله وأجاره. وقال محمد بن عبدالله الأزدى:

وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناواة ذى القربى وان قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه ... لترجعه يوما الىّ الرواجع
ولا يستوى فى الحكم عبدان: واصل ... وعبد لأرحام القرابة قاطع

(وأما المصاهرة) وهى الثالث من أسباب الألفة فلأنها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة وإيثار فاجتمع فيها أسباب الألفة ومواد المظاهرة قال الله تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّة ورحمة» يعنى بالمودّة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من أوكد أسباب الألفة. وفيها تأويل آخر قاله الحسن البصرى رحمه الله ان المودّة النكاح والرحمة الولد . وقال تعالى: «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة» اختلف المفسرون فى الحفدة فقال عبدالله بن مسعود هم أختان الرجل على بناته وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما . هم ولد الرجل وولد ولده وروى عنه : أنهم بنو

امراة الرجل من غيره وسموا حفدة لحفدهم فى الخدمة وسرعتهم فى العمل ومنــه قولهم فى القنوت واليك نسـعى ونحفد أى نسرع الى العمل بطاعتك . ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الأعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو مواليـا وقد يصير للصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشـيرتين . حكى عن خالد بن يزيد ابن معاوية أنه قال : كان أبغض خلق الله عز وجل إلىّ آل الزبير حتى تزوّجت منهم رملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الىّ . وفيها يقول :

أحب بنى العوّام طرًّا لأجلها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
فان تسلمى نسلم وان تتنصرى يخطّ رجال بين أعينهم صلبا

ولذلك قيل : المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا . واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الألفة فقد ينبغى لعقدها أحد خمسة أوجه وهى : المـال والجمال والدين والألفة والتعفف . وقد روى سعيد بن أبى سـعيد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك» فان كان عقد النكاح لأجل المـال وكان أقوى الدواعى اليه فالمـال إذن هو المنكوح فان اقترن بذلك أحد الأسباب الباعثة على الائتلاف جاز أن يلبث العقد وتدوم الألفة فان تجرّد عن غيره من الأسـباب وعرى عما سواه من الموادّ فأخلق بالعقد ان ينحل وبالألفة أن تزول ولا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفاء لأن المـال ان وصل اليه فقد ينقضى سبب الألفة به فقد قيل : من ودّك لشىء ولى مع انقضائه وان أعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة عليه أعقب ذلك استهانة الآيس بعد شدّة الأمل فحدثت منه عداوة الخائب بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والألفة عداوة

وقد قيل: من ودّك طمعا فيك أبغضك اذا أيس منك. وقال عبدالحميد: من عظمك لاكثارك استقلك عند إقلالك فان كان العقد رغبة فى الجمال فذلك آدوم للألفة من المال لأن الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة. ولذلك قيل: حسن الصورة أوّل السعادة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أعظم النساء بركة أحسنهن وجها وأقلهن مهرا» فان سلمت الحال من الادلال المفضى الى الملل استدامت الألفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع إما لما يحدث عنه من شدّة الادلال وقد قيل: من بسطه الادلال قبضه الاذلال وإما لما يخاف من محنة الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكى أن رجلا شاور حكيما فى التزوّج فقال له: افعل وإياك والجمال البارع فانه مرعى أنيق فقال الرجل: وكيف ذلك؟ قال: كما قال الأوّل:

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا الا وجدت به آثار منتجع

وإما لما يخافه اللبيب من شدّة الصبوة ويتوقاه الحازم من سوء عواقب الفتنة وقد قال بعض الحكماء: إياك ومخالطة النساء فان لحظ المرأة سهم ولفظها سم. ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امرأة فقال: ياصياد احذر أن تصاد. وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه: امش وراء الأسد ولا تمش وراء المرأة. وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة تقول هذا البيت:

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهى شم الرياحين

فقال رضى الله عنه:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شرّ الشياطين

وان كان العقد رغبة فى الدّين فهو أوثق العقود حالا وأدومها ألفة وأمدّها بدأ وعاقبة لأن طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت له حاله وأمن زلله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم

فاظفر[1] بذات الدين تربت يداك وفيه تأويلان: أحدهما تربت يداك ان لم تظفر بذات الدين. والثانى أنها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها سوء كقولهم: ما أشجعه قاتله الله. وان كان العقد رغبة فى الألفة فهذا يكون على أحد وجهين إما أن يقصـد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة بتنـاصر الفئتين وإما أن يقصـد به تألف أعداء متسلطين استكفاء لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان فى الأماثل وأهل المنازل وداعى الوجه الأول هو الرغبة وداعى الوجه الثانى هو الرهبـة وهما سببان فى غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الألفة وان زال السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الألفة الا أن ينضم اليها أحد الأسباب الباعثة عليها والمقربة لها. وان كان العقد رغبة فى التعفف فهو الوجه الحقيق المبتغى بعقد النكاح وما سوى ذلك فأسباب معلقة عليه ومضافة اليه . وروى عطية بن بشر عن عكاف بن رفاعة الهلالى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ياعكاف: ألك زوجة؟ قال: لا قال: فأنت إذن من إخوان الشياطين: ان كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول منه حثا على التعفف عن الفساد وباعثا على التكاثر بالأولاد. ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم: «اذا أفضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس» يعنى فى طلب الولد. فلزم حينئذ فى عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الأدوم من دواعيه وهى نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف أسبابه وتغاير شروطه. فأما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط: أحدها الدين المفضى الى الستر والعفاف والمؤدى الى القناعة والكفاف. قال أبو هريرة رضى الله عنه لا يفرك[2] مؤمن مؤمنة

(١) الذى تقدم فعليك بذات الخ وكلاهما مروى اهـ مصححه

(٢) بالفاء والراء والكاف أى لا يبغض كما فى النهاية وغيرها ووقع فى النسخ المطبوعة قبل هذا لا يعذل وهو خطأ اهـ مصححه

ان كره منها خلقا رضى منها خلقا . وخطب رجل من عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يتيمة كانت عنده فقال: لا أرضاها لك قال: ولم وفي دارك نشأت؟ قال: انها تتشرف قال: لا أبالي فقال: الآن أرضاك لها. وفي معنى هذا قول بعض العلماء: من رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير. والشرط الثاني العقل الباعث على حسن التقدير والأمر بصواب التدبير. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «العقل حيث كان ألوف ومألوف» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عليكم بالودود الولود ولاتنكحوا الحمقاء فان صحبتها بلاء وولدها ضياع» والشرط الثالث الأكفاء الذين ينتفي بهم العار ويحصل بهم الاستكثار. فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا في الأكفاء» وروى أن أكثم بن صيفي قال لولده: يابنيّ لايحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمة مدرجة للشرف. وقال أبوالأسود الدؤلي لبنيه: قد أحسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا قالوا: وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها . وأنشد الرياشي:

فأول إحساني اليكم تخيرى لماجدة الأعراق باد عفافها

ثم ان السبب الباعث على التزوج لا يخلو من ثلاثة أحوال: (أحدها) أن يكون لطلب الولد فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عليكم بالأبكار فانهن أعذب أفواها وأنتق أرحاما وأرضى باليسير» ومعنى قوله أنتق أرحاما أى أكثر أولادا . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: عليكم بالأبكار فانهنّ أكثر حبا وأقل خنا وهذه الحال هي أولى الأحوال الثلاث لأن النكاح موضوع لها والشرع وارد بها . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سوداء ولود خير من حسناء عاقر» والعرب تقول في أمثالها: من لا يلد لا ولد. وقد كانوا يختارون

لمثل هـذه الحال نكاح البعداء الأجانب و يرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخلقة ويجتنبون نكاح الأهل والأقارب و يرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اغتربوا ولا تُضْوُوا. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: يابنى السائب قد ضَوِيتم فانكحوا فى الغرائب . وقال الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوَى علىّ سليلى

وكانت حكماء المتقدمين يرون أن أنجب الأولاد خلقا وخلقا من كان سن أمه بين العشرين والثلاثين وسن أبيه ما بين الثلاثين والخمسين. والعرب تقول: ان ولد الغبرى لا ينجب وان أنجب النساء الفروك وقالوا : إن الرجل اذا أكره المرأة وهى مذعورة ثم أذكرت أنجبت (والحالة الثانية) أن يكون المقصود به القيام بما يتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليس بألزم حالتى الزوجات لأنه قد يجوز أن يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل: المرأة ريحانة وليست بقهرمانة وليس فى هذا القصد تأثير فى دين ولا قدح فى مروءة والأحمد فى مثل هذا التماس ذوات الأسنان والحنكة ممن قد خبرن تدبير المنازل وعرفن عادات الرجال فانهن أقوم بهذه الحال (والحالة الثالثة) أن يكون المقصود به الاستمتاع وهى أذم الأحوال الثلاث وأوهنها للمروءة لأنه ينقاد فيه لأخلاقه البهيمية ويتابع شهوته الذميمة . وقد قال الحرث بن النضر الأزدى: شرّ النكاح نكاح الغلمة الا أن يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها بالاضعاف لها عند الغلبة أو تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور ولا يلحقه فى ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد أجدر و بالثناء أحق ولو تنزه فى مثل هذه الحال عن استبذال الحرائر الى الاماء كان أكمل لمروءته وأبلغ فى صيانته. وهذه الحال تقف على شهوات النفوس لا يمكن أن يرجح فيها أولى الأمور وهى أخطر

الأحوال بالمنكوحة لأن للشهوات غايات متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة فى الابتـداء كراهية فى الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووأدتهن إشفاقا عليهن وحمية لهن من أن يبتذلهن اللئام بهذه الحال وكان من تحوّب من قتل البنات لرقة ومحبة كان موتهن أحب اليه وآثر عنده . ولما خطب الى عقيل بن علفة ابنته الجرباء قال :

انى وان سيق الىّ المهر * ألف وعبدان وذود عشر * أحب أصهار الىّ القبر

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يراعى شؤونها ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر
فبعـــل يراعيها وخدر يكنها وقبر يواريهـــا وأفضلها القبر

(فصـــل) وأما المواخاة بالمودّة وهى الرابع من أسباب الألفة فلأنها تكسب بصادق الميل إخلاصا ومصافاة وتحدث بخلوص المصافاة وفاء ومحاماه وهذا أعلى مراتب الألفة ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه لتزيد ألفتهم ويقوى تضافرهم وتناصرهم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عليكم باخوان الصدق فانهم زينة فى الرخاء وعصمة فى البلاء» وروى أبو الزبير عن سهل بن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «المرء كثير بأخيه ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له» وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقاء الاخوان جلاء الأحزان . وقال خالد بن صفوان : إن أعجز الناس من قصر فى طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم . وقال علىّ كرم الله وجهه لابنه الحسن يابنىّ الغريب من ليس له حبيب . وقال ابن المعتز : من اتخذ إخوانا كانوا له أعوانا . وقال بعض الأدباء : أفضل الذخائر أخ وفىّ . وقال بعض البلغاء : صديق مساعد عضد وساعد . وقال بعض الشعراء :

هموم رجال فى أمور كـثيرة وهمى من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل: إنما سمى الصديق صديقا لصدقه والعدوّ عدوّا لعدوه عليك. وقال ثعلب: إنمـا سمى الخليل خليلا لأن محبته تخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملأته . وأنشد الرياشي قول بشار:

قد تخللت مسلك الروح منى وبه سمى الخليـل خليلا

والمواخاة فى الناس قد تكون على وجهين: أحدهما أخوّة مكتسبة بالاتفاق الجارى مجرى الاضطرار. والثانية مكتسبة بالقصد والاختيار. فأما المكتسبة بالاتفاق فهى أوكد حالا لأنها تنعقد عن أسباب تعود اليها والمكتسبة بالقصد تعقد لها أسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو ألزم ممـا هو حادث بالقصد ونحن نبدا بالوجه الأوّل المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثـانى المكتسب بالقصد . أما المكتسب بالاتفاق فله أسباب نبتدئ بها ثم ننتقل فى غاية أحواله المحدودة الى سبع مراتب ربمـا استكملتهن وربما وقفت على بعضهن ولكل مرتبة من ذلك حكم خاص وسبب موجب . قال الشاعر:

ما هوى إلا له سبب يبتدى منه وينشعب

فأوّل أسباب الاخاء التجانس فى حال يجتمعان فيها ويأتلفان بهـا فان قوى التجانس قوى الائتلاف به وان ضعف كانـ ضعيفا ما لم تحدث علة أخرى يقوى بها الائتلاف وانما كان كذلك لأن الائتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفاء التشاكل يعدم الائتلاف فثبت أن التجانس وان تنوّع أصـل الاخاء وقاعدة الائتلاف . وقد روى يحي ابن سعيد عن عمر عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأرواح جنود مجندة فمـا تعارف منهـا ائتلف وما تناكر منها اختلف» وهذا واضح وهى بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة . وقيل فى منثور الحكم: الأضداد لا تتفق والأشكال لا تفترق . وقال

بعض الحكماء: يحسن تشاكل الاخوان يلبث التواصل . ولبعضهم :

فلا تحتقر نفسى وأنت خليلها ... فكل امرئ يصبو الى من يشاكل

وقال آخر :

فقلت: أخي قالوا: أخ من قرابة ... فقلت لهم : إن الشكول أقارب

نسيبي في رأيي وعزمى وهمتى ... وإن فرّقتنا فى الأصول المناسب

ثم يحدث بالتجانس المواصلة بين المتجانسين وهى المرتبة الثانية من مراتب الاخاء وسبب المواصلة بينهما ووجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لأن عدم الاتفاق منفر . وقد قال الشاعر :

الناس ان وافقتهم عذبوا ... أولا فان جناهم مـرّ

كم من رياض لا أنيس بها ... تركت لأن طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهى المصافاة وسببها خلوص النية ورتبة خامسة وهى المودّة وسببها الثقة وهذه الرتبة هى أدنى الكمال فى أحوال الاخاء وما قبلها أسباب تعود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهى الصداقة ثم يحدث عن المودّة رتبة سادسة وهى المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضائل النفس حدثت رتبة سابعة وهى الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت رتبة ثامنة وهى العشق وسببه الطمع . وقد قال المأمون رحمه الله تعالى :

أوّل العشق مزاح وولع ... ثم يزداد اذا زاد الطمع

كل من يهوى وان عالت به ... رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة آخر الرتب المعدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدّرة ولا حالة محدودة لأنها قد تؤدّى الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضى الى مخالطة الأرواح وان تفارقت أجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها

ولا الوقوف عند نهايتها . وقد قال الكندى : الصديق إنسان هو أنت الا أنه غيرك . ومثل هذا القول المروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين أقطع طلحة بن عبيدالله أرضا وكتب له بها كتابا وأشهد فيه ناسا منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأتى طلحة بكتابه الى عمر ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى أبى بكر رضى الله عنه وقال : والله ما أدرى أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : بل عمر لكنه أنا . وأما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يدعو اليها وباعث يبعث عليها وقد يكون الداعى اليها من وجهين رغبة وفاقة فأما الرغبة فهى أن يظهر من الانسان فضائل تبعث على إخائه ويتوسم بجميل يدعو الى اصطفائه وهذه الحالة اقوى من التى بعـدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانمـا يخاف عليها من الاغترار بالتصـنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من أهله ولا كل من تخلق بالحسنى كانت من طبعـه والمتكلف للشىء مناف له الا أن يدوم عليه مستحسنا له فى العقل أو متدينا به فى الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لأنه قد تقدم من كلام الحكماء : ليس فى الطبع أن يكون ماليس فى التطبع . ثم نقول من المتعذر أن تكون أخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانمـا الأغلب أن يكون بعض فضائله بالطبع وبعضها بالتطبع الجارى بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به فى العادة أغلب عليه ممـا كان مطبوعا عليـه اذا خالف العادة ولذلك قيل : العادة طبع ثان . وقال ابن الرومى رحمه الله :

وأعلم بأن الناس من طينة يصدق فى الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس أخلاقهم إذن لفاح الحمأ اللازب

وأما الفاقة فهى أن يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته إلى اصطفاء من يأنس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته . وقد قالت الحكماء : من لم يرغب فى ثلاث بلى بست : من لم يرغب فى الاخوان

بلى بالعداوة والخذلان . ومن لم يرغب فى السلامة بلى بالشدائد والامتهان . ومن لم يرغب فى المعروف بلى بالندامة والخسران . ولعمرى إن إخوان الصدق من أنفس الذخائر وأفضل العدد لأنهم سهماء النفوس واولياء النوائب . وقد قالت الحكماء : رب صديق أودّ من شقيق . وقيل لمعاوية : أيما أحب اليك ؟ قال : صديق يحببنى الى الناس . وقال ابن المعتز : القريب بعداوته بعيد والبعيد بمودّته قريب . وقال الشاعر :

لمودّة ممن يحبك مخلصا   خير من الرحم القريب الكاشح

وقال آخر :

يخونك ذو القربى مرارا وربما   وفى لك عند العهد من لاتناسبه

فاذا عزم على اصطفاء الاخوان سبر أحوالهم قبل إخائهم وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدّم من قول الحكماء : اسبر تخبر ولاتبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصايد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجيتا المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ولأجل ذلك قالت الحكماء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه . وقال خالد بن صفوان : انما نفقت عند إخوانى لأنى لم أستعمل معهم النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق . وقال حماد :

كم من أخ لك ليس تنكره   ما دمت فى دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودّته   يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير   دهرٌ عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودّة من   يقلى المقل و يعشق المثرى
وعليك من حالاه واحدة   فى العسر إما كنت واليسر

على أن الانسان موسوم بسيماء من قارب ومنسوب اليه أفاعيل

من صاحب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحب». وقال عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه: الصاحب مناسب. وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: ما من شيء أدل على شيء ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب. وقال بعض الحكماء: اعرف أخاك بأخيه قبلك. وقال بعض الأدباء: يظن بالمرء ما يظن بقرينه. وقال عدىّ بن زيد:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء أهل السوء ويجانب أهل الريب ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره ولهذا قيل: التثبت والارتياء ومداومة الاختبار والابتلاء متعذر بل مفقود. وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال:

ألم تر ان الماء يخبث طعمه وان كان لون الماء أبيض صافيا

ونظر بعض الحكماء الى رجل سوء حسن الوجه فقال: أما البيت فحسن وأما الساكن فردىء فأخذ جحظة هذا المعنى فقال:

رب ما أبين التباين فيه منزل عامر وعقل خراب

وأنشدنى بعض أهل العلم:

لا تركنن الى ذى منظر حسن فرب رائعة قد ساء مخبرها
ما كل أصفر دينار لصفرته صفر العقارب أرداها وأنكرها

ثم قد تقدم من قول الحكماء: من لم يقدّم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الأنس أثمرت مودّته ندما. وقال بعض البلغاء: مصارمةٌ قبل اختبار أفضل من مؤاخاةٍ على اغترار. وقال بعض الأدباء: لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا تقع بالعدوّ قبل القدرة. وقال بعض الشعراء:

لاتحمـدنّ امرأً حتى تجربه ولا تذمّنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبـله خطأ وذمّك المرء بعد الحمد تكذيب

فاذن قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبـل إخائهم وخبرة اخلاقهم قبل اصطفائهم فالخصال المعتبرة فى إخائهم بعد المجانسـة التى هى أصل الاتفاق أربع خصال

(فالخصلة الأولى) عقل موفور يهدى الى مراشد الأمور فان الحمق لا تثبت معه مودّة ولا تدوم لصاحبه استقامة. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «البَذَاء لؤم وصحبة الأحمق شؤم» وقال بعض الحكماء: عداوة العاقل أقل ضررا من مودّة الأحمق لأن الأحمق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع والعاقل لا يتجاوز الحدّ فى مضرته فمضرته لها حدّ يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حدّ والمحدود أقل ضررا ممـا هو غير محدود. وقال المنصور للمسيب بن زهير: ما مادة العقل فقال: مجالسة العقلاء. وقال بعض البلغاء: من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجـادلة ذوى المحال. وقال بعض الأدباء: من أشار عليك باصطناع جاهل أو عاجز لم يخل أن يكون صديقا جاهلا أو عدوّا عاقلا لأنه يشير بمـا يضرك ويحتال فيما يضع منك. وقال بعض الشعراء:

اذا ما كنت متخذا خليـلا فـلا تثقن بكل أخى إخاء
فان خُيرتَ بين الناس فالصَقْ بأهل العقل منهـم والحيـاء
فان العقـل ليس له اذا ما تفاضلت الفضـائل من كِفاء

(والخصلة الثـانية) الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدوّ لنفسه فكيف يرجى منه مودّة غيره. وقال بعض الحكماء: اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والرأى والأدب فانه رِدء لك عند حاجتك ويَدٌ عند نائبتك وأنس عند وحشتك وزين عند عافيتك. وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه:

أخلاء الرخاء هم كثير ولكن فى البلاء هم قليل
فلا يغررك خُلّة من تُؤاخى فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفىّ ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خلّ له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول

وقال آخر

من لم تكن فى الله خُلّته فخليله منه على خطر

(والخصلة الثالثة) أن يكون محمود الأخلاق مرضىّ الفعال مؤثرا للخير آمرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودّة الشرير تكسب العداء وتفسد الأخلاق ولا خير فى مودّة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع صاحبه . وقال عبد الله بن المعتز : إخوان الشرّ كشجر النارنج يحرق بعضه بعضا . وقال بعض الحكماء : مخالطة الأشرار على خطر والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذى من سلم منه ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه . وقال بعض البلغاء : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار . وقال بعض البلغاء : من خير الاختيار صحبة الأخيار ومن شر الاختيار صحبة الأشرار . وقال بعض الشعراء :

مجالسة السفيه سَفَاهُ رأيٍ ومن عقلٍ مجالسة الحكيم
فانك والقرين معا سواء كما قدّ الأديم من الأديم

(والخصلة الرابعة) أن يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة فى مؤاخاته فان ذلك أوكد لحال المؤاخاه وأمد لأسباب المصافاه اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان مُعنًّى خائبا كما قال البحترى :

وطلبت منك مودّة لم أعطها إن المُعَنَّى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الأحنف :

فان كان لايدنيك الا شفاعة   فلا خير فى ودّ يكون بشافع
وأقسم ما تركى عتابك عن قلى   ولكن لعلمى أنه غـير نافع
وإنى اذا لم ألزم الصبر طائعا   فلا بدّ منـه مكرها غير طائع

فاذا استكملت هذه الخصال فى إنسان وجب إخاؤه وتعين اصطفاؤه وبحسب وفورها فيـه يجب أن يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة إحداها عليـه يجعل مستعملا فى الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة وأنحاء متشعبة ولكل واحد منهم حال يختص بها فى المشاركة وثلمة يسدّها فى الموازرة والمظافرة وليس تتفق أحوال جميعهم على حدّ واحد لأن التباين فى الناس غالب واختلافهم فى الشـيم ظاهر . وقال بعض الحكماء : الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف فأخذ هذا المعنى منصور بن إسمعيل فقال :

بنو آدمَ كالنبت   ونبت الأرض ألوان
فمنهـمْ شجر الصـنـد   ل والكافور والبـان
ومنهـم شجر أفضـ   ل ما يحمـل قطران

ومن رام إخوانا تتفق أحوال جميعهم رام متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربمـا وقع به خلل فى نظامه اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاسـتعانة به فى كل حال ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا فى جميع الأعمال وانمـا بالاختلاف يكون الائتـلاف . وقد قال بعض الحكماء : ليس بلبيب من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بدا . وقال المأمون : الاخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء يحتاج اليه أحيانا وطبقة كالداء لا يحتاج اليه أبدا . ولعمرى إن الناس على ما وصفهم ولكن ليس من كان منهم كالداء من الاخوان المعـدودين بل هم من الأعداء المحذورين وانمـا يداجون المودة استكفافا لشرّهم وتحرزا من مكاشفتهم فدخلوا فى عداد

الاخوان بالمظاهرة والمساترة وفى الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة .

قال بعض الحكماء : مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضراء أوراقها القاتل مذاقها . وقد قيل فى منثور الحكم : لا تغترر بمقاربة العدو فانه كالمـاء الذى ان أطيل إسخانه بالنـار لم يمنع من إطفائها . وقال يزيد ابن الحكم الثقفى :

تكـاشرنى ضحـكا كأنك ناصح وعينك تبدى أن صدرك لى دَوِى
لسـانك معسول ونفسك علقم وشرّك مبسوط وخيرك ملتوى
فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

فاذا خرج من كان كالداء من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الآخران من كان منهم كالغـذاء أو كالدواء لأن الغـذاء قوام للنفس وحياتهـا والدواء علاجها وصـلاحها وأفضلهما من كان كالغـذاء لأن الحـاجة اليه أعم . واذا تميز الاخوان وجب أن ينزل كل منهم حيث نزلت به أحواله اليه واستقرّت خصاله وخلاله عليه فمن قويت أسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به يكون الركون اليه والتعويل عليه . وقال الشاعر :

ماأنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوّة الأسـباب
فاليوم حاجتنا اليـك وإنمـا يدعى الطبيب لشدّة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب النـاس فى اتخاذ الاخوان . فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويدا وأوفر تحببا وتودّدا وأكثر تعاونا وتفقدا . وقيل لبعض الحكماء : ما العيش قال : إقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان . وقيل : حلية المرء كثرة إخوانه . ومنهم من يرى أن الاقلال منهم أولى لأنه أخف أثقالا وكلفا وأقل تنـازعا وخلفا . وقال الاسكندر : المستكثر من الاخوان من غير اختيـار كالمسـتوقر من الحجـارة والمقلّ من الاخوان المتخير لهم كالذى يتخير

الجوهر . وقال عمرو بن العاص : من كثر إخوانه كثر غرماؤه . وقال ابراهيم بن العباس : مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار .

ولقد أحسن ابن الرومى فى هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول :

عدوّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب
ودع عنك الكثير فكم كثير يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرىّ فى النطف العذاب

وقال بعض البلغاء : ليكن غرضك فى اتخاذ الاخوان واصطناع النصحاء تكثير العُدّة لاتكثير العدّة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل به المراد خير من ألف تُكثِّر الأعداد

واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوّة وأسباب المودّة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة إخوانه لأنه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل أقل من أضداده من ذوى الحمق والنقص لأن الخيار فى كل جنس هو الأقل فلذلك قل وفور العقل والفضل . وقد قال الله تعالى : «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» فقل بهذا التعليل إخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر إخوان ذوى النقص والجهل لكثرتهم . وقد قال فى ذلك الشاعر :

لكل امرئ شكل من الناس مثله فأكثرهم شكلا أقلهم عقلا
وكل أناس آلفون لشكلهم فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا
لأن كثير العقل لست بواجد له فى طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طائش ان فقدته وجدت له فى كل ناحية عِدْلا

واذا كان الأمر على ماوصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل فى عدد الاخوان أربعة أقسام : منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين *

فأما المعين والمستعين فهو معاوض منصف يؤدى ما عليه ويستوفى ما له فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويستردّ عند الاستغناء وهو مشكور فى معونته ومعذور فى استعانته فهذا أعدل الاخوان ٭ وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فهو لا صديق يرجى ولا عدوّ يخشى . وقد قال المغيرة بن شعبة رضى الله عنه : التارك للاخوان متروك واذ كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروقك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مذموم لقمع شره ولا هو مشكور لمنع خيره وان كان باللوم أجدر . وقد قال الشاعر :

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى له أحد يزرى عليه وينكر

غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شرّه مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي :

إنا لفى زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كَلٌّ ومَهين مستذَلّ قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شرّه يؤمن وحسبك مهانة من رجل مستثقَل عند اقلاله ويُستَقَلّ عند استقلاله فليس لمثله فى الاخاء حظ ولا فى الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الاخوان لا من دوائهم ومن سمّهم لا من غذائهم . وقال بعض الحكماء : شرّ ما فى الكريم أن يمنعك خيره وخير ما فى اللئيم أن يكف عنك شرّه وقال ابن الرومى :

عذرنا النخل فى إبداء شوك يردّ به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى لنا شوكا بلا ثمر نراه ؟

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع وقد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا فى نائبة ولا يقعد عن نهضة فى معونة فهذا أشرف الاخوان نفسا وأكرمهم طبعا فينبغى لمن اوجد

له الزمان مثله (وقلّ أن يكون له مثــل لأنه البر الكريم والدر اليتيم) أن يثني عليه خنصره ويعض عليه بنــاجذه ويكون به أشدّ ضنا منه بنفائس أمواله وسَنِيّ ذخائره لأن نفع الاخوان عام ونفع المــال خاص ومن كان أعم نفعا فهو بالادّخار أحق . وقال الفرزدق :

يمضى أخوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد ذهاب المال مكتسب

وقال آخر

لكل شىء عدمتــه عـــوض وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغى أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه اذا رضى سائر أخلاقه وحمد أكثر شيمه لأن اليســير مغفور والكمال معوز . وقد قال الكندى : كيف تريد من صديقك خلقا واحدا وهو ذو طبائع أربع ؟ مع ان نفس الانسان التى هى أخص النفوس به ومدبرة باختياره و إرادته لا تعطيه قيادها فى كل ما يريد ولا تجيبــه الى طاعته فى كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره . وقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه : معاتبة الأخ خير من فقده ومن لك بأخيك كله ؟ فأخذ الشعراء هذا المعنى فقال أبو العتاهية :

أأخىّ من لك من بنى الــدّنيا بكل أخيك من لك ؟
فاستبق بعضــك لا يملّك كل من لم تُعْطِ كلّك

وقال أبو تمــام الطائى :

ما غبن المغبون مثــل عقله من لك يوما بأخيك كله ؟

وقال بعض الحكماء : طلب الانصاف من قلة الانصاف . وقال بعض البلغاء : لا يزهدنك فى رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب خفىّ تحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوّة وسائله فانك لن تجد ما بقيت مهذبا لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد ان لا تراها بعين الرضا ولا تجرى

فيها على حكم الهوى فان فى اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب ويعطفك على من يذنب وقد قال الشاعر :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدّ معايبه ؟

وقال النابغة الذبيانى :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أىّ الرجال المهذب ؟

وليس ينقض هذا القول ما وصفنا من اختباره واختبار الخصال الأربع فيه لأن ما أعوز فيه معفوّ عنه وهذا لا ينبغى أن توحشك فترة تجدها منه ولا أن تسىء الظن فى كبوة تكون منه ما لم تتحقق تغيره وتتيقن تنكره . وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التى هى أخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها. وقد قيل فى منثور الحكم : لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . وقال جعفر ابن محمد لابنه : يا بنىّ من غضب من إخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءا فاتخذه لنفسك خلا . وقال الحسن بن وهب : من حقوق المودّة أخذ عفو الاخوان والاغضاء عن تقصير ان كان . وقد روى عن على رضى الله عنه فى قوله تعالى : «فاصفح الصفح الجميل» قال : الرضا بغير عتاب . وقال ابن الرومى :

هم الناس والدنيا ولابدّ من قذى يلم بعين أو يكدّر مشربا
ومن قلة الانصاف أنك تبتغى الـ ـمهذب فى الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء :

تواصلنا على الأيام باق ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه على علاته دانى النزوع
معاذ الله أن نُلقَى غضابا سوى دل المطاع على المطيع

وأنشدنى الأزدى :

لا يؤيسنك من صديق نبوة   ينبو الفتى وهو الجواد الخضْرِم
فاذا نبا فاستبقه وتأنَّهُ   حتى تفيء به وطبعك أكرم

وأما الملول وهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر وإخاؤه غرر لأنه لا يبقى على حالَه ولا يخلو عن استحالَه . وقد قال ابن الرومى :

اذا أنت عاتبت الملول فانما   تخط على صحف من الماء أحرفا
وهبه ارعوى بعد العتاب ألم تكن   مودّته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون ملله استراحة ثم يعود الى المعهود من إخائه فهذا أسلم المللين وأقرب الرجلين يسامح فى وقت استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويثوب الى الاخاء وان تقدم المثل بما نظمه الشاعر حيث قال :

وقالوا : يعود الماء فى النهر بعد ما   عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت : الى أن يرجع الماء عائدا   ويعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون . وقال الشاعر :

اذا ماحال عهد أخيك يوما   وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه   فان أخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا   فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا ولا يراجع إخاء ولا ودّا ولا يتذكر حفاظا ولا عهدا كما قال أشجع بن عمرو السلمى :

إنى رأيت لها مواصلة   كالسم تفرغه على الشهد
فاذا أخذت بعهد ذمتها   لعب الصدود بذلك العهد

وهذا أذم الرجلين حالا لأن مودّته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات وليس الا استدراك الحال معه بالاقلاع قبل المخالطة وحسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الأحنف :

تداركت نفسى فعزيتها وبغضتها فيك آمالها
وماطابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حاله إلا كما قد قال إبراهيم بن هرمة :

فانك وآطراحك وصل سلمى لأخرى فى مودّتها نكوب
كثاقبة لحَلْىٍ مستعار لأُذْنيها فَشَانَهُمَا الثقوب
فأدّت حلى جارتها اليها وقد بقيت بأذنيها ندوب

واذا صفت له أخلاق من سبره وتمهدت لديه أحوال من خبره وأقدم على اصطفائه أخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته . وقال عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق . وقال بعض الحكماء : من جاد لك بمودّته فقد جعلك عديل نفسه فأوّل حقوقه اعتقاد مودّته ثم إيناسه بالانبساط اليه فى غير محرّم ثم نصحه فى السر والعلانية ثم تخفيف الأثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة أو ينا له من نكبة فان مراقبته فى الظاهر نفاق وتركه فى الشدّة لؤم . وقد قيل : يارسول الله أىّ الأصحاب خير ؟ قال : « الذى اذا ذكرت أعانك وواساك وخير منه من اذا نسيت ذكرك » . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : خير إخوانك من واساك وخير منه من كافاك . وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : اللهم انى أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودّتى الا بموافقة شهوتى وممن ساعدنى على سرور ساعتى ولا يفكر فى حوادث غدى . وقال بعض البلغاء : عقود الغادر محلوله وعهوده مدخوله . وقال بعض البلغاء : ما ودّك من أهمل ودّك ولا أحبك من أبغض حبك . وقال بعض الشعراء :

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدّوس : شر الاخوان من كانت مودّته مع الزمان اذا أقبل فاذا أدبر الزمان أدبر عنك فأخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

شر الأخــلاء من كانت مودّته مع الزمان اذا ما خاف أو رغبا
اذا وترت آمرءا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
إن العدو وان أبدى مسالمــة اذا رأى منك يوما فرصــة وثبا

وينبغى أن يتوقى الافراط فى محبته فان الافراط داع الى التقصـير ولأن تكون الحال بينهما ناميه أولى من أن تكون متناهيه . وقد روى ابن ســيرين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحبب حبيبك هوناً مّا عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا وأبغض بغيضــك هوناً مّا عسى أن يكون حبيبك يوما مّا » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفـا . وقال ابو الأسود الدؤلى :

وكن معدنا للخير واصفح عن الأذى فانك راء ما عمــلت وســامع
وأحبب اذا أحببت حبا مقاربا فانك لا تدرى متى أنت نازع
وابغض اذا أبغضت غير مباين فانك لا تدرى متى أنت راجع

وقال عدى بن زيد :

لا تأمنن من مبغض قرب داره ولا من محب أن يملّ فيبعـدا

وانمـا يلزم من حق الاخاء بذل المجهود فى النصح والتناهى فى رعاية ما بينهما من الحق فليس فى ذلك إفراط وان تنـاهى ولا مجاوزة حدّ وان أكثر أوفى فتستوى حالتاهما فى المغيب والمشهد ولا يكون مغيبهما أفضل من مشهدهما وأولى فانّ فضل المشهد على المغيب لؤم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواؤهما حفاظ . وقال بعض الشعراء :

علىّ لاخوانى رقيب من الصفا تبيد الليـالى وهو ليس يبيد
يذكرنيهم فى مغيبى ومشهدى فسيانـ منهم غائب وشهيد
وإنى لأستحيى أخى أن أبرّه قريبـا وأن أجفوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط فى زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان

تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه : ياأبا هريرة «زر غبا تزدد حبا» وقال لبيد :

توقف عن زيارة كل يوم ... اذا أكثرت ملّك من تزور

وقال آخر

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل ... هجرانه فيلجّ في هجرانه
إنّ الصديق يلج في غشيانه ... لصديقه فيملّ من غشيانه
حتى يراه بعد طول سروره ... بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه ... رجل تنقص واستخف بشانه

وبحسب ذلك فليكن في عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل على قلة الاكتراث بأمر الصديق وقد قيل : علة المعاداة قلة المبالاة بل تتوسط حالتا تركه وعتابه فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد . وقد قال بعض الحكماء : لا تكثرن معاتبة إخوانك فيهون عليهم سخطك . وقال منصور النمري :

أقلل عتاب من استربت بودّه ... ليست تنال مودّة بعتاب

وقال بشار بن برد :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
وان أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه ؟
فعش واحدا أوصل أخاك فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخوان أن تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لأن من رام بريئا من الهفوات سليما من الزلات رام أمرا معوزا واقترح وصفا معجزا . وقد قالت الحكماء : أيّ عالم لا يهفو وأيّ صارم لا ينبو وأيّ جواد لا يكبو ؟ وقالوا : من حاول صديقا يأمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضالّ الطريق

الذى لا يزداد لنفسه إتعابا إلا ازداد من غايته بعدا . وقيل لخالد ابن صفوان أى إخوانك أحب اليك؟ قال : من غفر زللى وقطع عللى وبلغنى أملى . وقال بعض الشعراء :

ما كدت أفحص عن أخى ثقة إلا ندمت عواقب الفحص

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه :

أحب من الاخوان كل مواتى وكل غضيض الطرف عن عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده ويحفظنى حيا وبعد وفاتى
فمن لى بهذا ليت أنى أصبته فقاسمته مالى من الحسنات ؟
تصفحت إخوانى وكان أقلهم على كثرة الاخوان أهل ثقاتى

وأنشد ثعلب

إذا أنت لم تستقلل الأمر لم تجد بكفيك فى إدباره متعلقا
إذا أنت لم تترك أخاك وزلة اذا زلها أوشكتما أن تفرقا

وحكى الأصمعى عن بعض الأعراب أنه قال: تناس مساوى الاخوان يدم لك ودهم . ووصى بعض الأدباء أخا له فقال : كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل واصلا وإن لم تجد مواصلا . وقال رجل من إياد ليزيد بن المهلب :

اذا لم تجاوز عن أخ عند زلة فلست غدا عن عثرتى متجاوزا
وكيف يرجيك البعيد لنفعه اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا ؟
ظلمت أخا كلفته فوق وسعه وهل كانت الأخلاق الا غرائزا ؟

وقال أبو مسعود كاتب الرضى : كنا فى مجلس الرضى فشكا رجل من أخيه فأنشد الرضى :

أُعذر أخاك على ذنوبه واستر وغض على عيوبه
واصبر على بهت السفيه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم الى حسيبه

واعلم بأن الحلم عند الغيظ أحسن من ركو به

وحكى عن بنت عبدالله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبدالرحمن بن عوف الزهرىّ وكان أجود قريش فى زمانه : ما رأيت قوما ألأم من إخوانك قال : مه ولم ذلك؟ قالت : أراهم اذا أيسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال : هذا والله من كرمهم يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ويتركوننا فى حال الضعف منا عنهم . فانظر كيف تأول بكرمه هذا التأويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفاء وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوى الفضل أن يتأوّلوا الهفوات من إخوانهم . وقد قال بعض الشعراء :

إذا مابدت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا
أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيرا ولا قائل هجرا

والداعى الى هذا التأويل شيئان : التغافل الحادث عن الفطنة والتألف الصادر عن الوفاء . وقال بعض الحكماء : وجدت أكثر أمور الدنيا لاتجوز إلا بالتغافل . وقال أكثم بن صيفى : من شدّد نفّر ومن تراخى تألف والشرف فى التغافل . وقال شبيب بن شيبة : الأريب العاقل هو الفطن المتغافل وقال الطائى :

ليس الغبيّ بسيد فى قومه لكنّ سيد قومه المتغابى

وقال أبو العتاهية

إن فى صحة الاخاء من النا س وفى خلة الوفاء لقله
فالبس الناس مااستطعت على النقـ ـص والا لم تستقم لك خله
عش وحيدا ان كنت لا تقبل العذ ر وان كنت لا تجاوز زله
من أب واحد وأم خلقنا غير أنا فى المال أولاد عله

ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يثنيهم عن البغضاء

ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البرّ ويختلف بسبب اختلاف الأحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط السودد فانه ما أحد يعدم عدوّا ولا يفقد حاسدا وبحسب قدر النعمة تكثر الأعداء والحسدة كما قال البحتري :

ولن تستبين الدهر موضع نعمة   اذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فان أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسدة توالى عليه من مكر حليمهم وبادرة سفيههم ما تصير به النعمة غراما والزعامة ملاما .

وروى ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رأس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودّد الى الناس» . وقال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه : لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق فالألف قليل ولا تستقلّ أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال :

تكثر من الاخوان ما استطعت إنهم   بطون اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيرا ألف خل وصاحب   وإن عدوّا واحدا لكثير

وقيل لعبد الملك بن مروان : ما أفدت في ملكك هذا ؟ قال : مودّة الرجال . وقال بعض الحكماء : من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض البلغاء : من استصلح عدوّه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده . وقال بعض الأدباء : العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمره من عداوته ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهره من محبته وهو قادر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه . وأنشد عبد الله بن الزبير ثلاثة أبيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للأفوه واسمه صلاءة بن عمرو حيث يقول :

بلوت الناس قرنا بعد قرن   فلم أر غير ختال وقالي
وذقت مرارة الأشياء جمعا   فما طعم أمرّ من السؤال

ولم أر في الخطوب أشدّ هولا وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

الق العـــدوّ بوجه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشـات
فأحزم النـاس من يلقى أعاديه في جسم حقد وثوب من مودّات
الرفق يمن وخير القول أصـــدقه وكثرة المزح مفتاح العـــداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله تعالى عنه :

لمـا عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيّي عدوّى عند رؤيتــه لأدفع الشرّ عـــني بالتحيات
وأظهر البشر للانسان أبغضــه كأنمـا قد حشا قـــلبي محبات
الناس داء دواء النـاس قربهم وفي اعتزالهـم قطع المـــودّات

وليس وان كان بتألف الأعداء مأمورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي ان يكون لهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صارت طبعا لا يستحيل وجبلة لا تزول وانما يستكفى بالتألف اظهارها ويستدفع به أضرارها كالنار يستدفع بالمـاء إحراقها ويستفاد به إنضاجها وان كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير . وقال الشاعر :

وإذا عجزت عن العدوّ فداره وامزح له إن المزاح وفاق
فالنار بالمـاء الذي هو ضدّها تعطي النضاج وطبعها الاحراق

(فصـــل) وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فلأنه يوصل الى القلوب ألطافا ويثنيها محبـة وانعطافا ولذلك ندب الله تعـالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال: « وتعاونوا على البرّ والتقوى » لأن في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته . وروى الأعمش عن خيثمة عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : «جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من أساء اليها» وحكى أن الله تعالى أوحى الى داود على نبينا وعليه السلام : ذكر عبادى إحسانى اليهم ليحبونى فانهم لا يحبون الا من أحسن اليهم . وأنشدنى أبو الحسن الهاشمى :

النـاس كلهم عيا ل الله تحت ظلاله
فأحبهـم طرّا اليـه أبرّهـم لعياله

والبر نوعان : صلة ومعروف . فأما الصلة فهى التبرع ببذل المـال فى الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها و إباؤها قال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وروى محمد بن ابراهيم التيمى عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السخىّ قريب من الله عزوجل قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النـار والبخيل بعيد من الله عز وجل بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار » وقال صلى الله عليه وسلم لعدىّ بن حاتم : «رفع الله عن أبيك العذاب الشديد لسخائه » وبلغه صلى الله عليه وسلم عن الزبير إمساك فجذب عمامته اليه وقال : يازبير أنا رسول الله اليك والى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا توك فأوك عليك . وروى أبو الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وملكان يناديان اللهم أعط منفقا خلفا وممسكا تلفا» وأنزل فى ذلك القرآن «فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» . قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى من أعطى فيما أمر واتقى فيما حظر وصدّق بالحسنى يعنى بالخلف من عطائه فعند هـذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لسادات الناس : فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء . وقيل فى منثور الحكم : الجود عن موجود .

وقيل فى المثل: سودد بلا جود كملك بلا جنود. وقال بعض الحكماء: الجود حارس الاعراض . وقال بعض الأدباء : من جاد ساد ومن أضعف ازداد . وقال بعض الفصحاء: جود الرجل يحببه إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده. وقال بعض الفصحاء: خير الأموال ما استرق حرا وخير الأعمال ما استحق شكرا . وقال صالح بن عبد القدوس :

ويظهر عيب المرء فى الناس بخله ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فاننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه

وحدّ السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب إلى الكرم ينكر حدّ السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف يفضى إلى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف موضع ولا للتبذير موقع وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهى عنهما. واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حدّه سمى كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا . وقد قال الله تعالى: «ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هوخيرا لهم بل هو شرّلهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل». وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء» وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول : الشحيح أعذر من الظالم فقال : لعن الله الشحيح ولعن الظالم .

وقال بعض الحكماء: البخل جلباب المسكنة. وقال بعض الأدباء: البخيل ليس له خليل . وقال بعض البلغاء : البخيل حارس نعمته وخازن ورثته . وقال بعض الشعراء :

اذا كنت جماعا للمال ممسكا   فأنت عليـه خازن وأمين
تؤدّيه مذموما إلى غير حامد   فيأكله عفوا وأنت دفـين

وتظاهر بعض ذوى النباهة بحب الثناء مع إمساك فيه فقال بعض الشعراء:

أراك تؤمل حسن الثنـاء   ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسـود أخو بطنة   يمنّ كثيرا ويعطى قليلا ؟

وقد بينا حب الثناء وحب المال لأن الثناء يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا كان حب الثناء كاذبا. وقد قال بعض الشعراء :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما   تيـه الملوك وأخلاق المماليك
أردت شـكرا بلا بر ولا صـلة   لقد سلكت طريقا غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة   وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به   فما سبقت الى شىء سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذما وهى : الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق . فأما الحرص فهو شدّة الكدح والاسراف فى الطلب . وأما الشره فهو اسـتقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهـذا فرق ما بين الحرص والشره . وقد روى العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم ابن مسروق قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يجزيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه » . وقال بعض الحكماء : الشره من غرائز اللؤم . وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فان كان بالخالق كان شكا يئُول إلى ضلال وان كان بالمخلوق كان استخانة يصير بهـا مختانا وخوّانا لأن ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد فيها خيرا ظنه فى غيره وان رأى فيها سوءا اعتقده فى الناس. وقد قيل فى المثل : كل إناء ينضح بما فيه . فان قيل قد تقدم

من قول الحكماء إن الحزم سوء الظن قيل تأويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السوء فيهم

وأما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولاتجيب الى انصاف. واذا آل البخيل الى ما وصفنا من هـذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجوّ ولا صلاح مأمول . وأما السرف والتبذير فان من زاد على حدّ السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير. وقد قال الله تعالى : «ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين» . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما عال من اقتصد » . وقد قال المأمون رحمه الله: لا خير فى السرف ولا سرف فى الخـير . وقال بعض الحكماء : صديق الرجل قصده وسرفه عدوّه . وقال بعض البلغاء : لا كثير مع إسراف ولا قليل مع احتراف * واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لأن المسرف يخطئ فى الزيادة والمبذر يخطئ فى الجهل ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بمـاله واخطأها فهو كمن جهلهـا بفعاله فتعدّاها وكما أنه بتبذيره قد يضع الشيء فى غير موضعه فهكذا قد يعدل به عن موضعه لأن المال أقل من أن يوضع فى كل موضع من حق وغير حق . وقد قال معاوية رضى الله عنه : كل سرف فبازائه حق مضيع . وقال بعض الحكماء : الخطأ فى إعطاء ما لا ينبغى ومنع ما ينبغى واحد . وقال سفيان الثورى رضى الله عنه : الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما فى يده حتى تسخو نفسه عمـا بيد غيره فلا يميل الى طلب ولا يكف عن بذل . وقد حكى أن الله تعالى أوحى الى ابراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام : أتدرى لِم اتخذتك خليلا؟ قال : لا يارب قال : لأنى رأيتك تحب أن تعطى ولا تحب أن تأخذ . وروى سهل بن سـعد

الساعدى رضى الله عنه قال : أتى رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : مرنى بعمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس فقال : ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس. وقال أيوب السختيانى : لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم. وقيل لسفيان : ما الزهد فى الدنيا؟ قال : الزهد فى الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بنىّ استقل الكثير مما تعطى واستكثر القليل مما تأخذ فان قرّة عيون الكرام فى الاعطاء وسرور اللئام فى الأخذ ولا تعدّ الشحيح أمينا ولا الكذاب حرّا فانه لا عفة مع الشح ولا مروءة مع الكذب. وقال بعض الحكماء : السخاء سخاآن أشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك . وقال بعض البلغاء : السخاء أن تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا. وقال بعض الصلحاء : الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود . وقال بعض الشعراء :

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة   وان كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين : أحدهما ما ابتدأ به الانسان من غير سؤال. والثانى ما كان عن طلب وسؤال . فأما المبتدأ به فهو أطبعهما سخاء وأشرفهما عطاء . وسئل على كرم الله وجهه عن السخاء فقال : ما كان منه ابتداء فأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم . وقال بعض الحكماء : اجل النوال ما وصل قبل السؤال . وقال بعض الشعراء :

وفتى خلا من ماله   ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله   فكفاك مكروه السؤال

وهذا النوع من البذل قد يكون لتسعة أسباب :

فالسبب الأول — أن يرى خلة يقدر على سدّها وفاقة يتمكن من إزالتها فلا يدعه الكرم والتدين إلا أن يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة فى الأجر إن تدين وفى الشكر إن تكرم . وقال أبو العتاهية :

ما الناس الا آلة معتمله للخـير والشر جميعا فعله

والسبب الثانى — أن يرى فى حاله فضلا عن حاجته وفى يده زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصـة بها فيضعها حيث تكون له ذخرا معدّا وغنما مستجدّا . وقد قال الحسن البصرى رحمه الله : ما أنصفك من كلفك إجلاله ومنعك ماله . وقيل لهند بنت الحسن : من أعظم الناس فى عينك ؟ قالت من كان لى اليه حاجة . وقال الشاعر :

وما ضاع مال ورّث الحمد أهله ولكنّ أموال البخيـل تضيع

والسبب الثالث — أن يكون لتعريض يتنبه عليه لفطنته وإشـارة يسـتدل عليها بكرمه فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف . وقد حكى أن رجلا ساير بعض الولاة فقال : ما أهزل برذونك؟ فقال : يده مع أيدينا فوصـله اكتفاء بهذا التعريض الذى بلغ ما لا يبلغه صريح السؤال . ولذلك قال أكثم بن صيفى : السخاء حسن الفطنة واللؤم سوء التغافل . وحكى أن عبيد الله بن سليمان لمـا تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا وأسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له : نعماك فيهـم أتمها ودع أمرنا إن المهم مقـدّم

فقال عبيد الله : ما أحسن ما شكا أمره بين أضعاف مدحه ثم قضى حاجته . وقال بعض الشعراء :

ومن لا يرى من نفسه مذكرا لها رأى طلب المسـتنجدين ثقيـلا

والسبب الرابع — أن يكون ذلك رعاية ليد أو جزاء على صنيعة فيرى تأدية الحق عليه طوعا إما أنفة وإما شكرا ليكون من أسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان وعبوديته عتيقا . قال بعض الحكماء : الاحسان رق والمكافأة عتق . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى :

وليست أيادى الناس عندى غنيمة ورب يد عندى أشـدّ من الأسر

والسبب الخامس — أن يؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرآسة هو لها محب وعلى طلبها مكب . وقد قال الشاعر :

حب الرآسة داء لا دواء له وقلما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه إجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبة والاسعاف . وقد قال بعض الأدباء : بالاحسان يرتبط الانسان . وقال بعض البلغاء : من بذل ماله أدرك آماله . وقال بعض الشعراء :

أترجو أن تسود بلا عناء وكيف يسود ذو الدعة البخيل ؟

والسبب السادس — أن يدفع به سطوة أعدائه ويستكف به نفار خصمائه ليصيروا له بعد الخصومة أعوانا وبعد العداوة إخوانا إما لصيانة عرض وإما لحراسة مجد . وقد قال أبو تمام الطائى :

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد فى كف امرئ والدراهم
ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم فى الأقوام وهى مغانم

وقال بعض الأدباء : من عظمت مرافقه أعظمه مرافقه :

والسبب السابع — أن يرب به سالف صنيعة أولاها ويراعى به قديم نعمة أسداها كيلا ينسى ما أولاه أو يضاع ما أسداه فان مقطوع البر ضائع ومهمل الاحسان ضال . وقد قال الشاعر :

وسمت امرأ بالبر ثم أطرحته ومن أفضل الأشياء رب الصنائع

وقال محمد بن داود الأصبهانى :

بدات بنعمى أوجبت لى حرمة عليك فعد بالفضل فالعود أحمد

والسبب الثامن — المحبة يؤثربها المحبوب على ماله فلا يضنّ عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التى هى عنده أحظى والى نفسه أشهى لأن النفس الى محبوبها أشوق والى ممايلته أسبق . وقدقال الشاعر :

فما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وهذا وان دخل فى أقسام العطاء نخارج عن حدّ السخاء وهكذا الخامس

والسادس من هذه الأسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت أقسام العطاء.

والسبب التاسع — ليس بسبب أن يفعل ذلك لغير سبب وانما هي منه سجية قد فطر عليها وشيمة قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال الشاعر :

ليس يعطيك للرجاء ولا للـــخوف لكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخاء فيحمد أوخارجا عنه فيذم؟ وقال قوم : هذا هوالسخيّ طبعا والجواد كرما وهو أحق من كان به ممدوحا واليه منسوبا . وقال أبو تمام :

من غيرماسبب يدنى كفى سببا للحرّ أن يجتدى حرّا بلا سبب

وقال الحسن بن سهل : اذا لم أعط الا مستحقا فكأنى أعطيت غريما وقال : الشرف فى السرف فقيل له : لا خير فى السرف فقال : ولا سرف فى الخير . وقال الفضل بن سهل : العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه . وقال بشار :

وما الناس الا صاحباك فمنهم سخيّ ومغلول اليدين من البخل
فسامح يدا ما أمكنتك فانها تقل وتثرى والعواذل فى شغل

وقال آخرون : هذا خارج من السخاء المحمود الى السرف والتبذير المذموم لأن العطاء اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لأن المال يقل عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا أعطى غير المستحق فقد يمنع مستحقا وما يناله من الذم بمنع المستحق أكثر مما يناله من الحمد لاعطاء غير المستحق وحسبك ذما بمن كانت أفعاله تصدر عن غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال الله تعالى : «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل على استواء الأمرين ذما وعلى اتفاقهما لوما . وقال الشاعر :

وكان المال يأتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

قالوا: ولأن العطاء والمنع اذا كانا لغير علة أفضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر المعطى أما الممنوع فلأنه قد فضل عليه من سواه وأما المعطى فانه وجد ذلك اتفاقا وربما أمل بالاتفاق أضعافا فصار ذلك مفضيا الى اجتلاب الذم وإحباط الشكر وليس فيما أفضى الى واحد منهما خير يرجى وهو جدير أن يكون شرّا يبقى ولمثل هذا كان منع الجميع إرضاء للجميع وعطاء يكون المنع أرضى منه خسران مبين. فأما اذا كان البذل والعطاء عن سؤال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين أحدهما فى السائل والثانى فى المسئُول. فأما ما كان معتبرا فى السائل فثلاثة شروط: الشرط الأوّل أن يكون السؤال لسبب والطلب لموجب فان كان لضرورة ارتفع عنه الحرج وسقط عنه اللوم. وقد قال بعض الحكماء: الضرورة توقح الصورة. وقال بعض الشعراء:

ألا قبح الله الضرورة إنها تكلف أعلى الخلق أدنى الخلائق
ولله درّ الإتساع فانه يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت:

اذا لم يكن الا الأسنة مركب فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو أولى الأمرين أن يكون وان جاز أن لا يكون فالنفس المسامحة تغلب الحاجة وتسمح فى الطلب وتراعى ما استقام به الحال وان ناله ذل ولحقه وهن فيتأوّل صاحبها قول البحترى:

وربما كان مكروه الأمور إلى محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعى النزاهة وتحتمل من الضر

ما احتملت ومن الشدّة ما أطاقت فيبقى تحملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر :

وقد يكتسى المرء خز الثياب ومن دونها حالة مضنيه
كما يكتسى خدّه حمرة وعلته ورم فى الريه

فلا يرى أن يتدنس بمطالب الشؤم ومطالع اللؤم فان البهائم الوحشية تأبى ذلك وتأنف منه قال الشاعر :

وليس الليث من جوع بغاد على جيف تطيف بها الكلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذى هو أكرم الحيوان جنسا وأشرفه نفسا هل يحسن به أن يرى لوحوش البهائم عليه فضلا . وقد قال الشاعر :

على كل حال يأكل المرء زاده على البؤس والضراء والحدثان

وقد قيل لبعض الزهاد : لو سألت جارك أعطاك ؟ فقال : والله ما أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها . ووصف بعض الشعراء قوما فقال :

اذا افتقروا أغضوا على الضرحسبة وان أيسروا عادوا سراعا الى الفقر

فأما من يسأل من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح اللؤم ومحض الدناءة وقلما تجد مثله ملحوظا أو مموّلا محفوظا لأن الحرمان قاده الى أضيق الأرزاق واللؤم ساقه الى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء إلا أراقه ولا ذل الا ذاقه كما قال عبد الصمد بن المعذل لأبى تمام الطائى :

أنت بين اثنتين تبرز للنا س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لنوال
أىّ ماء لحرّ وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

ولو استقبح العار وأنف من الذل لوجد غير السؤال مكسبا يمونه ولقدر على ما يصونه وقد قال الشاعر :

لا تطلبن معيشة بتذلل فليأتينك رزقك المقدور
واعلم بأنك آخذ كل الذى لك فى الكتاب مقدر مسطور

والشرط الثانى — من شروط السؤال أن يضيق الزمان عن إرجائه ويقصر الوقت عن إبطائه فلا يجد لنفسه فى التأخير فسحة ولا فى التمادى مهلة فيصير من المعذورين وداخلا فى عداد المضطرين. فأما اذا كان الوقت متسعا والزمان ممتدا فتعجيل السؤال لؤم وقنوط. وقال الشاعر:

أبى لى إغضاء الجفون على القذى يقينى أن لا عسر الا مفرّج
ألا ربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنة مخرج

والشرط الثالث — اختيار المسئول أن يكون مرجوّ الاجابة مأمول النجح إما لحرمة السائل أو كرم المسئول فان سأل لئيما لا يرعى حرمة ولا يولى مكرمة فهو فى اختياره ملوم وفى سؤاله محروم. وقد قال بعض البلغاء: المخذول من كانت له الى اللئام حاجة. وقد قال بعض البلغاء: أذل من اللئيم سائله وأقل من البخيل نائله. وقال بعض الشعراء:

من كان يأمل أن يرى من ساقط نيلا سنيا
فلقد رجا أن يجتنى من عوسج رطبا جنيا

وأما الشروط المعتبرة فى المسئول فثلاثة:

الشرط الأول — أن يكتفى بالتعريض ولا يلجئ الى السؤال الصريح ليصون السائل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف. وقد قال الشاعر:

أقول وستر الدجى مسبل كما قال حين شكا الضفدع
كلامى ان قلته ضائع وفى الصمت حتفى فما أصنع

وربما فهم المسئول الاشارة فألجأ الى التصريح بالعبارة تهجينا للسائل ليخجل فيمسك ويستحي فيكف فيكون كما قال أبو تمام:

من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بوّاب له بوّاب

والشرط الثانى — أن يلق بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورا ان أعطى ومعذورا ان منع. وقد قال بعض

الحكماء: الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره .
وقال ابن لنكك: ان أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء فى حاجة فلم يقضها له وظهر له منه ضجر فقال :

لاتدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك أن ترى مسئولا
لاتجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك أن ترى مأمولا
تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث — تصديق الأمل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال سائله فانهما لا يخلوان من أربع أحوال: (فالحال الأولى) أن يكون السائل مستوجبا والمسئول متمكنا فالاجابة ههنا تستحق كرما وتستلزم مروءة وليس للرد سبيل إلا لمن استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان :

انى رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذوكرت المكارم مرة فى مجلس أنتم به فتقنعوا

فنعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله أن يكون مستودعا فى صنيع مشكور و بر مذخور . وقد قيل لبخيل : لم حبست مالك ؟ قال : للنوائب فقيل له : قد نزلت بك . وقال بعض الشعراء :

مالك من مالك الا الذى قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول أعمالى ولو فتشوا رأيت أعمالك أعمى لكا

وقد أسقط حق نفسه ورفع أسباب شكره فصار بأن لاحق له مذموما كمشكور ومأثوما كمأجور . وقال أبو العتاهية :

نحن البخيل على صالحه اذ لم يثقل بره ظهرى
مافاتنى خير امرئ وضعت عنى يداه مئونة الشكر

فاذا لم يكن للرد فى مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان التأخير مضرا

عجل بذله وقطع مطله وكانت إجابته فعلا وقوله عملا . وقد قالت الحكماء : من مروءة المطلوب منه أن لايلجئ الى إلحاح عليه . وقال محمد بن حازم :

ومنتظر سؤالك بالعطايا وأشرف من عطاياه السؤال

اذا لم يأتك المعروف طوعا فدعه فالتنزه عنه مال

وان كان فى الوقت مهلة وفى التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه فذهب بعضهم الى أن الأولى تعجيل الوعد قولا ثم يعقبه الانجاز فعلا ليكون السائل مسرورا بتعجيل الوعد ثم بآجل الانجاز ويكون المسئول موصوفا بالكرم ملحوظا بالوفاء . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «العدة عطية» . وقال الفضل بن سهل لرجل سأله حاجة : أعدك اليوم وأحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الأمل وأتزين بثوب الوفاء . ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة سأله إياها فقيل له : تعد وأنت قادر؟ فقال : ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبه نجحه لم يجد سرورها لأن الوعد طعم والانجاز طعام وليس من فاجأه الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه . وقال بعض البلغاء : اذا أحسنت القول فأحسن الفعل ليجتمع لك ثمرة اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل مالا تفعل فانك لاتخلو فى ذلك من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه . ومنهم من ذهب الى أن تعجيل البذل فعلا من غير وعد أولى وتقديمه من غير ترقب ولا انتظار أحرى وانما يقدم الوعد أحد رجلين إما معوز ينتظر جدة وإما شحيح يروض نفسه توطئة وليس للوعد فى غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا رأى يتضح مع مايغيره الليل والنهار وتتقلب به الحال من يسار وإعسار . وقال بعض الشعراء :

يأيها الملك المقدم أمره شرقا وغربا

أمنن بختم صحيفتى مادام هذا الطين رطبا

واعلم بأن جفافــه مـما يعيد السهل صعبا

قالوا : ولأن فى الرجوع عنه من الانكسار وفى توقع الوعد من مرارة الانتظار وفى العود اليه من بذلة الاقتضاء وذلة الاجتداء ما يكدر برّه ويوهن شكره . وقال الشاعر :

ان الحوائج ربمـا أزرى بها عند الذى تقضى له تطويلها
فاذا ضمنت لصاحب لك حاجة فاعلم بأن تمـامها تعجيلها

(والحال الثانيــة) أن يكون السائل غير مستوجب والمسئُول غير متمكن ففى الرّد فسحة وفى المنع عذر غير أنه يلين عند الرد لينا يقيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقلّ يعرف ولا معذور ينصف . وقد قال أبو العتاهية يصف الناس :

يارب إن النـاس لاينصفوننى فكيف وإن أنصفتهم ظلمونى
فان كان لى شىء تصدّوا لأخذه وان جئت أبغى شيئهم منعونى
وإن نالهم بذلى فلا شكر عندهم وان أنا لم أبذل لهـم شتمونى
وان طرقتنى نكبة فكهوا بها وان صحبتنى نعمــة حسدونى
سأمنع قلبى أن يحنّ اليهـم وأغمض عنهم ناظرى وجفونى
وأقطع أيامى بيـوم سهولة أقضى بهـا عمرى ويوم حزون
ألا إن أصفى العيش ماطاب غبه وما نلتــه فى لذة وسكون

(والحال الثالثة) أن يكون السائل مستوجبا والمسئُول غير متمكن فيأتى بالحمل على النفس ما أمكن من يسير يسدّ به خلة أو يدفع به مذمة أو يوضح من أعذار المعوزين وتوجع المتألمين ما يجعله فى المنع معـذورا وبالتوجع مشكورا . وقد قال أبو نصر العتبى رحمه الله تعالى :

الله يعـلم أنى لست ذا بخـل ولست ملتمسا فى البخل لى عللا
لكن طاقة مثلى غير خافية والنمل يعذر فى القدر الذى حملا

وربما تحسر بحدوث العجز بعد تقدّم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار أضنى جسدا وأزيد كمدا كما قال الشاعر :

وكنت كباز السوء قص جناحه   يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو تخفق حوله   فيذكر إذ ريش الجناحين وافر

(والحال الرابعة) أن يكون السائل غير مستوجب والمسئول متمكنا وعلى البذل قادرا فينظر فان خاف بالردّ قدح عرض أوقبح هجاء ممض كان البذل اليه مندوبا صيانة لا جودا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما وقى به المرء عرضه فهو له صدقة» وان أمن من ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة والأمل بالإياس ولما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع المفضى الى الشح . وأنشد الأصمعى عن الكسائى :

كأنك فى الكتاب وجدت لاء   محرّمة عليك فلا تحلّ
فما تدرى اذا أعطيت مالا   أيكثر من سماحك أم يقلّ؟
اذا حضر الشتاء فأنت شمس   وان حضر المصيف فأنت ظلّ

ومن الناس من اعتبر الأسباب وغلب حال السائل وندب الى المنع اذا كان العطاء فى غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت . وقد قال بعض الشعراء :

لا تجد بالعطاء فى غير حق   ليس فى منع غير ذى الحق بخل
إنما الجود أن تجود على من   هو للجود والندى منك أهل

فأما من أجاب السؤال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاؤه بالوعد مقرونا فلاعتبار بحق السائل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه فى الردّ فيستوجب مع ذم المنع لؤم البخل ومقت القادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل لمطله بعد الوعد لما فى المطل

من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر. والعرب تقول فى أمثالها: المطل أحد المنعين واليأس أحد النجحين . وقال بشار بن برد :

أظلت علينا منك يوما غمامة أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

ثم اذا أنجز وعده وأوفى عهده لم يتبع نفسه ما أعطى ويُسَرّ أن كانت يده العليا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اليد العليا خير من اليد السفلى» . وقال الشاعر :

فانك لاتدرى اذا جاء سـائل أأنت بمـا تعطيـه أم هو أسعد ؟
عسى سائل ذو حاجة إن منعته من اليوم سـؤلا أن يكون له غد

وليكن من سروره اذا كانت الأرزاق مقدّرة أن تكون على يده جارية ومن جهته واصلة لاتنتقل عنه بمنع ولا تحوّل عنه باياس . وحكى أن رجلا شكا كثرة عياله الى بعض الزهاد فقال: انظر من كان منهم ليس رزقه على الله عز وجل فحوّله الى منزلى . وقال ابن سيرين لرجل كان يأتيه على دابة ففقد الدابة: ما فعل برذونك ؟ قال: اشتدّت علىّ مؤنته فبعته قال: أفتراه خلف رزقه عندك . وقال ابن الرومى رحمه الله :

ان لله غير مرعاك مرعى نرتعيــه وغير مائك ماء
انــ لله بالبرية لطفــا سبق الأمهات والآباء

ثم ليكن غالب عطائه لله تعـالى وأكثر قصــده ابتغاء ما عند الله عز وجل كالذى حكاه أبو بكرة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أعرابيا أتاه فقال :

ياعمر الخير جزيت الجنه أكس بنيـاتى وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنه أقسم بالله لتفعلنــه

فقال عمر رضى الله عنه : فان لم افعل يكون ما ذا ؟ فقال :

* إذن أبا حفص لأذهبنه *

فقال : فاذا ذهبت يكون ما ذا ؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنه　　يوم تكون الأعطيات هَنَّه
وموقف المسئُول بينهنه　　إما إلى نار وإما جنـــه

فبكى عمر رضى الله عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال : يا غلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لالشـــعره أما والله لا أملك غيره . واذا كان العطاء على هــذا الوجه خلا من طلب جزاء وشكر وعرى عن امتنان ونشر فكان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للقابل . وأما المعطى اذا التمس بعطائه الجزاء وطلب به الشكر والثناء فهو خارج بعطائه عن حكم السخاء لأنه ان طلب به الشكر والثناء كان صاحب سمعة ورياء وفى هذين من الذم والسمعة ما ينافى السخاء وان طلب به الجزاء كان تاجرا متربحا لايستحق حمدا ولا مدحا. وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعالى : «ولا تمنن تستكثر» أنه الذى يعطى عطية يلتمس بها أفضل منها . وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول فى تأويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال أبو العتاهية :

وليســـت يد أوليتها بغنيمـــة　　اذا كنت ترجو أن تعدّ لها شكرا
غنى المرء مايكفيه من سدّحاجة　　فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم أن الكريم يجتــدى بالكرامة واللطف واللئيم يجتدى بالمهانة والعنف فلا يجود الا خوفا ولا يجيب الاعنفا كما قد قال الشاعر :

رأيتك مثل الجوز يمنع لبه　　صحيحا ويعطى خيره حين يكسر

فاحذر أن تكون المهانة طريقا الى اجتدائك والخوف سـبيلا الى إعطائك فيجرى عليه سـفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبة لا لؤما ورهبة كيلا يكون مع الوصمة كما قال العباس بن الأحنف :

صرت كأنى ذبالة نصـبت　　تضىء للنـاس وهى تحترق

وأما النوع الثـانى من البرّ فهو المعروف ويتنوع أيضا نوعين قولا

وعملا: فأما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودّد بجميل القول. وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه ان أسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا وبرّا محمودا. وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى تأويل قوله تعـالى: «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا». أنها الكلام الطيب. وكان سعيد بن جبير يتأوّل أنها الصلوات الخمس. وروى سعيد عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق». وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد عنده قول الأعرابى هذا:

وحى ذوى الأضغان تسب قلوبهم تحيتك الحسنى فقـد ترقع النعل
فان دحسوا بالمكر فاعف تـكرما وان حبسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذى يؤذيك منه سمـاعه وان الذى قالوا وراءك لم يقْـلُ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا» وقيل للعتابى: انك تلق العامة ببشر وتقريب قال: دفع صنيعة بأيسر مؤنة واكتساب إخوان بأيسر مبذول. وقيل فى منثور الحكم: من قل حياؤه قل أحباؤه. وقال بعض الشعراء:

أبنيّ ان البشر شىء هين وجه طليق وكلام لين

وقال بعضهم:

المرء لا يعرف مقداره ما لم تبن للناس افعاله
وكل من يمنعنى بشره فقلمـا ينفعـنى ماله

وأما العمل فهو بذل الجاه والمساعدة بالنفس والمعونة فى النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وإيثار الصلاح لهم وليس فى هذه الأمور سرف ولا لغايتها حدّ بخلاف النوع الأوّل لأنها وان كثرت فهى أفعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها فى اكتساب الأجر وجميل الذكر ونفع

على المعان بها فى التخفيف عنه والمساعدة له . وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «كل معروف صدقة» . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «صنائع المعروف تقى مصارع السوء» وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : «المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله» وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر . وقال الحطيئة :

(١) من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وأنشد الرياشى :

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها كفور أم شكور
ففى شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور

فينبغى لمن يقدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم أنه من فرص زمانه وغنائم إمكانه ولا يهمله ثقة بقدرته عليه فكم واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندما ومعوّل على مكنة زالت فأورثت خجلا . وقد قال الشاعر :

ما زلت أسمع : كم من واثق خجل ... حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدرى متى يغلق عليه» وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح» . وقيل لأنوشروان : ما أعظم المصائب عندكم؟ فقال : أن تقدر على المعروف ولا تصطنعه حتى يفوت وقال عبدالحميد . من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها . وقال بعض الشعراء :

(١) قوله جوازيه هو الصواب وفى الأصل المطبوع جوائزه وهو تحريف كتبه مصححه

اذا هبت رياحك فاغتنمها ... فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها ... فما تدرى السكون متى يكون
وإن درّت نياقك فاحتلبها ... فما تدرى الفصيل لمن يكون

وروى أن بعض وزراء بنى العباس مطل راغبا اليه فى عمل يستكفيه إياه فكتب اليه بعد طول المطل به :

أما يدعوك طول الصبر منى ... على استئناف منفعتى وشغلى
وعلمك أن ذا السلطان غاد ... على خطرين من موت وعزل
وأنك ان تركت قضاء حقى ... الى وقت التفرّغ والتخلى
ستصبح نادما أسفا معزى ... على فوت الصنيعة عند مثلى

وكتب بعض ذوى الحرمات الى وال قد قصر فى رعاية حرمته يقول :

أعلى الصراط تريد رعية حرمتى ... أم فى الحساب تمن بالانعام؟
للنفع فى الدنيا أردتك فانتبه ... لحوائجى من رقدة النوّام

وكتب أبو على البصير الى بعض الوزراء وقد اعتذر اليه بكثرة الأشغال يقول :

لنا كل يوم نوبة قد تنوبها ... وليس لنا رزق ولا عندنا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما ... تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

واعلم أن للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن إذاعة يستطيل لها واخفاؤه عن إشاعة يستدل بها . قال بعض الحكماء : اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا صنع اليك فانشره ولقد قال دعبل الخزاعى :

اذا انتقموا أعلنوا أمرهم ... وان أنعموا أنعموا باكتتام
يقوم القعود اذا أقبلوا ... وتقعد هيبتهم بالقيام

على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من إظهار ما خفى وإعلان ما كتم . وقال سهل بن هارون :

خلّ اذا جئته يوما لتسأله أعطاك ماملكت كفاه واعتذرا
يخفى صنائعه والله يظهرها ان الجميـل اذا أخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن أن يراه مستكبرا وتقليله عن أن يكون مستكثرا لئلا يصير به مدلا بطرا ومستطيلا أشرا . وقال العباس ابن عبـد المطلب رضى الله عنه : لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وســتره فاذا عجلته هنأته واذا صغرته عظمته واذا سترته أتممته . وقال بعض الشعراء :

زاد معروفك عندى عظما أنه عنـدك مستور حقير
وتنـاسيت كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفـعله لـا فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إياكم والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الأجر ثم تلا . «لا تبطلوا صـدقاتكم بالمن والأذى» . وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل : فعلت اليك وفعلت . فقال ابن سيرين اسكت فلا خير فى المعروف اذا أحصى . وقال بعض الحكماء : المن مفسدة الصنيعة . وقال بعض الأدباء : كدر معروفا امتنان وضيع حسبا امتهان . وقد قال بعض البلغاء : من منّ بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره . وقال بعض الفصحاء : قُوّة المِنَن من ضعف المُنَن . وقال بعض الشعراء :

أفسدت بالمنّ ما أسديت من حسن ليس الكريم اذا أسدى بمنان

وقال أبو نواس :

فامض لا تمنن علىّ يدا مَنُّك المعروفَ مِن كدره

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه :

لا تحمـلن لمـن يمن من الأنام عليك مِنّه *

واختر لنفســـك حظها   واصبر فان الصبر جُنّـــه
منن الرجال على القـــلو   ب أشدّ من وقع الأسنه

ومن شروط المعروف أن لا يحتقر منه شيئا وان كان قليلا نزرا اذا كان الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره فمنع منه أعجزه كثيره فامتنع عنه وفعل قليل الخير أفضــل من تركه . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لا يمنعكم من المعروف صغيره » . وقال عبد الله بن جعفر: لا تستحى من القليل فان البخل أقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك أكثر منه . وقد قال الشاعر :

اعمل الخير مااستطعت وان كا   ن قليـــلا فلن تحيط بكله
ومتى تفعــل الكثير من الخيـ   ـر اذا كنت تاركا لأقـله ؟

على أن من المعروف مالا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستظل به الأدنى ويرتفق به التابع . وقد قال الشاعر :

ظِلُّ الفتى ينفع مَن دونَه   وماله فى ظــله حظ

واعلم أنك لن تسطيع أن توسع جميع الناس معروفك ولا أن توليهم إحسانك فاعتمد بذلك أهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوى الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تنفع الصنيعة الا عند ذى حسب ودين» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى اهل الحفاظ » وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

ان الصنيعة لا تكون صنيعة   حتى يصاب بها طريق المصــنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها   لله أو لذوى القـــرابة أودع

وقيــل فى منثور الحكم : لا خير فى معروف الى غير عروف . وقد ضرب الشاعر به مثلا فقال :

كحمار السوء ان أشبعته   رمح الناس وان جاع نهق

وقد قال بعض الحكماء : على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس فأخذه بعض الشعراء فقال :

لعمرك ما المعروف فى غير أهله وفى أهله الا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم وفى كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعة طابت وأضعف نبتها ومزرعة أكدت على كل زارع

وأما من أسدى اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار بأسر المعروف موثوقا وفى ملك الاحسان مرقوقا ولزمه ان كان من أهل المكافأة أن يكافئ عليه وان لم يكن من أهلها أن يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من أودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره وان كتمه فقد كفره» وروى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارفع ضعيفك لا يَحُرْبِكَ ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أويثنى عليك وان من اثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ردى علىّ قول اليهودى قاتله الله لقد أتانى جبرائيل برسالة من ربى تعالى «أيما رجل صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء الا الدعاء والثناء فقد كافأه» . وقيل فى منثور الحكم : الشكر قيد النعم . وقال عبد الحميد : من لم يشكر الانعام فاعدده من الأنعام وقيل فى منثور الحكم : قيمة كل نعمة شكرها . وقال بعض الحكماء : كفر النعم من أمارات البطر وأسباب الغير . وقال بعض الفصحاء : الكريم شكور أو مشكور واللئيم كفور أو مكفور وقال بعض البلغاء : لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقاء لها مع الكفر . وقال بعض الأدباء :

شكر الاله بطول الثناء وشكر الولاة بصدق الولاء

وشكر النظير بحسن الجزاء وشكر الدنيّ بحسن العطاء

وقال بعض الشعراء

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لعــزة ملك أو علوّ مكان
لمـا أمر الله العباد بشــكره فقال: اشكروا لى أيها الثقلان

فان من شكر معروف من أحسن اليه ونشر إفضــال من أنعم عليه فقد ادى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك إتماما لشكره ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا . حكى أن الحجاج أتى اليه بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فأمر بقتلهم الا ذلك الصــديق فانه عفا عنه وأطلقه ووصــله فرجع الرجل الى قطرىّ بن الفجاءة وكان من أصحابه فقال له : عد الى قتال الحجاج عدوّ الله فقال : هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وأنشأ يقول :

أأقاتل الحجــاج عن ســلطانه بيــد تقــرّ بأنها مولاته ؟
انى اذا لأخو الدناءة والذى شهــدت بأقبح فعــله غدراته
ماذا أقــول اذا وقفت إزاءه فى الصف واحتجت له فعلاته
أأقول : جار علىّ لا إنى اذًا لأحق من جارت عليــه ولاته
وتحــدّث الأقوام أن صنائعا غرست لدىّ فحنظلت نخلاته

وقيل فى منثور الحكم : المعروف رق والمكافأة عتق . ومن أشكر الناس الذى يقول :

لأَشكرنْ لَكَ معروفا هممتَ به إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك ان لم يُمضِــه قَدَر فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذى يتعجل المعروف ويتقدّم البر قد يكون على وجوه فيكون تارة من حسن الثقة بالمشكور فى وصول بره وإسداء عرفه ولا رأى لمن يحسن به ظن شاكر أن يخلف حسن ظنه فيــه فيكون كما قال العتابى :

قد أورقت فيك آمالى بوعدك لى وليس فى ورق الآمال لى ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجى وحسن مكافأة الآمل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا أن يفوّت نفسه غنما ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان . وقد يكون تارة ارتهانا للمأمول وحثا للمسئول وبحسب ما أسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس . وقال بعض الأدباء من حكماء المتقدمين : من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما . وقال ابن الرومى :

وما الحقد الا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض

فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض

اذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع من البذر فيها فهى ناهيك من أرض

وأما من ستر معروف المنعم ولم يشكره على ما أولاه من نعمه فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة وإن من أذم الخلائق وأسوإ الطرائق ما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . وقال بعض الأدباء : من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعمة . وقال بعض الفصحاء : من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد . وقال بعض البلغاء : من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة . وأنشدنى بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه :

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغتالها

لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التى قالها

لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها

والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر أبقى لها

وهذا آخر ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة

(فأما القاعدة الثالثة) فهى المادة الكافية لأن حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر. قال الله تعالى: «وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين» فاذا عدم المادة التى هى قوام نفسه لم تدم له حياة ولم يستقم له دين واذا تعذر شىء منها عليه لحقه من الوهن فى نفسه والاختلال فى دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لأن الشىء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله. ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة اليها اعوزت بغير طلب وعدمت لغير سبب وأسباب المودة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا فى جهة واحدة فلا يكتفون ثم هداهم اليها بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتى لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا بتقدير موادّهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة منه سبحانه وتعالى أطلع بها على عواقب الأمور وقد أنبأ الله تعالى فى كتابه العزيز إخبارا وإذكارا فقال سبحانه وتعالى: «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» اختلف المفسرون فى تأويل ذلك فقال قتادة: اعطى كل شىء ما يصلحه ثم هداه وقال مجاهد: أعطى كل شىء صورته ثم هداه لمعيشته. وقال تعالى: «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» يعنى معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون. وقال تعالى: «وقدّر فيها اقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين» قال عكرمة: قدّر فى كل بلدة منها ما لم يجعله فى الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد. وقال الحسن البصرى وعبد الرحمن بن زيد: قدّر ارزاق أهلها سواء للسائلين الزيادة فى أرزاقهم. ثم ان الله تعالى جعل لهم مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معايشهم دينا يكون عليهم حكما وشرعا يكون لهم قيما ليصلوا الى موادهم بتقديره ويطلبوا أسباب

مكاسبهم بتدبيره حتى لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا وتستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال الله تعالى: « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض» . قال المفسرون فى هذا الموضع : هو الله جل جلاله فلأجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة . ثم انه جلت قدرته جعل سدّ حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين بمادة وكسب :
فأما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهى شيئان نبت نام وحيوان متناسل . وقال الله تعالى : «وأنه هو أغنى وأقنى» قال أبوصالح: أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية وهى أصول الأموال .
وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة الى المادة والتصرّف المؤدى الى الحاجة وذلك من وجهين : أحدهما تقلب فى تجارة والثانى تصرّف فى صناعة وهذان هما فرع لوجهى المادة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه : نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة . وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال : سمعته يقول : معايش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة وإمارة فمن خرج عنها كان كلا عليها . وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز

أما الأوّل من أسبابها وهى الزراعة فهى مادة أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفى فرعا ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال: «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء» وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» وقال صلى الله عليه وسلم : «نعمت لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس فى أرض خوّارة» . وقال صلى الله عليه وسلم فى النخل:

«هى الراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل» وقال بعض السلف: خير المال عين خرارة فى أرض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون عقبا اذا مت. وروى هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التمسوا الرزق فى خبايا الأرض» يعنى الزرع. وحكى عن المعتضد أنه قال: رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام يناولنى المسحاة وقال: خذها فانها مفاتيح خزائن الأرض. وقال كسرى للموبذ: ما قيمة تاجى هذا فأطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة الا أن تكون مطرة فى نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. ولقى عبدالله بن عبد الملك ابن شهاب الزهرى فقال له ادللنى على مال أعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول:

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوما أن تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة اذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

وقد اختلف الناس فى تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جداه ومن فضل الشجر فلثبوت أصله وتوالى ثمره

وأما الثانى من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار ولم تضمهم أمصار افتقروا الى الأموال المتنقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لأنه يستقل فى النقلة بنفسه ويستغنى عن العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام أيسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتيات رسله الهاما من الله لخلقه فى تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده فى قسم المنافع بينهم. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة» ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: مهرة مأمورة أى كثيرة

النسل ومنه ما تأوّل الحسن وقتادة قوله تعالى : «أمرنا مترفيها» أى كثرنا عددهم وأما السكة المأبورة فهى النخلة المؤبرة الحمل . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : فى الغنم «سمنها معاش وصوفها رياش» وروى عن أبى ظبيان أنه قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما مالك يا أبا ظبيان قال : قلت عطائى ألفان قال : اتخذ من هذا الحرث والسائبات قبل أن تليك غلمة من قريش لا تعدّ العطاء معهم مالا والسائبات النتاج . وحكى أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله : إنى تخذت غنما أبتغى نسلها ورسلها وانها لا تمى فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما ألوانها قالت : سود فقال لها : عفرى وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم فى منا كح الآدميين : اغتربوا لا تضووا

وأما الثالث من أسبابها وهى التجارة فهى فرع لمادتى الزرع والنتاج فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : تسعة أعشار الرزق فى التجارة والحرث والباقى فى السائبات وهى نوعان تقلب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه ذوو الأقدار وزهد فيه ذوو الأخطار والثانى تقلب بالمال بالأسفار ونقلة الى الأمصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ان المسافر وماله لعلى قَلَتٍ الا ما وقى الله» يعنى على خطر . وفى التوراة يابن آدم احدث سفرا احدث لك رزقا

أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آلات للصناعة فأشرفهم نفسا متهيئ لأشرفها جنسا كما أن أرذلهم نفسا متهيئ لأرذلها جنسا لأن الطبع يبعث على ما يلائمه ويدعو الى ما يجانسه . وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج

الى أقاصي الأرض قال لأرسـطاطاليس : اخرج معي قال : قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال : فما أصنع في عمالي خاصة قال : انظر الى من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجنود ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطباع على ما أغناه عن كلفة التجربة . وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأرذلها صـناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر وتدبيره . فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين : أحدهما ما وقف على التـدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها . والثاني ماأدّت الى المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى في فضل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه

وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين : عمل صناعي وعمل بهيمي . فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج الى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصوّره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر انما هو صناعة كدّ وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطّباع الخاسئة كما قال أكثم بن صيفي : لكل ساقطة لاقطة وكما قال المتلمس :

ولا يقيم على ضـيم يسام به إلا الأذلان عير الحيّ والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشـج فلا يرثى له أحد

وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين : أحدهما ان تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة . والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لها فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادّهم ووكلهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسها ليكون ذلك سببا لألفتهم . فسبحان من تفرّد فينا بلطيف

حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته . وإذ قد وضح القول فى أسباب المواد وجهات الكسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة أمور :

أحدها أن يطلب منها قدر كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير ان يتعدى الى زيادة عليها أو يقتصر على نقصان منها فهذه أحمد أحوال الطالبين وأعدل مراتب المقتصدين . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أوحى الله تعالى الىّ كلمات فدخلن فى أذنى ووقرن فى قلبى من أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شرّ له ولا يلم الله على كفاف» وروى حميد عن معاوية بن حيدة قال : قلت يارسول الله : ما يكفينى من الدنيا قال : ماسدّ جوعتك وستر عورتك فان كان دارٌ فذاك وان كان خَمَار فَبَخٍ بَخٍ فِلَقٌ مِن خُبْزٍ وجَرٌّ من ماء وأنت مسئول عمافوق الازار . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد فى قوله تعالى : «اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا» أن كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك . وروى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو فى المعنى صحيح لأنه بالزوجة والخادم مطاع فى أمره وفى الدار محجوب الا عن إذنه وليس على من طلب قدر الكفاية ولم يجاوز تبعات الزيادة الا توخى الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له . وقد روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن تجد فقد شيء تركته لله» وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال : أما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما بيد الله أوثق منك بما فى يديك وأن يكون ثواب المصيبة أرجح عندك من بقائها . وحكى عبد الله بن المبارك قال : كتب عمر بن عبد العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمى : ان استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه

من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام. وقد اختلف اهل التأويل في قوله تعالى: «فان له معيشة ضنكا» فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس: هو إنفاق من لا يوقن بالخلف. وقال يحيي بن معاذ: الدرهم عقرب فاذا أحسنت رقيتها والا فلا تأخذها وقيل: من قل توقيه كثرت مساويه. وقال بعض البلغاء: خير الأموال ما أخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الأموال ما أخذته من الحرام وصرفتـه في الآثام وكان الأوزاعي الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الأبيات:

المـال ينفـد حله وحرامـه   يوما ويبـقى بعـده آثامـه
ليس التـقيّ بمـتق لالهـه   حتى يطيب شرابه وطعامـه
ويطيب مايجني ويكسب أهله   ويطيب من لفظ الحديث كلامه
نطق النـبيّ لنا به عن ربه   فعلى النبيّ صـلاته وسـلامه

وحكى عن ابن المعتمر السلمي قال: الناس ثلاثة اصناف أغنياء وفقراء واوساط. فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعز القناعة. والأغنياء سكارى الا من عصمه الله تعـالى بتوقع الغير وأكثر الخير مع أكثر الأوساط وأكثر الشرّ مع أكثر الفقراء والأغنيـاء لسخف الفقر وبطر الغنى.

والأمر الثاني أن يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا التقصير قد يكون على ثلاثة أوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومرح الاغتباط فلن يعدم أن يكون كلا قصيا أو ضائعا شقيا. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كادا لحسد يغلب القدر وكاد الفقر أن يكون كفرا» وقال بزرجمهر: ان كان شيء فوق الحياة فالصحة وان كان شيء مثلها فالغنى وان كان شيء فوق الموت فالمرض وان كان شيء مثله فالفقر. وقيل في منثور الحكم: القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر:

عقب الصـبر نجـاح وغـنى   ورداء الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

أعوذ بك اللهم من بطر الغنى ومن نهكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن أمل يمتدّ فى كل شارق يرجعنى منه بحظ يد صفر
اذا لم تدنسنى الذنوب بعارها فلست أبالى ما تشعث من أمرى

واذا كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد أعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لأن الله تعالى انما أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضاء بعد الاعواز. وقد روى معمر عن أيوب عن أبى قلابة قال: ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يارسول الله: خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلى حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه وسلم: فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا: كلنا يارسول الله قال: كلكم خير منه. وقال بعض الحكماء: ليس من توكل المرء إضاعته للحزم ولا من الحزم إضاعة نصيبه من التوكل. وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه بِتَبِعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فآثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى فقد روى أبو الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن يوم طلعت فيه شمسه إلا وعلى جنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين يأيها الناس هلموا الى ربكم إن ماقلّ وكفى خير مما كثر وألهى» وروى زيد بن على بن الحسين عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أجمعين أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انتظار الفرج من الله بالصبر عبادة ومن رضى من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضى عز وجل منه بالقليل من العمل» وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: من نيل الفقر أنك لاتجد أحدا يعصى الله ليفتقر فأخذه محمود الوراق فقال:

يا عائب الفقر ألا تزدجر عيب الغنى أكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى ان صح منك النظر
أنك تعصى لتنال الغنى ولست تعصى الله كى تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك أن الفقر خير من الغنى وأن قليل المال خير من المثرى
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فأطاعته وصدقها فأجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلمت أن من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير كما كتب الحسن البصرى الى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما: ياأخى من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لايشبع لم يغنه منها كثرة ما يجمع فعليك منها بالكفاف وألزم نفسك العفاف وإياك وجمع الفضول فان حسابه يطول. وقال بعض الحكماء: هيهات منك الغنى ان لم يقنعك ماحويت فأما من أعرضت نفسه عن قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الى إكراهها سبيل ولا للحمل عليها وجه إلا بالرياضة والمروءة وأن يستنزلها الى اليسير الذى لاتنفر منه فاذا استقرت عليه أنزلها الى ماهو أقل منه لتنتهى بالتدريج الى الغاية المطلوبة وتستقر بالرياضة والتمرين على الحال المحبوبة. وقد تقدم قول الحكماء: ان المكروه يسهل بالتمرين فهذا حكم ما فى الأمر الثانى من التقصير عن طلب الكفاية (وأما الأمر الثالث) فهو أن لا يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقديدعو الى ذلك أربعة أسباب: أحدها منازعة الشهوات التى لاتنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حدّ متناه فيصير ذلك ذريعة الى أن مايطلبه من الزيادة غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كدّه وتعبه فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده وأتعابه

مع ماقدلزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة التى قد انصرف طلبها الى ما تدعو اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة . وقد روى عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من أراد الله به خيرا حال بينه و بين شهوته وحال بينه و بين قلبه واذا أراد به شرا وكله الى نفسه» وقد قال الشاعر :

وإنك ان أعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

(والسبب الثانى) أن يطلب الزيادة و يلتمس الكثرة ليصرفها فى وجوه الخير ويتقرب بها فى جهات البر و يصطنع بها المعروف و يغيث بها الملهوف فهـذا أعذر و بالحمد أحرى وأجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب وأحسن التقدير فى حالتى فائدته وافادته على قدر الزيادة و بقـدر الامكان لأن المـال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للاخوان ومن فقده من أهل الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رهبة ولا رغبة استهانوا به . وقد روى عبدالله ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن حساب أهل الدنيا هذا المال» وقال مجاهد : الخير فى القرآن كله المال «وإنه لحب الخير لشديد» يعنى المال «وأحببت حب الخير عن ذكر ربى» يعنى المال «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا» يعنى مالا وقال شعيب النبيّ عليه السلام : «إنى أراكم بخير» يعنى المال وانمـا سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لأن ما أدى الى الخير فهو فى نفسه خير وقد اختلف أهل التأويل فى قوله تعالى : «ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» فقال السدّى وعبدالرحمن بن زيد : الحسنة فى الدنيا المال وفى الآخرة الجنة وقال الحسن البصرى وسفيان الثورى : الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقال ابن عباس : الدراهم والدنانير خواتم الله فى الأرض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها

قضيت حاجتك . وقال قيس بن سعد : اللهم ارزقنى حمدا ومجدا فانه لا حمد إلا بفعال ولا مجد إلا بمـال . وقد قيل لأبى الزناد : لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا فقال : هى و إن أدنتنى منها فقد صانتنى عنها . وقال بعض الحكماء : من أصلح ماله فقد صان الأكرمين الدين والعرض . وقيل فى منثور الحكم : من استغنى كرم على أهله . ومرّ رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه فقيل له بعد ذلك : أكانت لك الى هذا حاجة قال : لا ولكنى رأيت ذا المال مهيبا . وسأل رجل محمد بن عمير ابن عطارد وعتاب بن ورقاء فى عشر ديات فقال محمد : علىّ دية وقال عتاب : البـاقى علىّ فقال محمد : نعم العون على المجد اليسار . وقال الاحنف بن قيس :

فلو كنت مُثْرِّى بمال كثير جدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تسـتطاع اذا لم يكن مالها فاضـلا

وكان يقال : الدراهم مراهم لأنها تداوى كل جرح ويطيب بها كل صلح . وقال ابن الجلال :

رزقت مالا ولم ترزق مروءته وما المروءة الا كثرة المـال
اذا أردت رقى العلياء يقعدنى عمـا ينوّه باسمى رقة الحال

وقيل فى منثور الحكم : الفقر مخذلة والغـنى مجذلة والبؤس مرذلة والسؤال مبذلة . وقال أوس بن حجر :

أقيم بدار الحـزم ما دام حزمها وأحر اذا حالت بأنـ أتحوّلا
فانى وجدت الناس إلا أقلهم خفاف عهود يكثرون التنقلا
بنى أم ذى المال الكثير يرونه وان كان عبدا سيد القوم جحفلا
وهم لمقلّ المـال أولاد علة وان كان محضا فى العشيرة مخولا

وقال بشر الضرير

كفى حزنا أنى أروح وأغتـدى ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما القى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وقال آخر

أجلك قوم حين صرت الى الغنى   وكل غنىّ فى العيون جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى   عشــية يقرى أو غداة ينيــل

وقد اختلف الناس فى تفضيل الغنى والفقر مع اتفاقهم على أن ما أحوج من الفقر مكروه وما أبطر من الغنى مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنى عن الفقر لأن الغنىّ مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز وهذا مذهب من غلب عليــه حب النباهة وذهب آخرون الى تفضيل الفقر على الغنى لأن الفقير تارك والغنىّ ملابس وترك الدنيا أفضل من ملابستها وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة . وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج عن حدّ الفقر الى أدنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الأمرين ويسلم من مذمة الحالين وهــذا مذهب من يرى تفضيل الاعتــدال وأن خيار الأمور أوساطها وقد مضى شواهد كل فريق فى موضعه بما أغنى عن إعادته (والسبب الثالث) أن يطلب الزيادة ويقتنى الأموال ليدّخرها لولده ويخلفها لورثته مع شدّة ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك فى حقه إشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب وهذا شقىّ بجمعها مأخوذ بوزرها قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذى لب : منها سوء ظنه بخالقه أنه لا يرزقهم الا من جهته . وقد قيل : قتل القنوط صاحبه وفى حسن الظن بالله راحة القلوب . وقال عبد الحميد : كيف تبقى على حالتك والدهر فى إحالتك . ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه وقد قيل : الدهر حسود لا يأتى على شىء إلا غيره . وقيل فى منثور الحكم : المـال ملول . وقال بعض الحكماء : الدنيا ان بقيت لك لا تبقى لها . ومنها ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل : انما مالك لك أو للوارث أو للجائحة فلا تكن أشقى الثلاثة . وقال عبد الحميد

اطرح كواذب آمالك وكن وارث مالك . ومنها ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده حتى صار ساعيا محروما وجاهدا مذموما وقد قيل : رب مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال الشاعر :

ومن كلفته النفس فوق كفافها فمـا ينقضي حتى الممـات عناؤه

ومنها مايؤاخذ به من وزره وآثامه ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه . وقد حكى أن هشام بن عبد الملك لمـا ثقل بكى ولده عليـه فقال لهم : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليـه بالبكاء وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما أسوأ حال هشام ان لم يغفر الله له فأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال :

تمتع بمـالك قبـل الممـات والا فلا مال ان أنت متا
شـقيت به ثم خلفتـه لغـيرك بعـدًا وسحقا ومقتا
فجادوا عليـك بزور البكاء وجدت عليهم بمـا قد جمعتا
وأرهنتهـم كل ما في يديك وخلوك رهنـا بمـا قد كسبتا

وروى أن العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ولني فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسـلم قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس ياعم النبي نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها يا عباس يا عم النبي صلى الله عليه وسلم إن الامارة أولها ندامة وأوسطها ملامة وآخرها جزاء يوم القيامة فقال : يا رسول الله الا من عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تعدلون مع الأقارب . وقال رجل للحسن البصري رحمه الله : انى اخاف الموت وأكرهه فقال : انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق به . وقيل في منثور الحكم : كثرة مال الميت تعزى ورثته عنه فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد :

أبقيت مالك ميراثا لوارثه فليت شعرى ماأبقى لك المـال

القوم بعـــدك فى حال تسرّهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكاء فما يبكيك من أحد واستحكم القول فى الميراث والقال
ولتهـــم عنك دنيـا أقبلت لهم وأدبرت عنك والأيام أحـوال

(والسبب الرابع) أن يجمع المال و يطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا باحتجانه فهذا أسوأ الناس حالا فيه وأشدّهم حرمانا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار و بالا عليه ومذامّ له وفى مثله قال الله تعالى : «والذين يكنزون الذهب والفضـة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تبا للذهب تبا للفضة فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أىّ مال نتخذ فقال عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم فقالوا : أىّ مال نتخذ فقال : لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه . وروى شهر بن حوشب عن أمامة قال : مات رجل من أهل الصفة فوجد فى مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كية ثم مات آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك أموالا جمة وأحوالا ضخمة فلم يكن فيه ما كان فى هذين لأنهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس بهـما اليه حاجة فصار ما احتجناه وزرا عليهما وعقابا لهما وقد قال الشاعر :

اذا كنت ذامال ولم تك ذاندى فأنت اذًا والمقترون سـواء
على أن فى الأمـوال يوما تباعة على أهلهـا والمقـــترون براء

وأنشدت عن الربيع للشافعى رضى الله عنه :

إن الذى رزق اليسار فـلم يصب حمـــدا ولا أجرا لغير موفـــق
والجـــدّ يدنى كل شىء شـاسع والجـــدّ يفتح كل باب مغـلق
وأحـــق خلق الله بالهـــم آمرؤ ذوهمـــة عليـا وعيش ضـــيق

ومن الدليـــل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
فاذا سمعت بأن مجـــدودا حوى عـــودا فأورق فى يديه فحـــقق
واذا سمعت بأن محـــدودا أتى ماء ليشربه فجـــفَّ فصـــدّق

وآفة من بلى بالجمع والاستكثار ومنى بالامساك والادّخار حتى انصرف عن رشده فغوى وانحرف عن سنن قصده فهوى أن يستولى عليه حب المـال وبعد الأمل فيبعثه حب المـال على الحرص فى طلبه ويدعوه بعد الأمل على الشح به والحرص والشح أصـــل لكل ذم وسبب لكل لؤم لأن الشح يمنع من أداء الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : شر ما أعطى العبد شح هالع وجبن خالع . وقال بعض الحكماء : الغنيّ البخيل كالقويّ الجبان . وأما الحرص فيسلب فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورّط فى الشبهات لقلة تحرزه منها وهــذه ثلاث حالات هن جامعات الرذائل سالبات الفضائل مع أن الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى إذلال نفســه وإسخاط خالقه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الحريص الجاهد والقنوع الزاهد يستوفيان أكلهما غير منتقص منه فعلام التهافت» وقال بعض الحكماء : الحرص مفسدة للدين والمروءة والله ما عرفت من وجه رجل زصا فرأيت أن فيه مصطنعا . وقال آخر : الحريص أسير مهانة لا يفك أسره . وقال بعض البلغاء : المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبه . والأرزاق المكتوبة لا تنال بالشدّة والمكالبه فذلل للقادير نفسك واعلم بأنك غير نائل بالحرص الّا حظك . وقال بعض الأدباء : رب حظ أدركه غير طالبه ودرّ أحرزه غير حالبه . وأنشدنى بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم :

يا أسير الطمع الكا ذب فى غل الهوان
إن عز اليأس خير لك من ذل الأمانى

سامح الدهر اذا عــزّ* وخذ صـــفو الزمان
ربمـا أعدم ذوالحر ص وأثرى ذوالتوانى

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بهـا لأنه ان وصل بالحرص الى ما أمل أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل واذا لم يصل رأى إضاعة العناء لوما والصبر عليــه حزما وصار بمـا سلف من عنائه أقوى رجاء وأبسط أملا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يشيب ابن آدم ويبقى معه خصلتان الحرص والأمل» وقيل للمسيح عليه السلام : ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب قال لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب . ولو صدق الحريص نفســه واستنصح عقله لعلم أن من تمـام السـعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضاء والقناعة بالقسم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اقتصدوا فى الطلب فان ما رزقتموه آشدّ طلبا لكم منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم» وروى أن جبريل على نبينا وعليه الســلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله تبارك وتعالى يقرا عليك السلام ويقول لك : اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ولا تمدّن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيــه ورزق ربك خير وأبقى فأمر النبي صلى الله عليــه وسلم مناديا ينادى من لم يتأدّب بأدب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . وقيل مكتوب فى بعض الكتب : ردّوا ابصاركم عليكم فان لكم فيهـا شغلا . وقال مجاهد فى تأويل قوله تعالى : « فلنحيينه حياة طيبة » قال بالقناعة . وقال أكثم بن صيفى : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والمروءة . وقال بعض السلف : قد يخيب الجاهد الساعى ويظفر الوادع الهـادى فأخذه البحترى فقال :

لم الق مقـدورا على استحقاقه فى الحظ إما ناقصـا او زائدا

وعجبت للمحدود يحرم ناصبا كلفا وللمجدود يغنم قاعدا
ماخطب من حرم الارادة قاعدا خطب الذى حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكماء: إن من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا . وقال بعض البلغاء: اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز وجل عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره. وقال بعض الأدباء: القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر . وقال بعض الأدباء :

إنى أرى من له قنوع يدرك ما نال من تمنى
والرزق يأتى بلا عناء وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه : فالوجه الأوّل أن يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا أعلى منازل أهل القناعة وقال الشاعر :

اذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار : أزهد الناس من لا تجاوز رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكماء : الرضا بالكفاف يؤدّى الى العفاف . وقال بعض الأدباء : رب ضيق أفضل من سعة وعناء خير من دعة . وأنشدنى بعض أهل الأدب وذكر أنه لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه

أفادتنى القناعة كل عز وأىّ غنى أعز من القناعه
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التقوى بضاعه

والوجه الثانى أن تنتهى به القناعة الى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط حال المقتنع . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد أتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد فى رزقه» وقال بعض الحكماء: طلب

ما فوق الكفاف إسراف . وقال بعض البلغاء : من رضى بالمقدور قنع بالميسور . وقال البحترى :

تطلب الأكثر فى الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالأقل

وأنشدت لابراهيم بن المدبر :

ان القناعة والعفا ف ليغنيان عن الغنى
فاذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث أن تنتهى به القناعة الى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما أتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة : أما الرغبة فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت وأما الرهبة فلأنه لايطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت . وفى مثله قال ذو النون رحمة الله عليه : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة . وقد روى الحسن بن على عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الدنيا دول فما كان منها لك أتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه ومن رضى بما رزقه الله تعالى قرّت عينه» وقال أبو حازم الأعرج : وجدت الدنيا شيئين : شيئا هو لى لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض وشيئا هو لغيرى وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا أناله فيما بقى يمنع الذى لى من غيرى كما يمنع الذى لغيرى منى ففى أىّ هذين أفنى عمرى واهلك نفسى . وقال أبو تمام الطائى :

لا تأخذنّى بالزمان فليس لى تبعا ولست على الزمان كفيلا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا
لو جار سلطان القنوع وحكمه فى الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه يأتى ولم تبعث اليه رسولا

وانشدنى بعض أهل الأدب لابن الرومى :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

ونحن نسأل الله تعالى أكرم مسئول وأفضل مأمول أن يحسن الينا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استكفافا لتبعات الثروة وموبقات الشهوة . روى شريك بن أبى نمر عن أبى الجذع عن أعمامه وأجداده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خير امتى الذين لم يُعْطَوا حتى يَبْطَرُوا ولم يُقْتِرُوا حتى يَسْأَلوا» وقال أبو تمام الطائى :

عندى من الأيام ما لو أنه أضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه فترومه شعبا اذا ما غيضا
ما عوّض الصبر امرؤ الا رأى ما فاته دون الذى قد عوّضا

باب أدب النفس وهو الخامس من الكتاب

اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضىّ منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان أغفل تأديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على أن تنقاد الى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الأدب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» . وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام : من أدّبك قال : ما أدّبنى أحد ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ان الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلا بينه و بينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها . وقال أردشير بن بابك : من فضيلة الأدب أنه ممدوح بكل لسان ومتزين به فى كل مكان و باق ذكره على أيام الزمان . وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الأدب بالبنيان الخراب الذى كلما علا سمكه كان أشدّ لوحشته و بالنهر اليابس الذى كلما كان أعرض وأعمق كان أشدّ لوعورته و بالأرض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به آلتفافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الأدب الذى هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها ونضارتها الا بالماء الذى يعود اليها من مستودعها . وحكى الأصمعى رحمه الله تعالى أن أعرابيا قال لابنه : يابنىّ الأدب دعامة أيد الله بها الألباب وحلية زين الله بها عواطل الأحساب فالعاقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الأدب المخرج زهرته كما لا تستغنى الأرض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها . وقال بعض الحكماء : الأدب صورة العقل فصوّر عقلك كيف شئت . وقال آخر : العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الأدب كالشجر المثمر . وقيل : الأدب أحد المنصبين . وقال بعض البلغاء : الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والحسب لأن من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله . وقال بعض الأدباء : ذك قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الأدب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب و يخاف صولتك راهب و يؤمل نفعك و يرجى عدلك . وقال بعض العلماء : الأدب وسيلة الى كل

فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحاء : الأدب يستر قبيح النسب . وقال بعض الشعراء فيه :

فما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الأدب
وما كرم المرء إلا التقى ولا حسب المرء إلا النسب
وفى العلم زين لأهل الحجا وآفة ذى الحلم طيش الغضب

وأنشد الأصمعى رحمه الله :

وان يك العقل مولودا فلست أرى ذا العقل مستغنيا عن حادث الأدب
إنى رأيتهما كالماء مختلطا بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته فى موالده غريزة العقل حاكى البَهْمَ فى الحسب

والتأديب يلزم من وجهين : أحدهما مالزم الوالد لولده فى صغره . والثانى ما لزم الانسان فى نفسه عند نشأته وكبره . فأما التأديب اللازم للأب فهو أن يأخذ ولده بمبادئ الآداب ليأنس بها وينشأ عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمبادئها فى الصغر لأن نشأة الصغير على الشيء تجعله متطبعا به ومن أغفل فى الصغر كان تأديبه فى الكبر عسيرا . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مانحل والد ولده نحلة افضل من أدب حسن يفيده إياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه» وقال بعض الحكماء : بادروا بتأديب الأطفال قبل تراكم الأشغال وتفرق البال . وقال بعض الشعراء :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الأدب الأحداث فى صغر وليس ينفع عند الشيبة الأدب

وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده إن الأصول عليها ينبت الشجر

وأما الأدب اللازم للانسان عند نشأته وكبره فأدبان : أدب مواضعة واصطلاح . وأدب رياضة واستصلاح . فأما أدب المواضعة

والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الأدباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للأدب مستوجبا للذم لأن فراق المألوف فى العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقدكان جائزا فى العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفا له من حيث انه كان جائزا فى العقل أن يوضع على خلافه . وأما أدب الرياضة والاستصلاح فهوما كان محمولا على حال لا يجوز فى العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء فى صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتى من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى: «فألهمها فجورها وتقواها» . قال ابن عباس رضى الله عنهما : بين لها ما تأتى من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شىء فى موضعه فانه أولى به وأحق

فأول مقدّمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى أخلاقه لأن النفس بالشهوات آمره وعن الرشد زاجره . وقد قال الله تعالى : «إن النفس لأمّارة بالسوء» وقال صلى الله عليه وسلم : «أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك» ودعت أعرابية لرجل فقالت : كبت الله كل عدو لك الا نفسك فأخذه بعض الشعراء فقال :

قلبى الى ما ضرنى داعى يكثر أسقامى وأوجاعى

كيف احتراسى من عدوّى اذا كان عدوّى بين أضلاعى

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الأخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هى عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : العاجز من عجز عن سياسة نفسه. وقال بعض الحكماء : من ساس نفسه ساد ناسه . فأما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها وردّ مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن مساويها كان سوء الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا. وقد قال الجاحظ فى كتاب البيان يجب أن يكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق فى التهمة ظلمها فأودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق فى مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل. وقال الأحنف بن قيس : من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم . وذهب قوم الى أن سوء الظن بها أبلغ فى صلاحها وأوفر فى اجتهادها لأن للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لأنها محبوبة تجور إدلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وتموّه عليه غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا وقد قالت الحكماء : من رضى عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم :

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها ورضا الفتى عن نفسه إغضابها
ولو أننى عنها رضيت لقصرت عما تزيد بمثله آدابها

وتبينت آثار ذاك فأكثرت عذلى عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبى تمام الطائى :

ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن هو بابنه و بشعره مفتون

فلم يروا إساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لؤما بل رأوا ذلك أبلغ فى الفضل وأبعث على الازدياد . فاذا عرف من نفسه ماتجنّ وتصوّر منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولاصرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان فى ملكها وغلبها بعد أن كان فى غلبها . وقد روى أبو حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشديد من غلب نفسه . وقال عون بن عبدالله : اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك . وقال بعض البلغاء : من قوى على نفسه تناهى فى القوه ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروه فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفة ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها وإصلاح فسادها . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت يارسول الله : متى يعرف الانسان ربه قال : اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن إغفال أو ميل يكون عن إهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعاناة ضائع والمهمل بعد المراعاة ذائع وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوى على مايلزم مراعاته من الأخلاق ويجب معاناته من الأدب وهى ستة فصول متفرعة :

(الفصل الأول) فى مجانبة الكبر والاعجاب لأنهما يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح ولا قبول لتأديب لأن الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين فلذلك

وجب تقديم القول فيهما بإبانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول:

أما الكبر فيكسب المقت ويلهى عن التألف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس: أنهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب منهما وقال أردشير بن بابك: ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه أين يذهب به فيصرفه الى الكبر وما أشبه ماقال بالحق. وحكى أن مطرف بن عبدالله ابن الشخير نظر الى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال: ياأبا عبدالله ماهذه المشية التى يبغضها الله ورسوله فقال المهلب: أما تعرفنى فقال: بل أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذره فأخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال:

عجبت من معجب بصورته وكان بالأمس نطفة مذره
وفى غد بعد حسن صورته يصير فى اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقد كان المهلب أفضل من أن تخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال. فأما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكى عن نافع بن جبير بن مطعم أنه جلس فى حلقة العلاء بن عبد الرحمن الحرقى وهو يقرئ الناس فلما فرغ قال: أتدرون لم جلست اليكم قالوا: جلست لتسمع قال: لا ولكنى أردت أن أتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل أو ينفع فيه عذل وقد قال ابن المعتز: لما عرف أهل النقص حالهم عند ذوى الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل

وأما الاعجاب فيخفى المحاسن ويظهر المساوى ويكسب المذام ويصد عن الفضائل. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وقال على بن

أبى طالب كرم الله وجهه : الاعجاب ضدّ الصواب وآفة الألباب وقال بزرجمهر: النعمة التى لايحسد صاحبها عليها التواضع والبلاء الذى لا يرحم صاحبه منه العجب . وقال بعض الحكماء : عجب المرء بنفسه أحد حساد عقله . وليس الى مايكسبه الكبر من المقت حدّ ولا الى ماينتهى اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطفئ من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضائل مااشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد . حكى عمر بن حفص قال : قيل للحجاج : كيف وجدت منزلك بالعراق قال : خير منزل لو كان الله بلغنى قتل أربعة فتقرّبت اليه بدمائهم قيل : ومن هم قال : مقاتل بن مسمع ولى سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له أرديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه : لمثل هذا فليعمل العاملون * وعبدالله بن زياد بن ظبيان التيمى خوف أهل البصرة أمرا فخطب خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد أكثر الله فينا مثلك فقال : لقد كلفتم الله شططا * ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا فى طريق فمرت به امرأة فقالت له : ياعبد الله كيف الطريق الى موضع كذا فقال : ياهناه مثلى يكون من عبيد الله . وأبو شمال الأسدى أضل راحلته فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال : والله ان لم يرد الىّ راحلتى لا صليت له صلاة أبدا فالتمسها الناس فوجدوها فقالوا : قد ردّ الله راحلتك فصل فقال ان يمينى يمين مصرّ . فانظر الى هؤلاء كيف أفضى بهم العجب الى حمق صاروا به نكالا فى الأوّلين ومثلا فى الآخرين . ولو تصوّر المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلى به من مهنة لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوّه وسكونا من نفوره . وقال الأحنف بن قيس : عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعراء الانسان فقال :

يا مظهر الكبر إعجابا بصورته ... أنظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل فى ابن آدم مثل الرأس مكرمة ... وهو بخمس من الأقذار مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك ... والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... أقصر فانك مأكول ومشروب

وأحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل فى الدنيا قدره وعظم فيها خطره لأنه قد يستقل بعالى همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير . وقال محمد بن على : لا ينبغى للشريف أن يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطيرا فيكون مهانا بها . وقال ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادّان بمعنى واحد : التواضع والشرف

وللكبر أسباب فمن أقوى أسبابه علوّ اليد ونفوذ الأمر وقلة مخالطة الأكفاء . وحكى أنّ قوما مشوا خلف على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : أبعدوا عنى خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود فقال : ارجعوا فانها زلة للتابع وفتنة للمتبوع . وروى قيس بن حازم أن رجلا أتى به للنبى صلى الله عليه وسلم فأصابته رعدة فقال له صلى الله عليه وسلم : هوّن عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد وانما قال ذلك صلى الله عليه وسلم حسما لموادّ الكبر وقطعا لذرائع الاعجاب وكسرا لاسراف النفس وتذليلا لسطوة الاستعلاء . ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب فأظل اليوم وأىّ يوم فقال له عبد الرحمن بن عوف :

والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن قصرتَ بنفسك فقال عمر رضى الله عنه : ويحك يابن عوف انى خلوت فحدثتنى نفسى فقالت : أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك فأردت أن أعرّفها نفسها . وللاعجاب أسباب : فمن أقوى أسبابه كثرة مديح المتقربين و إطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا فاذا وجدوه مقبولا فى العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يزكى رجلا فقال له : قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : المدح ذبح . وقال ابن المقفع : قابل المدح كمادح نفسه . وقال بعض الحكماء : من رضىَ أن يمدحَ بما ليسَ فيه فقد أمكنَ السَاخرَ منه . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إياكم والتمادح فانه الذبح إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحسب ولا أزكى على الله أحدا» وقيل فيما أنزل الله عز وجل من الكتب السالفة : عجبٌ لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبٌ لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب . وقال بعض الشعراء :

ياجاهلاً غرّه إفراط مادحه لايغلبن جهل من أطراك علمكَ بكَ
أثنى وقال بلا علم أحاط به وأنتَ أعلم بالمحصول من ريبكَ

وهذا أمر ينبغى للعاقل ان يضبط نفسه عن أن يستفزها و يمنعها من تصديق المدح لها فان للنفس ميلا لحب الثناء وسماع المدح . وقال الشاعر :

يهوى الثناء مبرّز ومقصر حب الثناء طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه فى مدح الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضائل الممدوحة ولها بها عن المحاسن الممنوحة فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا وعند تقابلهما يكون الصدق

الزم الأمرين وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز . وليعلم أن المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته ولتكن تهمة المادح أغلب عليه فقلّ مدح كان جميعه صدقا وقلّ ثناء كان كله حقا ولذلك كره أهل الفضل أن يطلقوا ألسنتهم بالثناء والمدح تحرزا من التجاوز فيه وتنزيها عن التملق به . وقد روى مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تكونوا عيابين ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين» . وحكى الأصمعي : أن أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه كان اذا مدح قال : اللهم أنت أعلم بى من نفسي وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون . وقال بعض الشعراء :

إذا المرء لم يمدحه حسن فعاله ... فمادحه يهذى وإن كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى أن يصير مادح نفسه : إمّا لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه . وإمّا ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والاطراء فيعتقدون أن قوله حق متبع وصدق مستمع . وإمّا لتلذذ بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح والاطراء كما يتغنى بنفسه طربا اذا لم يسمع صوتا مطربا ولا غناء ممتعا ولأىّ ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفاضح . وقال بعض الشعراء :

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ... ولكنّ أعمالا تذم وتمدح

وما كل حين يصدق المرء ظنه ... ولا كل أصحاب التجارة يربح

ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ... ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغى للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التى صرفه حسن الظن عنها فانهم أمكن نظرا وأسلم فكرا ويجعلون ما ينبهونه عليه

من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه . وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤمن مرآة المؤمن اذا رأى فيه عيبا أصلحه» . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه يقول : رحم الله امرأ أهدى الينا مساوينا . وقيل لبعض الحكماء : أتحب أن تهدى اليك عيوبك قال: نعم من ناصح . وممـا يقارب معنى هذا القول ماروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لابن عباس رضى الله عنهما : من ترى أن نوليه حمص فقال رجلا : صحيحا منك صحيحا لك قال: تكون أنت ذلك الرجل قال: لا تنتفع بى مع سوء ظنى بك وسوء ظنك بى . وقيل فى منثور الحكم : من أظهر عيب نفسه فقد زكاها . فاذا قطع أسباب الكبر وحسم موادّ العجب اعتاض بالكبر تواضعا و بالعجب تودّدا وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى موادّ النعم وأبلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض. وقال بعض الحكماء: من برئ من ثلاث نال ثلاثا : من برئ من السرف نال العز ومن برئ من البخل نال الشرف ومن برئ من الكبر نال الكرامة . وقال مصعب ابن الزبير: التواضع مصايد الشرف . وقيل فى منثور الحكم: من دام تواضعه كثر صـــديقه وقد تحدث المنـازل والولايات لقوم أخلاقا مذمومة يظهرها ســوء طباعهم ولآخرين فضائل محمودة يبعث عليهـا زكاء شيمهم لأن لتقلب الأحوال سكرة تظهر من الأخلاق مكنونهـا ومن السرائر مخزونهـا لاسيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تأهب. وقد قال بعض الحكماء: فى تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال. وقال الفضل بن سهل : من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها . وقال بعض البلغاء : الناس فى الولاية رجلان رجل يجل العمل بفضـــله ومروءته ورجل يجل بالعمل لنقصـه ودناءته فمن جل عن عمله ازداد به تواضـعا وبشرا ومن جل بعمله لبس به تجبرا وتكبرا

(الفصل الثانى فى حسن الخلق) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه لايكمل الا بهما». وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوإ الداء قالوا بلى قال: الخلق الدنىّ واللسان البذىّ. قال بعض الحكماء: من ساء خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة. وقال بعض البلغاء: الحسن الخلق من نفسه فى راحة والناس منه فى سلامة والسيئ الخلق الناس منه فى بلاء وهو من نفسه فى عناء. وقال بعض الحكماء: عاشر أهلك بأحسن أخلاقك فان الثواء فيهم قليل. وقال بعض الشعراء:

اذا لم تتسع أخلاق قوم تضيق بهم فسيحات البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت أخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الأمور الصعاب ولانت له القلوب الغضاب. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار». وقال بعض الحكماء: من سعة الأخلاق كنوز الأرزاق. وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الأصفياء المسعدين وقلة الأعداء المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحبكم الىّ أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون» وحسن الخلق أن يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة. وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأوصاف فقال: «أهل الجنة كل هين لين سهل طلق». ولما ذكرنا من هذه الأوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة كما قال الشاعر:

أصفو وأكدر أحيانا لمختبرى وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد بالكدر البذاء وشراسة الخلق فان ذلك ذم لايستحسن وعيب لا يرتضى وانما يريد الكف والانقباض فى موضع يلام فيه

المساعد ويذم فيه الموافق فاذا كانت لمحاسن الأخلاق حدود مقدّرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحدّ صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لؤم وليس لمن وسم بهما ودّ مبرور ولا أثر مشكور. وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون وجيها عند الله تعالى». وقال سعيد بن عروة: لأن يكون لى نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر أحب الىّ من أن أكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين. وقال الشاعر:

خَلِّ النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن ترى الا عدوّا أو صديقا

وقال ابراهيم بن محمد

وكم من صديق ودّه بلسانه خَئُون بظهر الغيب لايتذمم
يضاحكنى عجبا اذا ما لقيته ويَقْذَعنى منه اذا غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا وفى غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطاء الى الشراسة والبذاء لأسباب عارضة وأمور طارئة تجعل اللين خشونة والوِطاء غلظة والطلاقة عبوسا. فمن أسباب ذلك الولاية التى تحدث فى الأخلاق تغيرا وعلى الخلطاء تنكرا إما من لؤم طبع وإما من ضيق صدر. وقد قيل: من تاه فى ولايته ذلّ فى عزله وقيل: ذل العزل يضحك من تيه الولاية. ومنها العزل فقد يسوء منه الخلق ويضيق به الصدر إما لشدة أسف أو لقلة صبر. حكى حميد الطويل: أن عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه وقال: إني وجدتها حُلوة الرِّضَاع مُرّة الفِطام. ومنها الغنى فقد تتغير

به أخلاقُ اللئيم بطرا وتسوءَ طرائقه أشرا . وقد قيل : من نالَ استطال وأنشد الرياشي :

غضبان يعلمُ أن المال ساقَ له ما لم يسقه له دينٌ ولا خلقُ
فمن يكن عن كرام الناسِ يسألني فأكرم الناس من كانت له وَرِق

وقال بعض الشعراء

لئن تكن الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلائقا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما أفسده الغنى كذلك يصلحه الفقر . وكتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج أن أهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه أن اقطع عنهم الأرزاق ففعل فساءت حالهم فاجتمعوا اليه فقالوا : أقِلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت آنست منهم رشدا فأجرِ عليهم ما كنتَ تجرِى . واعلم أن الفقر جندُ الله الأكبر يذل به كلُّ جبار عنيد يتكبر. وقد روىَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لولا أن الله تعالى أذلّ ابن آدم بثلاث ما طأطأ رأسه لشيء الفقر والمرض والموت» ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق إما أنفة من ذل الاستكانة أو أسفا على فائت الغنى. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كاد الفقر أن يكونَ كفرا وكاد الحسد أن يغلِبَ القدَرَ» . وقال أبو تمام الطائى :

وأعجبَ حالاتِ ابنِ آدمَ خُلْقُهُ يضِلُّ اذا فكَّرتَ فى كنهِه الفكرُ
فيفرحَ بالشيءِ القليلِ بقاؤه ويجزَعَ مما صارَ وهو لهُ ذُخرُ

وربما تسلّى من هذه الحالة بالأماني وان قل صِدْقُها فقد قيل: قلما تصدُقُ الأمنيّة ولكن قد يُعتاض بها سَلْوةٌ من همٍ أو مسرةٌ برجاء . وقد قال أبو العتاهية :

حرِّك مُناكَ اذا اغتممتَ فانهن مراوحُ

وقال آخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا ان المنى رأس اموال المفاليس

ومنها الهموم التى تذهل اللب وتشغل القلب فلا تتبع الاحتمال ولا تقوى على صبر . وقد قيل : الهم كالسم . وقال بعض الأدباء : الحزن كالداء المخزون فى فؤاد المحزون . وقال بعض الشعراء :

هموهك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم
اذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا اذا قيل تم
اذا كنت فى نعمة فارعها فان المعاصى تزيل النعم
وحام عليها بشكر الإله فان الإله سريع النقم
حلاوة دنياك مسمومة فما تأكل الشهد الا بسم
فكم قدر دب فى مهلة فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الأمراض التى يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الأخلاق على اعتدال ولا يقدر معها على احتمال . وقد قال المتنبى :

آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولى
أبدا تسترد ما تهب الدنـ ـيا فياليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتأثيره فى الجسد كذلك يكون تأثيره فى أخلاق النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من أثقال فكذلك تعجز النفس عن أثقال ما كنت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضيق الشقاق وكذلك ماضاهاه . وقال منصور النميرى :

ما كنت أوفى شبابى كنه عزته حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمى ثكل الشباب ولم تشجى لغصته فالعذر لا يقع
ما كان أقصر أيام الشباب وما أبقى حلاوة ذكراه التى تدع
ماواجه الشيب من عين وان رمقت الا لها نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضى على فوت الشباب أسى لولا يعزيك أن العمر منقطع

فهذه سبعة أسباب أحدثت سوء خلق كان عاما . وههنا سبب خاص يحدث سوء خلق خاص وهو البغض الذى تنفر منه النفس فتحدث نفورا عن المبغض فيئول الى سوء خلق يخصه دون غيره فاذا كان سوء الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

(الفصل الثالث فى الحياء) اعلم أن الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب فى أمثالها : تخبر عن مجهوله مرآته وكما قال سلم بن عمرو الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه فى وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعة والحياء وسمة الشر القحة والبذاء وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذاء شرا أن يكونا الى الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» ويشبه أن يكون العى فى معنى الصمت والبيان فى معنى التشدق كما جاء فى الحديث الآخر « إن أبغضكم الىّ الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» . وروى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «الحياء من الايمان والايمان فى الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء فى النار» وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وقال بعض البلغاء : حياة الوجه بحيائه كما أن حياة الغرس بمائه . وقال بعض البلغاء العلماء : ياعجبا كيف لا نستحى من كثرة ما لا نستحى ونتقى من طول ما لا نتقى . وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه اذا قل ماؤه

حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشاء ويأتى ما يهوى وبذلك جاء الخبر . روى شعبة عن

منصور بن ربعى عن أبى منصور البدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى يابن آدم اذا لم تستحى فاصنع ماشئت » وليس هذا القولُ إغراء بفعل المعاصى عند قلة الحياء كما توهمه بعض من جهل معانى الكلام ومواضعات الخطاب . وفى مثل هذا الخبر قول الشاعر :

اذا لم تخشَ عاقبة الليالى ولم تستحى فاصنعْ ما تشاء
فلا والله ما فى العيش خير ولا الدنيا اذا ذهبَ الحياء
يعيشُ المرء ما آستحيا بخير ويبقى العـود ما بقىَ اللحاءَ

وآختلفَ أهلُ العلم فى معنى هذا الخبر . فقال أبو بكر بن محمد الساسى فى أصول الفقه معنى هذا الحديث : أنَّ من لم يستحى دعاهُ تركُ الحياء الى أن يعملَ مايشاء لا يردعهُ عنه رادع فليستحى المرء فان الحياءَ يردعه وسمعتُ مَنْ يحكى عن أبى بكر الرازى من أصحاب أبى حنيفة : أن المعنى فيه اذا عرضتْ عليكَ أفعالُكَ التى هممتَ بفعلها فلم تستحى منها لحسنها وجمالها فاصنعْ ماشئتَ منها فجعل الحياءَ حكما على أفعاله وكلا القولين حسن والأوّلَ أشبه لأن الكلامَ خرجَ من النبى صلى الله عليه وسلم مخرجُ الذم لا مخرجَ الأمر . لكن قد جاء الحديثُ بما يضاهى القولَ الثانى وهو قولُه صلى الله عليه وسلم : « ما أحببت أن تسمعهُ أذناك فأتِهِ وما كرهتَ أن تسمعه أذناك فاجتنبه » ويجوزُ أن يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكونُ التأويل الأوّلَ فى الحديث المتقدّم أصح اذ ليس يلزم أن تكونَ أحاديثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها متفقةَ المعانى بل اختلافَ معانيها أدخلُ فى الحكمة وأبلغُ فى الفصاحة اذا لم يضادّ بعضها بعضا * واعلمْ أن الحياءَ فى الانسان قد يكونَ من ثلاثة أوجه : أحدُها حياؤُهُ من الله تعالى والثانى حياؤهُ من الناس والثالث حياؤُهُ من نفسه . فأما حياؤهُ من الله تعالى فيكونُ بامتثال أوامره

والكفّ عن زواجره . وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «استحيوا من الله عز وجل حق الحياء فقيل يارسول الله فكيف نستحيي من الله عز وجل حق الحياء قال : من حفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء» وهذا الحديث من أبلغ الوصايا . وقال ابو الحسن الماوردى مصنف الكتاب : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ذات ليلة فقلت يارسول الله أوصنى فقال : استحى من الله عز وجل حق الحياء ثم قال : تغير الناس قلت : وكيف ذلك يارسول الله قال : كنت أنظر الى الصبى فأرى من وجهه البشر والحياء وأنا أنظر اليه اليوم فلا أرى ذلك فى وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصورتها وأذهلنى السرور عن حفظها ووددت لو أنى حفظتها . فلم يبدأ بشيء صلى الله عليه وسلم قبل الوصية بالحياء من الله عز وجل وجعل ماشابه الصبى من البشر والحياء سببا لتغير النـاس وخص الصبى لأن ما يأتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله وسلم على من هدى أمته وتابع إنذارها وقطع أعذارها و واصل تأديبها وحفظ تهذيبهـا وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من اوامره أعاننا الله على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق . وقد روى أن علقمة بن علاثة قال يارسول الله عظنى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك» وهذا الحياء يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «قلة الحياء كفر» يعنى من الله لمـا فيه من مخالفة أوامره . وقال صلى الله عليه وسلم : «الحياء نظام الايمـان فاذا انحل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق»

وأما حياؤه من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من تقوى الله اتقاء الناس»

وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال: لاخير فيمن لايستحي من الناس. وقال بشار بن برد:

ولقد أصرف الفؤاد عن الشى ء حياء وحبه فى السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكرا فى غد حديث الأعادى

وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له» يعنى والله أعلم لقلة مروءته وظهور شهوته . وروى الحسن عن أبى هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم «إن مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه و إلفه وجليسه» . وقال بعض الشعراء :

ورب قبيحة ما حال بينى و بين ركوبها الا الحياء
اذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب فى الأمور كما يشاء

وقال آخر

إذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحى مخلوقا فما شئت فاصنع

وأما حياؤه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات . وقال بعض الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك. وقال بعض الأدباء: من عمل فى السر عملا يستحيي منه فى العلانية فليس لنفسه عنده قدر. ودعا قوم رجلا كان يألف عشرتهم فلم يجبهم وقال: إنى دخلت البارحة فى الأربعين وأنا أستحيي من سنى . وقال بعض الشعراء :

فسرى كاعلانى وتلك خليقتى وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل حياء الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر وصار بالفضل مشهورا و بالجميل مذكورا وقال بعض الشعراء :

و إنى ليثنينى عن الجهل والخنا وعن شتم ذى القربى خلائق أربع

حياء وإسلام وتقوى وأنَّنى كريم ومثلى من يضرّ وينفع

وان أخلّ بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله . وقد قال الرياشي: يقال إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر :

وحاجة دون أخرى قد سنحت لها جعلتها للتى أخفيت عنوانا

وإنى لأرى من لاحياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

(الفصل الرابع فى الحلم والغضب) روى محمد بن حارث الهلالى أن جبريل نزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد إنى أتيتك بمكارم الأخلاق فى الدنيا والآخرة خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . وروى سفيان بن عيينة أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية قال : «يا جبريل ما هذا قال : لا أدرى حتى أسأل العالم ثم عاد جبريل وقال : يا محمد ان ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك» . وروى هشام عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذا خرج من منزله قال : اللهم انى تصدّقت بعرضى على عبادك» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن الله يحب الحليم الحيىّ ويبغض الفاحش البذىّ» وقال عليه الصلاة والسلام : «من حلُم ساد ومن تفهم ازداد» . وقال بعض الأدباء : من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم . وقال بعض البلغاء : ما ذب عن الأعراض كالصفح والإعراض وقال بعض الشعراء :

أحب مكارم الأخلاق جهدى وأكره أن أعيب وأن أُعابا

وأصفح عن سباب الناس حلما وشرّ الناس من يهوى السبابا

ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوى الألباب لما فيه من

سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد. وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: أوّل عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره. وحدّ الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهذا يكون عن باعث وسبب. وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة: أحدها الرحمة للجهال وذلك من خير يوافق رقة. وقد قيل فى منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال. وقال أَبو الدرداء رضى الله عنه لرجل اسمعه كلاما: يا هذا لا تغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه. وشتم رجل الشعبي فقال: ان كنت كما قلت فغفر الله لى وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك. واغتاظت عائشة رضى الله عنها على خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت: لله درّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء. وقسم معاوية رضى الله عنه قُطُفا فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه فأخبره فقال له معاوية: أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ. والثانى من أسبابه القدرة على الانتصار وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا للقدرة عليه». وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة. وقال بعض البلغاء: أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر. والثالث من أسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم. وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيدا لحلمه. وقد قال الشاعر:

لا يبلغ المجد أقوام وان كرموا حتى يذلوا وان عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع من أسـبابه الاستهانة بالمسيء وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب كما حكى عن مصـعب بن الزبير أنه لمـا ولى العراق جلس يوما لعطاء الجند وأمر مناديه فنادى أين عمرو بن جرموز وهو الذى قتل أباه الزبير فقيل له : أيها الأمير إنه قد تباعد فى الأرض فقال أو يظن الجاهل أنى أقيـده بأبى عبد الله فليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موفرا فعدّ الناس ذلك من مستحسن الكبر. ومثل ذلك قول بعض الزعماء فى شعره:

أوَكلما طَنّ الذباب طردته ان الذباب إذَنْ عَلَيّ كريم

وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه فقال: والله ما منعه من جوابى الا هوانى عليه وفى مثله يقول الشاعر :

نجا بك لؤمك منجي الذباب حمتـه مقاذيره أن ينالا

وأسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه فقال له الرجل: إياك أعنى فقال له : وعنك أعرض وفى مثله يقول الشاعر :

فاذهب فأنت طليق عِرْضك إنه عرض عززت به وأنت ذليـل

وقال عمرو بن على

اذا نطق السـفيه فلا تجبـه فخير من إجابتـه السكوت
سكت عن السـفيه فظنّ أنى عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة. وقد قال بعض الحكماء: احتمال السفيه خير من التحلى بصورته والاغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته . وقال بعض الأدباء ما أفحش حليم ولا أوحش كريم . وقال لقيط بن زرارة :

وقل لبنى سـعد فمـالى ومالكم ترقون منى ما استطعت وأعتق
أغـرّكمو أنى بأحسن شيمة بصـيرٌ وأنى بالفواحش أخرق
وان تك قـد سـابيتنى فقهرتنى هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضـل على السَّبَّاب فهذا يكون من الكرم

وحب التألف كما قيل للاسكندر : إن فلانا وفلانا ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال : هما بعد العقوبة أعذر فى تنقصى وثلبى فكان هـذا تفضلا منه وتألفا . وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال : ما عادانى أحد قط إلا أخذت فى أمره باحدى ثلاث خصال : ان كان أعلى منى عرفت له قدره وان كان دونى رفعت قدرى عنـه وان كان نظيرى تفضلت عليه فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب وإن كثرت منـه إلىّ الجـرائم
فـا الناس الا واحد من ثلاثة : شريف ومشروف ومثـل مقاوم
فأمّا الذى فوقى فأعرف قـدره وأتبـع فيـه الحق والحق لازم
وأمّا الذى دونى فأحـلُم دائبا أصـون به عرضى وإن لام لائم
وأمّا الذى مثـلى فان زل أو هفا تفضلت إن الفضل بالفخر حاكم

والسابع من أسبابه استنكاف السِّباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلا قال لضرار بن القعقاع : والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال له ضرار : والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكى ان على ابن أبى طالب كرم الله وجهـه قال لعامر بن مرة الزهرى من أحمق الناس قال : من ظن أنه أعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال : من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال . وقال الشعبىّ : ما أدركت أمى فأبرهـا ولكن لا أسب أحدا فيسبها . وقال بعض الحكماء : فى إعراضك صون اعراضك . وقال بعض الشعراء :

وفى الحلم ردع للسفيه عن الأذى وفى الخرق إغراء فـلاتك أخرقا
فتنـدم اذ لا ينفعنك ندامـة كما ندم المغبـون لما تفـرقا

وقال آخر

قل مابدالك من زور ومن كذب حلمى أصم وأذنى غـير صمـاء

والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون

من ضـعف النفس وربمـا أوجبه الرأى واقتضاه الحزم . وقد قيـل في منثور الحكم : الحلم حجاب الآفات . وقال الشاعر :

ارفق اذا خفت من ذى هفوة خرقا ليس الحلـيم كمن فى أمره خرق

والتاسع من أسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة وهـذا يكون من الوفاء وحسن العهد . وقد قيل فى منثور الحكم : أكرم الشيم أرعاها للذمم . وقال الشاعر :

إن الوفاء على الكريم فريضـة واللؤم مقرون بذى الإخلاف

وترى الكريم لمن يعاشر منصفا وترى اللئيم مجانب الإنصاف

والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدهاء . وقد قيل فى منثور الحكم : من ظهر غضبه قل كيده . وقال بعض الأدباء : غضب الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله . وقال بعض الحكماء : اذا سـكت عن الجاهل فقد أوسـعته جوابا وأوجعته عقابا . وقال إياس بن قتادة :

تعاقب أيدينا ويحلم رأينـا ونشـتم بالأفعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعراء

وللكف عن شتم اللئيم تكرما أضرّ له من شتمه حين يشـتم

فهذه عشرة أسـباب تدعو الى الحلم وبعض الأسباب أفضل من بعض وليس اذا كان بعض أسـبابه مفضولا ما يقتضى أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة وانمـا الأولى بالانسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه وان كان الحلم كله فضلا . وان عرا عن أحد هذه الأسباب كان ذلا ولم يكن حلما لأننا قد ذكرنا فى حدّ الحلم أنه ضـبط النفس عند هيجان الغضب فاذا فقـد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية . وقد قالت الحكماء : ثلاثة لا يعرفون

الا فى ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا فى العسرة والشجاع الا فى الحرب والحليم الا فى الغضب . وقال الشاعر :

ليست الأحلام فى حال الرضا إنما الأحلام فى حال الغضب

وقال آخر

من يدّعى الحلم أغضبه لتعرفه لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وأنشد النابغة الجعدىّ بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدّرا
ولا خير فى جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم ينكر صلى الله عليه وسلم قوله عليه . ومن فقد الغضب فى الأشياء المغضبة حتى استوى حالتاه قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضائل النفس الشجاعة والأنفة والحمية والغيرة والدفاع والأخذ بالثار لأنها خصال مركبة من الغضب فاذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقى فضائله فى النفوس موضع ولا لوفور حلمه فى القلوب موقع . وقد قال المنصور: اذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة . وقال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم . وقال عمرو ابن العاص : أكرموا سفهاءكم فانهم يقونكم العار والشنار. وقال مصعب ابن الزبير : ما قل سفهاء قوم الا ذلوا . وقال أبو تمام الطائى :

والحرب تركب رأسها فى مشهد عدل السفيه به بألف حليم

وليس هذا القول إغراء بتحكم الغضب والانقياد اليه عند حدوث ما يغضب فيكسب بالانقياد للغضب من الرذائل أكثر مما يكسبه عدم الغضب من الفضائل ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه وأطفأ ثائرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة الى غيره ولا يعدم مسىء مكافئا كما لن يعدم محسن مجازيا . والعرب تقول :

دخل بيتا ما خرج منه أى ان خرج منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر . وأنشد ابن دريد عن أبى حاتم :

اذا أمن الجهال جهلك مرة فعرضـك للجهال غنم من الغنم
فعمّ عليـه الحلم والجهـل والْقَهُ بمنزلة بين العـداوة والسـلم
اذا أنت جاريت السفيه كما جرى فأنت سـفيه مثله غير ذى حلم
ولا تعضِبَنْ عرضَ السفيه وداره بحـلم فان أعيـا عليك فبالصرم
فـيرجوك تارات ويخشاك تارة ويأخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدّا من الجهل فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من أحكم أبيات وجدتها فى تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدّا من مقارنته ولا سبيل الى آطراحه ومتـاركته إما لخوف شره أو للزوم أمره فأما من أمكن اطراحه ولم يضرّ إبعـاده فالهوان به أولى والاعراض عنـه أصوب فاذا كان على ما وصفت استفاد بتحريك الغضب فضـائله وأمن بكف نفسه عن الانقياد له رذائله وصـار الحلم مدبرا للأمور المغضـبة بقدر لا يعتريه نقص بعدم الغضب ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل عنه وجه الصواب فيه وضعف رأيه عن خبرة أسـبابه ودواعيه حتى يصـير بليد الرأى مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العزاء قليل الحيلة مع ما ينـاله من أثر ذلك فى نفسه وجسده حتى يصير أضر عليه ممـا غضب له . وقد قال بعض الحكماء : من كثر شططه كثر غلطه . وروى أن سلمان قال لعلى رضى الله عنه : ما الذى يباعدنى عن غضب الله عز وجل قال : أن لا تغضب . وقال بعض السلف : أقرب ما يكون العبد من غضب الله عز وجل اذا غضب . وقال بعض البلغاء : من ردّ غضبه هدّ من أغضبه . وقال بعض الأدباء : ما هيج جاشك كغيظ أجاشك . وقال رجل لبعض الحكماء عظنى قال :

لا تغضب فينبغى لذى اللب السوىّ والحزم القوىّ أن يتلق قوة الغضب بحلمه فيصدّها ويقابل عوادى شرته بحزمه فيردّها ليحظى بأنجلاء الحيرة ويسعد بحميد العاقبة. وقال بعض الأدباء: فى إغضائك راحة أعضائك. وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله فبذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن المرض والأسقام لكمونه ولذلك أفضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب

واعلم أن لتسكين الغضب اذا هجم أسبابا يستعان بها على الحلم. منها أن يذكر الله عز وجل فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة له فيرجع الى أدبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب. قال الله تعالى: «وآذكر ربك اذا نسيت» قال عكرمة: يعنى اذا غضبت. وقال الله تعالى: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله» ومعنى قوله ينزغنك أى يغضبنك فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم يعنى أنه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك الغضب. وذكر أن فى التوراة مكتوبا: يا بن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق. وحكى أن بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزير له وقال: اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مالك والغضب إنما أنت بشر ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء. وقال بعض الحكماء: من ذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته فى ظلم عباد الله. وقال عبد الله بن مسلم بن محارب لهارون الرشيد: ياأمير المؤمنين أسألك بالذى أنت بين يديه أذل منى بين يديك وبالذى هو أقدر على

عقابك منك على عقابى لما عفوت عنى فعفا عنه لما ذكره قدرة الله تعالى . وروى أن رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال: اطلع فى القبور واعتبر بالنشور . وكان بعض ملوك الطوائف اذا غضب ألقى عنده مفاتيح ترب الملوك فيزول غضبه . ولذلك قال عمر رضى الله عنه: من أكثر من ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير . ومنها أن ينتقل عن الحالة التى هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الأحوال والتنقل من حال الى حال وكان هذا مذهب المأمون اذا غضب أو شتم وكانت الفرس تقول: اذا غضب القائم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم . ومنها أن يتذكر ما يئول اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام . وكتب أبرويز الى ابنه شيرويه: ان كلمة منك تسفك دما وأخرى منك تحقن دما وان نفاذ أمرك مع كلامك فاحترس فى غضبك من قولك أن تخطئ ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يجف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلما . وقال بعض الحكماء: الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لؤم . وقال بعض الأدباء: إياك وعزة الغضب فانها تفضى الى ذل العذر . وقال بعض الشعراء:

واذا ما اعترتك فى الغضب العـ*ـزة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة فى الجزاء والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ينادى مناد يوم القيامة من له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» . وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان فى أسارى ابن الأشعث: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فأعط الله ما يحب من العفو . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الخير ثلاث خصال فمن كنّ فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضى لم يدخله

رضاه فى باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا» . وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاما فقال: عمر أردت أن يستفزنى الشيطان لعزة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا انصرف رحمك الله . ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى إضاعة ذلك بتنفير الناس عنه وبعدهم منه فيكف عن متابعة الغضب فيرغب فى التألف وجميل الثناء . وروى ابن أبى ليلى عن عطية عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ازداد أحد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله . وقال بعض البلغاء: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم إزالة النعم . وقال المأمون لابراهيم بن المهدىّ: إنى شاورت فى امرك فأشاروا علىّ بقتلك الا أنى وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال: ياأمير المؤمنين إن المشير أشار بما جرت به العادة فى السياسة الا أنك أبيت أن تطلب النصر الا من حيث ماعُوِّدْتَه من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وأنشأ يقول:

البِرّ بى منك وطّا العذرَ عندك لى ... فيما فعلتُ فلم تعــذل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتجّ عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهـم
لئن جحدتك معروفا مننت به ... إنى لفى اللؤم أحْظَى منك بالكرم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به ... فلا عدمتك من عاف ومنتقم

(الفصل الخامس فى الصدق والكذب) قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: «ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» وقال تعالى: «إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال للحسن بن علىّ رضى الله عنهما: «دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة» . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رحم الله امرا أصلح من لسانه وأقصر

من عنانه والزم طريق الحق مقوله ولم يعوّد الخطل مفصله » . وروى صفوان بن سليم قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أيكون المؤمن جبانا قال نعم قيل : أفيكون بخيلا قال نعم قيل : أفيكون كذابا قال لا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : «ولا تلبسوا الحق بالباطل » أى لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقيل فى منثور الحكم : الكذاب لص لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة . وقال بعض البلغاء : الصادق مصون جليل والكاذب مهان ذليل . وقال بعض الأدباء : لا سيف كالحق ولا عون كالصدق . وقال بعض الشعراء :

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذى لا خير فيه وأبعد بالبهاء من الرجال

والكذب جماع كل شرّ وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضاء والبغضاء تئول الى العداوة وليس مع العداوة أمن ولا راحة ولذلك قيل : من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الأخبار الماضية كما أن الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه والكذب هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعى الصدق لازمة ودواعى الكذب عارضة لأن الصدق يدعو اليه عقل موجب وشرع مؤكد فالكذب يمنع منه العقل و يصدّ عنه الشرع ولذلك جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة حتى تصير متواترة ولم يجز أن تستفيض الأخبار الكاذبة لأن اتفاق الناس فى الصدق والكذب إنما هو لاتفاق الدواعى فدواعى الصدق يجوز أن يتفق الجمع الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفى عن مثلهم المواطأة وقع فى النفس صدقه لأن الدواعى اليه نافعة واتفاق الناس فى الدواعى النافعة

ممكن ولا يجوز أن يتفق العـــدد الكثير الذى لا يمكن مواطأة مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لأن الدواعى اليه غير نافعة وربما كانت ضارّة وليس فى جارى العـادة أن يتفق الجمع الكثير على دواع غير نافعــة ولذلك جاز اتفاق الناس على الصدق لجواز آتفاق دواعيهم ولم يجز أن يتفقوا على الكذب لامتناع آتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بدّ من ذكر ماسنح به الخاطر من دواعيهما

أما دواعى الصدق فمنهـا العقل لأنه موجب لقبح الكذب لاسيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا . والعقل يدعو الى فعـل ما كان مستحسنا ويمنع من إتيان ما كان مسـتقبحا وليس ما اسـتحسن من مبالغات الشـعراء حتى صار كذبا صراحا استحسانا للكذب فى العقل كالذى أنشدنيه الأزدى لبعض الشعراء :

توهمه فكرى فأصـبح خدّه وفيه مكان الوهم من فكرتى أَثَرْ
وصـافحه كفى فآلم كفه فمن لمس كفى فى أنامله عَقْـر
ومر بقلبى خاطرا فجرحتــه ولم أر شـيئا قط يجرحه الفكْر

وكقول العباس بن الأحنف وان كان بدون هذه المبالغة :

تقول وقد كتبت دقيق خطى اليهـا لِمْ تجنّبتَ الجليـــلا
فقلت لهـا نَحُلتُ فصار خطى مساعـدة لكاتبـه نحيـــلا

لأنه خرج مخرج المبالغة فى التشبيه والاقتدار على صـنعة الشـعر وان شـواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك استحسـن فى الصنعة ولم يستقبح فى العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه . ومنها الدّين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لأن الشرع لا يجوز أن يرد بارخاص ما حظره العقل بل جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لأن الشرع ورد بحظر الكذب وإن جرّ نفعا أو دفع ضررا والعقل انما حظر مالا يجلب نفعا ولا يدفع ضررا . ومنها المروءة فانها

مانعـة من الكذب باعثة على الصـدق لأنها قد تمنع من فعل ما كان مسـتكرها فأولى من فعـل ما كان مستقبحا . ومنها حب الاشـتهار بالصدق حتى لا يردّ عليه قول ولا يلحقه ندم . وقد قال بعض البلغاء : ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق أقوى معين والصدق أفضل قرين . وقال بعض الشعراء :

عوّد لسانك قول الصدق تحظ به ... إن اللسـان لمـا عوّدت معتاد
موكل بتقـاضي ما سـنـنت له ... في الخير والشرّ فانظر كيف ترتاد

وأما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضرّ فيرى أن الكذب أسـلم وأغنم فيرخص لنفسـه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربمـا كان الكذب أبعـد لمـا يؤمل وأقرب لمـا يخاف لأن القبيح لا يكون حسنا والشرّ لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تحرّوا الصـدق وإن رأيتم أن فيه الهَلَكة فان فيـه النجاة وتجنبوا الكذب وإن رأيتم أن فيه النجاة فان فيه الهَلَكة » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن يضعني الصدق وقلما يضع أحب إليّ من أن يرفعني الكذب وقلما يفعل . وقال بعض الحكماء : الصدق منجيك وإن خفته والكذب مرديك وإن أمنته . وقال الجاحظ : الصدق والوفاء توءمان والصبر والحلم توءمان فبهنّ تمـام كل دين وصلاح كل دنيا وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد . ومنها أن يؤثر أن يكون حديثه مسـتعذبا وكلامه مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلي الكذب الذي ليست غرائبه معوزة ولا ظرائفه معجزة . وهذا النوع أسوأ حالا مما قبل لأنه يصدر عن مهانة النفس ودناءة الهمة . وقد قال الجاحظ : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده . وقال ابن المقفع لا تتهاون : بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع الى إبطال الحق . ومنها أن يقصد

بالكذب التشفى من عدوّه فيسمه بقبائح يخترعها عليه و يصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى أن معرّة الكذب غنم وأن إرسالها فى العدو سهم وسم وهـــذا أسوأ حالا من النوعين الأولين لأنه قد جمع بين الكذب المعرّ والشر المضرّ ولذلك ورد الشرع بردّ شهادة العدو على عدوّه . ومنها أن تكون دواعى الكذب قد ترادفت عليه حتى ألفها فصار الكذب له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لأن العادة طبع ثان . وقد قالت الحكماء : من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه . وقيل فى منثور الحكم : لا يلزم الكذاب شىء الاغلب عليه

واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه فمنها أنك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته و بين ما أورده فرق عنده . ومنها أنك اذا شككته فيــه تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ماتخالجه الشك فيــه . ومنها أنك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان الصادقين . ولذلك قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الكذاب كالسراب . ومنها ما يظهر عليه من ريبة الكذابين و ينم عليه من ذلة المتوهمين لأن هذه أمور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لمــا فى الطبع من إثارتها . ولذلك قالت الحكماء : العينان أنم من اللسان . وقال بعض البلغاء : الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا . وقال بعض الشعراء :

تريك أعينهم ما فى صدورهم إن العيون يؤدّى سرّها النظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى أكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرّة الكذب منه ومضرّة الكذب عليه . وقد قال الشاعر :

حسب الكذوب من البليـّـة بعض ما يحكى عليــه
فاذا سمعت بكذبة من غيره نسبت اليـــه

ثم إنه ان تحرّى الصدق اتهم وان جانب الكذب كذب حتى لا يعتقد له حديث مصدّق ولا كذب مستنكر . وقد قال الشاعر :

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدّق فى شىء وان كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ اذا كان حاذقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب فى الحرب وإصلاح ذات البين على وجه التورية والتأويل دون التصريح به فان السنة لا ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرّف برداء وانفرد عن أصحابه فقال له رجل ممن أنت قال : من ماء فورّى عن الاخبار بنسبه بأمر محتمل فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من الماء الذى يخلق منه الانسان فبلغ ما أحب من إخفاء نفسه وصدق فى خبره . وكالذى حكى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه أنه كان يسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون أبا بكر ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ياأبا بكر من هذا فقال : هاد يهدينى السبيل فظنوا انه يعنى هداية الطريق وهو انما يريد هداية سبيل الخير فصدق فى قوله وورّى عن مراده . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب» . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ان فى المعاريض مايكفى أن يعف الرجل عن الكذب . وقال بعض أهل التأويل فى قوله تعالى : «لا تؤاخذنى بما نسيت» أنه لم ينس ولكنه معاريض الكلام . وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يصرح فيه بالكذب

واعلم أن من الصدق ما يقوم مقام الكذب فى القبح والمعرّة ويزيد عليه فى الأذى والمضرّة وهى الغيبة والنميمة والسعاية . فأما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر . قال الله تعالى : «ولا يغتب

بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم اخيه ميتا» يعنى أنه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا . وروى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: صامتا عما احل لهما وأفطرتا على ما حرّم عليهما. وروت أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقا على الله عز وجل أن يحرّم لحمه على النار» . وقال عدىّ بن حاتم الغيبة رعى اللئام . وكان الحسن البصرى رحمه الله تعالى يقول الغيبة فاكهة النساء . وقال رجل لابن سيرين رحمه الله انى اغتبتك فاجعلنى فى حل فقال : ما أحب أن أحل لك ما حرّم الله عليك . وقال ابن السماك : لا تعن الناس على عيبك بسوء غيبك . وقال الشاعر :

لاتلتمس من مساوى الناس ماستروا فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وربما عذر المغتاب نفسه بأنه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه» فيبعد من الصواب ويجانب الأدب لأنه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه أولى وجاهر من أسر وأخفى وربما دعا المغتاب ذلك الى إظهار ما كان يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يفده ذلك إلا فساد أخلاقه من غير أن يكون فيه صلاح لغيره . وقد قيل لأنوشروان : ما الذى لا خير فيه قال : ماضرنى ولم ينفع غيرى أوضر غيرى ولم ينفعنى فلا أعلم فيه خيرا . وقيل فى منثور الحكم : لاتبد من العيوب ماستره علام الغيوب . وقد روى العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : «هى أن تقول لأخيك مافيه فان كنت

صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد بهته» . وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم» إنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه . ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم مستفتية فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله: ما أقصرها فقال: مهلا إياك والغيبة فقالت يارسول الله: انما قلت ما فيها قال: أجل ولولا ذلك لكان بهتانا . وسئل بعض الأدباء عن صفة اللئيم فقال: اللئيم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب . فأما الخبر فمحمول على الانكار لأفعـال هؤلاء ولا يكون الانكار غيبة لأنه نهى عن منكر وفرق بين إنكار المجاهر وغيبة المساتر . وأما النميمة فهي أن تجمع الى مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الى لؤمها دناءة وغدرا ثم تـؤول الى تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين . وروى شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى يارسول الله قال: من شراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب» . وروى محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغار ملعون كل قتات ملعون كل منان» الشغار المحرّش بين الناس يلقى بينهم العداوة والقتات النمام . وقيل: النمام الذى يكون مع القوم يتحدّثون فينم حديثهم والقتات هو الذى يستمع عليهم وهم لايعلمون فينم حديثهم . والمنان هو الذى يصنع الخير ويمنّ به . وقيل فى منثور الحكم: النميمة سيف قاتل . وقال بعض الأدباء: لم يمش ماش شرّ من واش . فأما السعاية فهى شرّ الثلاثة لأنها تجمع الى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس والأموال والقدح فى المنازل والأحوال . وروى ابن قتيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الجنة لايدخلها ديوث ولا قلاع» الديوث هو الذى يجمع

بين الرجال والنساء سمى بذلك لأنه يديث بينهم . والقلاع هو الساعى الذى يقع فى الناس عند الأمراء سمى بذلك لأنه يأتى الرجل المتمكن عند الأمير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه . وقال بعض الحكماء : الساعى بين منزلتين قبيحتين إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة وإما أن يكون قد كذب فخالف المروءة . وقال بعض الحكماء : الصدق يزين كل أحد الا السعاة فان الساعى أذم وآثم مايكون اذا صدق . وقال بعض البلغاء : النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب أهلهما . ووقع الفضل بن سهل على قصة ساع سعى اليه : نحن نرى قبول السعاية شرا منها لأن السعاية دلالة والقبول إجازة فاتقوا الساعى فانه ان كان فى سعايته صادقا كان فى صدقه آثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة . وقال الاسكندر لرجل سعى اليه برجل : أتحب أن نقبل منك ماتقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال : فكف عن الشرّ يكف عنك الشر . وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى على نبينا وعليه السلام ان فى بلدك ساعيا ولست أخبرك وهو فى أرضك فقال : يارب دلنى عليه حتى أخرجه فقال : ياموسى أكره النميمة وأنم

(الفصل السادس فى الحسد والمنافسة) اعلم أن الحسد خلق ذميم مع إضراره بالبدن وإفساده للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة من شره فقال تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد » وناهيك بحال ذلك شرا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر والذى نفس محمد بيده لاتؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم » فأخبر صلى الله عليه وسلم بحال الحسد وان التحابب ينفيه وأن السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذن نافيا للحسد . وقد جاء كتاب الله تعالى بما يوافق هذا القول وقال الله

تعالى : «ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» قال مجاهد : معناه ادفع بالسلام إساءة المسيء . وقال الشاعر :

قد يلبث الناس حينا ليس بينهم ودّ فيزرعه التسليم واللطف

وقال بعض السلف : الحسد أوّل ذنب عصى الله به في السماء يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام وأوّل ذنب عصى الله به في الأرض يعني حسد ابن آدم لأخيه حتى قتله . وقال بعض الحكماء : من رضي بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال بعض البلغاء : الناس حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود . وقال بعض الأدباء : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم وهم لازم وقلب هائم . فأخذه بعض الشعراء فقال :

إن الحسود الظلوم في كرب يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفس يظهر منها ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا أنه خلق دنيء يتوجه نحو الأكفاء والأقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضرّ وعلى الهم مصرّ حتى ربما افضى بصاحبه الى التلف من غير نكاية في عدوّ ولا إضرار بمحسود . وقد قال معاوية رضي الله عنه : ليس في خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود . وقال بعض الحكماء : يكفيك من الحاسد أنه يغتم في وقت سرورك . وقيل في منثور الحكم : عقوبة الحاسد من نفسه . وقال الأصمعي : قلت لأعرابي ما أطول عمرك قال : تركت الحسد فبقيت . وقال رجل لشريح القاضي : اني لأحسدك على ماأرى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال : ما نفعك الله بذلك ولا ضرني . وقال عبد الله بن المعتز رحمه الله تعالى :

اصبر على كيد الحسو د فان صبرك قاتله

فالنـار تأكل بعضها ان لم تجـد ما تأكله

وحقيقة الحسد شدّة الأسى على الخيرات تكون للناس الأفاضل وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا أن المنافسة فى الخير هى الحسد وليس الأمر على ماظنوا لأن المنافسة طلب التشبه بالأفاضل من غير إدخال ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لأن غايته أن يعدم الأفاضل فضلهم من غير أن يصـير الفضل له فهذا الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسة إذن فضيلة لأنها داعيـة الى اكتساب الفضائل والاقتداء بأخيار الأفاضل وقدروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: المؤمن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر :

نافس على الخيرات أهل العلا فانمـا الدنيـا أحاديث

كل آمرئ فى شأنه كادح فوارث منهـم وموروث

وآعلم أن دواعى الحسـد ثلاثة : أحدها بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر أو منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لايكون عاما وان كان أضرها لأنه ليس يبغض كل الناس . والثانى أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه فيكره تقدّمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسـدا لولاه لكف عنه وهذا أوسطها لأنه لا يحسد الأكفاء من دنا وانمـا يختص بحسد من علا وقد يمترج بهـذا النوع ضرب من المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا . والثالث أن يكون فى الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لأنها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله عز وجل فى قضائه ويحسد على ما منح من عطائه وان كانت نعم الله عز وجل عنده أكثر ومنحه عليه أظهر وهذا النوع من الحسـد أعمها وأخبثها إذ ليس لصاحبه راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشرّ وقدرة كان بورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانة كان جهدا وسقاما . وقدقال عبد الحميد

الحسود من الهمّ كساقى السم فان سرى سمه زال عنه همه . واعلم أنه بحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسـد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لأن ظهور الفضل يثير الحسـد وحدوث النعمة يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على قضاء الحوائج بسترها فان كل ذى نعمة محسود» وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه: ما كانت نعمة الله على أحد الا وجه لها حاسدا فلو كان الرجل أقوم من القدح لما عدم غامزا . وقد قال الشاعر :

إن يحسـدونى فانى غير لائمهم قبلى من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فـدام لى ولهم مابى وما بهـم ومات أكثرنا غيظا بمـا يجـد

وربمـا كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال أبو تمـام الطائى :

واذا أراد الله نشر فضيـلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوّف للعواقب لم يزل للحاسـد النعمى على المحسود

فأما ما يستعمله من كان غالبا عليه الحسد وكان طبعه اليه مائلا لينتفى عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فأمور هى له حسم إن صادفها عزم . فمنها اتباع الدين فى اجتنابه والرجوع الى الله عز وجل فى آدابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحبب منها ما أتعب وان تقدم قول القائل من ربه خلقه كيف يخلى خلقه غير أنه إذا عانى تهـذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق . قال أبو تمـام الطائى :

فلم أجد الأخلاق الا تخلقا ولم أجد الإفضال الا تفضلا

ومنهـا العقل الذى يستقبح به من نتائج الحسد ما لا يرضيـه

ويستنكف من هجنة مساويه فيذلل نفسه أنفة ويطهرها حميـة فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها. وهذا انما يصح لذى النفس الأبية والهمة العلية وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد . وقد قال الشاعر :

أبىّ له نفسان : نفس زكية ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها أن يستدفع ضرره ويتوقى أثره ويعلم أن مكانته فى نفسه أبلغ ومن الحسد أبعد فيستعمل الحزم فى دفع ما كدّه وأكمده ليكون أطيب نفسا وأهنأ عيشا . وقد قيل : العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد . وقد قال الشاعر :

بصـير بأعقاب الأمور كأنمـا يرى بصواب الرأى ما هو واقع

ومنها ما يرى من نفور الناس عنـه وبعدهم منـه فيخافهم إما على نفسه من عداوة أو على عرضه من ملامة فيتألفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا أجدى نفعا واخلص ودّا . وقال ابن العميد رحمه الله تعالى :

داوى جوى بجوى وليس بحازم من يسـتكف النـار بالحلفاء

وقال المؤمل بن أميل

لاتحسبونى غنيا عن مودّتكم إنى اليكم وإن أيسرت مفتقر

ومنها أن يساعد القضاء ويستسلم للقدور ولا يرى أن يغالب قضاء الله فيرجع مغلوبا ولا أن يعارضه فى أمره فيردّ محروما مسلوبا . وقد قال أردشير بن بابك : اذا لم يساعدنا القضاء ساعدناه. وقال محمود الورّاق :

قـدر الله كائن حين يقضى وروده
قد مضى فيك علمه وانـتهى ما يريده
وأخو الحزم حزمه ليس ممـا يـزيده
فأرد ما يكون إن لم يكن ما تريده

فان أظفرته السعادة بأحد هذه الأسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا

واعتاض من الذم حمدا فان مَن آستنْزَل نفسه عن مذمة وصرفها عن لائمة فهو أظهر حزما وأقوى عزما ممن كفته النفس جهادها وأعطته قيادها ولذلك قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: خياركم كل مُفَتَّنٍ توَّاب . وان صدّته الشهوة عن مراشده وأضله الحرمان عن مقاصده فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتدّ كمده فقد باء بأربع مذام : إحداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء . وقال ابن المعتز : الحسد داء الجسد . والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه . وقد قيل فى منثور الحكم: الحسود لايسود. والثالثة مقت الناس له حتى لايجد فيهم محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة مأثورا و بالمقت مزجورا ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه» . والرابعة إسخاط الله تعالى فى معارضته واجتناء الأوزار فى مخالفته اذ ليس يرى قضاء الله عدلا ولا لنعمه من الناس أهلا . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقال عبدالله ابن المعتز: الحاسد مغتاظ على من لاذنب له بخيل بما لايملكه طالب مالايجده . واذا بلى الانسان بمن هذه حاله من حساد النعم وأعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع كيده وتحرز من غوائل حسده وابعد عن ملابسته و إدنائه لعضل دائه و إعواز دوائه فقد قيل : حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها . وقال بعض الحكماء : من ضرّ بطبعه فلا تأنس بقربه فان قلب الأعيان صعب المرام . وقال عبدالحميد: اسد تقاربه خير من حسود تراقبه . وقال محمود الورّاق :

أعطيت كل الناس من نفسى الرضا ... الا الحسود فانه أعيانى
ما إنّ لى ذنبا اليه علمته ... الا تظاهر نعمة الرحمن

وأبى فما يرضيه الا ذلتى   وذهاب أموالى وقطع لسانى

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاثة لايسلم أحد منهن: الطيرة وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ»

(فصل) وأما آداب المواضعة والاصطلاح فضربان: أحدهما ماتكون المواضعة فى فروعه والعقل موجب لأصوله. والثانى ماتكون المواضعة فى فروعه وأصوله وذلك متضح فى الفصول التى نذكرها اذا سبرت وهى ثمانية:

(الفصل الأول فى الكلام والصمت) اعلم أن الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر ويخبر بمكنونات السرائر لايمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على ردّ شوارده فحق على العاقل أن يحترز من زللَه بالامساك عنه أو بالاقلال منه. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم». وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ: يامعاذ أنت سالم ماسكت فاذا تكلمت فعليك أولك. وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل. وقال بعض الحكماء: الزم الصمت تعدّ حكيما جاهلا كنت أو عالما. وقال بعض الأدباء: سعدَ مَن لسانه صموت وكلامه قوت. وقال بعض العلماء: من اعوز مايتكلم به العاقل ان لايتكلم الا لحاجته أو لحجته ولا يفكر الا فى عاقبته أو فى آخرته. وقال بعض البلغاء: الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويؤمنك سوءَ المَغَبّة ويلبسك ثوبَ الوقار ويكفيكَ مؤنة الاعتذار. وقال بعض الفصحاء: اعقل لسانك الا عن حق توضحه أو باطل تدحضه أو حكمة تنشرها أو نعمة تذكرها. وقال الشاعر:

رأيت العز فى أدب وعقل   وفى الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن   اذا لم يسعد الحسن البيان

كفى بالمرء عيبا أن تراه له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد أن يستوفيها وهى أربعة : فالشرط الأول أن يكون الكلام لداع يدعو اليه إما فى اجتلاب نفع أو دفع ضرر . والشرط الثانى أن يأتى به فى موضعه ويتوخى به إصابة فرصته . والشرط الثالث أن يقتصر منه على قدر حاجته . والشرط الرابع أن يتخير اللفظ الذى يتكلم به . فهذه أربعة شروط متى أخل المتكلم بشرط منها فقد أوهن فضيلة باقيها وسنذكر تعليل كل شرط منها بما ينبئ عن لزومه . فأما الشرط الأول وهو الداعى الى الكلام فلأن ما لا داعى له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه فى الكلام اذا عن ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا كالذى حكى ابن عائشة : أن شابا كان يجالس الأحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الأحنف : تكلم يابن أخى فقال : ياعم أرأيت لو أن رجلا سقط من شرف هذا المسجد هل كان يضره شىء فقال : يابن اخى ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشنى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذى حكى عن أبى يوسف الفقيه أن رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف : ألا تسأل قال : بلى متى يفطر الصائم قال : اذا غربت الشمس قال : فان لم تغرب الى نصف الليل قال : فتبسم أبو يوسف رحمه الله وتمثل ببيتى الخطفى جد جرير :

عجبت لازراء العيى بنفسه وصمت الذى قدكان بالقول أعلما
وفى الصمت ستر للعيى وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

ومما أطرفك به عنى انى كنت يوما فى مجلسى بالبَصرَة وأنا مقبل على تدريس أصحابى إذ دخل علىّ رجل مسنّ قد ناهز الثمانين أو جاوزها فقال لى: قد قصدتك بمسألة اخترتك لها فقلت: اسأل عافاك الله وظننته يسأل عن حادث نزل به فقال: أخبرنى عن نجم إبليس ونجم آدم ما هو فان هذين لعظم شأنهما لا يسأل عنهما الا علماء الدين فعجبت وعجب من فى مجلسى من سؤاله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ماظهر من حاله الا بجواب مثله فأقبلت عليه وقلت ياهذا ان المنجمين يزعمون أن نجوم النـاس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسأله فحينئذ أقبل على وقال: جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد أيام عاد وقال: ماوجدت الى وقتى هذا من يعرف مولد هذين. فانظر الى هؤلاء كيف أبانوا بالكلام عن جهلهم وأعربوا بالسؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لسان العاقل من وراء قلبه فاذا أراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجـاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له» وقال عمر بن عبد العزيز: من لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياه. وقال بعض الحكماء: عقل المرء مخبوء تحت لسانه. وقال بعض البلغاء: إحبس لسانك قبل ان يطيل حبسك أو يتلف نفسك فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب. وقال أبو تمام الطائى:

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من تبع الفؤاد

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول: اذا جالست الجهال فأنصت لهم واذا جالست العلماء فأنصت لهم فان فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم وفى إنصاتك للعلماء زيادةً فى العلم. وأما الشرط

الثانى فهو أن يأتىَ بالكلام فى موضعه لأن الكلامَ فى غير حينِه لا يَقعُ موقع الانتفاعُ به وما لا ينفعُ من الكلام فقد تقدّمَ القولُ بأنه هَذَيان وهُجر، فان قَدَّمَ ما يقتضى التأخير كان عَجَلة وخَرَقاً وان أخَّرَ ما يقتضى التقديم كان توانيا وعَجزا لأن لكل مقام قولا وفى كل زمان عملا . وقد قال الشاعر :

تضعُ الحديثَ على مَواضِعِهِ وكلامُهاَ من بعَدِهَا نَزْرُ

واما الشرطُ الثالث وهو ان يقتصرَ منه على قَدر حاجته فان الكلام ان لم ينحصر بالحاجة ولم يقَدر بالكفاية لم يكن لحدّه غاية ولا لقدره نهاية ومالم يكن من الكلام محصورا كان إما حصرا ان قَصُر أو هَذَرا ان كَثُر . ورُوىَ أن أعرابيا تكلمَ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطوّل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : كَم دونَ لسانِكَ من حِجاب قال : شفتاى وأسنانى قال : فان الله عز وجل يَكرَه الانبِعاق فى الكلام فَنضر الله وجه آمرِئ أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته . وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال : ان الله تعالى انما خلق لك أذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به . وقالَ بعضُ الحكماء : من كَثُر كلامُه كثرت آثامُه . وقال ابن مسعود : انْذِرُكمْ فضولَ المَنطِق . وقال بعضُ البلغاء : كلامُ المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصِره على الجميل واقتصر منه على القليل وإيَّاكَ وما يسخطُ سلطانك ويُوحِشُ إخوانك فمن أسخطَ سلطانَهُ تعرّضَ للمَنيِّه ومن أوَحَشَ إخوانَهَ تبَرّأ من الحرّيه . وقال بعضُ الشعراء :

وَزنِ الكلام اذا نطقت فانمـا يبدى عيوبَ ذوى العيوبِ المنطق

وللمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصيرٌ يكونُ حَصَرا وتَكثير يكونُ هَذَرَاَ وكلاهما شَيْنٌ وشينُ الهَذْر أشنع وربما كان فى الغالب أخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم : «وهل يكبُّ الناسَ على مَناخِرهم فى نار

جَهنم الا حصائدُ ألسنتهم» . وقال بعض الحكماء : مُقْتلُ الرجل بين فكيه . وقال بعض البلغاء : الحصَر خيرٌ من الهذْر لأن الحصْر يُضْعِفُ الحُجّة والهذرُ يتلف المُهجة . وقد قال الشاعر :

رأيت اللسـان على أهـله اذا ساسه الجهل ليثا مُغيرا

وقال بعض الأدباء : يارب ألسنة كالسـيوف تقطعُ أعناقَ أصحابها ومابنقص من هيئات الرجال يزيد فى بهائها وألبابها . وقد ذهب بعضهم الى أن الكلام اذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لايتعوّده زلل فهو البيان والسحر الحلال . وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام فى مجلسه : كلا إن من تكلم فأحسن قدر على أن يسكت فيحسن وليس من سكت فأحسن قدر على أن يتكلم فيحسن . ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب : من اذا أخذ شبرا كفاه واذا وجد طومارا أملاه . وأنشد بعضهم فى خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يابنيّ اذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب فقال : ياأبت فان أنا أكثرت وأكثرت يعنى كلاما وصـوابا فقال : يابنيّ مارأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك . وأنشدت لابى الفتح البستيّ :

تكلم وسدّد ما استطعت فانما كلامك حى والسكوت جمـاد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معاوية : مافيك عيب الا كثرة الكلام فقال : أفتسمعون صوابا أو خطأ قالوا : لا بل صوابا قال : فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ : للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وصـدق أبو عثمان لأن الاكثار منه وان كان صوابا يُملّ السامع ويكلّ الخاطـر

وهو صادرٌ عن إعجاب به لولاه لأقصرَ عنه ومن أعجبَ بكلامه استرسلَ فيه والمسترسل فى الكلام كثيرُ الزللِ دائم العِثار . وقال بعض الحكماء : من أعجبَ بقوله أصيبَ بعقله وليسَ لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازى ضرره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه السآمة والملل وليس فى مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أبغضكم إلىّ المتفيهق المكثار والمتبلخ المهذار» . وسأل رجل حكيما فقال متى أتكلم قال : اذا اشتهيت الصمت فقال متى أصمت قال : اذا اشتهيت الكلام . وقال جعفر بن يحيى : اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا وان كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا . وقيل فى منثور الحكم : اذا تم العقل نقص الكلام . وقال بعض الأدباء : من أطال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره . وقال بعض البلغاء : عى تسلم منه خير من منطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وفضوله فانه يزل القدم ويورث الندم . وقال بعض الفصحاء : فم العاقل ملجم اذا هم بالكلام أحجم وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق . وقال بعض الشعراء :

إن الكلام يغر القوم جلوته حتى يلج به عىّ وإكثار

وأما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذى يتكلم به فلأن اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا . روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمه العباس : يعجبنى جمالك قال : وما جمال الرجل يارسول الله قال : لسانه . وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل كان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة . وقال بعض الحكماء : اللسان وزير الانسان . وقال بعض البلغاء : يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بفعله . وقال بعض الشعراء :

وإن لسان المرء مالم تكن له   حصاة على عوْراته لدليــل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن أخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدرّبا بها معتادا لها فلا يأتى بكلام مستكره اللفظ ولا مختلّ المعنى لأن البلاغة ليست على معان مفردة ولا لألفاظها غاية وإنما البلاغة أن تكون بالمعانى الصحيحة مستودعة فى ألفاظ فصيحة فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعانى هى البلاغة . وقد قيل لليونانىّ ما البلاغة قال : اختيار الكلام وتصحيح الأقسام وقيل ذلك للرومىّ فقال : حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندى فقال : معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربىّ فقال : ماحسن ايجازه وقل مجازه وقيل للبدوىّ فقال : مادون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل وقيل للحضرىّ فقال : ما كثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه . وقال ابن المقفع : البلاغة قلة الحصر والجراءة على البشر . وسأل الحجاج ابن القـرّية عن الايجاز قال : أن تقول فلا تبطئ وأن تصيب فلا تخطئ . وقال الشاعر :

خير الكلام قليل   على كثير دليــل

والعىّ معنى قصير   يحويه لفظ طويل

وفى الكلام فضول   وفيــه قال وقيــل

وأما صحة المعانى فتكون من ثلاثة أوجه : أحدها إيضاح تفسيرها حتى لاتكون مشكلة ولا مجملة . والثانى استيفاء تقسيمها حتى لايدخل فيها ما ليس منها ولايخرج منها ماهوفيها . والثالث صحة مقابلاتها والمقابلة تكون من وجهين : أحدهما مقابلة المعنى بمـا يوافقه وحقيقة هـذه المقاربة لأنّ المعانى تصير متشاكلة . والثانى مقابلته بمـا يضادّه وهو حقيقة المقابلة وليس للمقابلة الا احد هـذين الوجهين . الموافقـة فى الائتلاف والمضادّة مع الاختـــلاف . فأما فصاحة الألفاظ فتكون

ثلاثة أوجه : أحدها مجانبـــة الغـــريب الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع . والثانى تنكب اللفظ المستبذل والعـدول عن الكلام المسـترذل حتى لا يستسقطه خاصى ولا ينبو عن فهمه عامى كما قال الجاحظ فى كتاب البيان أما أنا فلم أر قوما أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب وذلك أنهم قد التمســوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشـيا ولا ساقطا عاميا . والثالث أن يكون بين الألفاظ ومعانيهـا مناسبة ومطابقة . أما المطابقة فهى أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليهـا ولا تنقص عنها . وقال بشر بن المعتمر فى وصيته فى البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مســتقرها ولا حالة فى مركزها بل وجدتها قلقــة فى مكانها نافرة عن موضـعها فلا تكرهها على القرار فى غير موضعها فانك ان لم تتعاط قريض الشـعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بتركه ذلك أحد واذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من أنت أقل عيبا منه وأزرى عليك من أنت فوقه . وأما المناسبة فهى أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ إما لعرف مستعمل أو لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت تلك المعانى بغـــير تلك الألفاظ كانت نافرة عنهـا وان كانت أفصح وأوضح لاعتياد ما سواها .

وقال بعض البلغاء : لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه أسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك . وأما معاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانمـا هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن فى كلامه مدخل فى الأدباء فضـــلا عن أن يكون فى عداد البلغاء

واعلم أن للكلام آدابا إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوى أدبه فعدلوا عن مناقبه

ذكر مثالبه . فمن آدابه أن لا يتجاوز فى مدح ولا يسرف فى ذم وان كانت النزاهة عن الذّم كرما والتجاوز فى المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف فى الذم انتقام يصدر عن شرّ وكلاهما شين وان سلم من الكذب . يروى أنه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس : والله يارسول الله لقد علم أنى خير مما وصف ولكن حسدنى فذمه عمرو وقال : والله يارسول الله لقد صدقت فى الأولى وما كذبت فى الأخرى لأنى رضيت فى الأولى فقلت أحسن ما علمت وسخطت فى الأخرى فقلت أقبح ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن من البيان لسحرا» على أن السلامة من الكذب فى المدح والذم متعذرة لاسيما اذا مدح تقرّبا وذم تحنقا . وحكى عن الأحنف بن قيس أنه قال : سهرت ليلتى أفكر فى كلمة أرضى بها سلطانى ولا أسخط بها ربى فما وجدتها . وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال : يرضيه بما يسخط الله عز وجل . وسمع ابن الرومى رجلا يصف رجلا ويبالغ فى مدحه فأنشأ يقول :

اذا ماوصفت امرأ لامرئ ... فلا تغل فى وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنو ... ن فيه الى الأمد الأبعد
فيضؤل من حيث عظمته ... لفضل المغيب على المشهد

ومن آدابه أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال فى وعد أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من أطلق بهما لسانه وأرسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا . وحكى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يانبيّ الله قال : انه يخطبها لنفسه ويقول لها زوّجينى نفسك أسكنك

أى غرف دمشق شئت قال سليمان : كذب العصفور فان غرف دمشق مبنية بالصخور لا يقدر أن يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب . ومن آدابه أنه ان قال قولا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدّقه بعمله فان إرسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولأَن يفعــل ما لم يقل أَجمل من أن يقول ما لم يفعل . وقال بعض الحكماء : أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام أى يكتفى بالفعل من القول . وقال محمود الورّاق :

القول ما صـــدّقه الفعل　　والفعل ما وكده العـقل
لايثبت القول اذا لم يكن　　يقله من تحته الأصـــل

ومن آدابه أن يراعى مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه فان كان ترغيبا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونة والعنف فانّ لين اللفظ فى الترهيب وخشونته فى الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للقصود بهـما فيصـير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا . وقد قال أبو الأسود الدؤلى لابنه : يا بنى ان كنت فى قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك . ومن آدابه أَن لا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن حركة تكون عيا فان نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة . وقد حكى أن الحجاج قال لأعرابى : أخطيب أنا قال نعم لولا أنك تكثر الرد وتشير باليد وتقول أما بعد . ومن آدابه ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون . وقد قال محمد بن على فى قوله تعالى : «واذا مرّوا باللغو مرّوا كراما» قال : كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما أنه يصون لسانه عن ذلك فهكذا يصون عنه سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغى الى فحش فان سماع الفحش داع الى إظهاره وذريعة الى إنكار واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان إعراضه أحد النكيرين

كما أن سماعه أحد الباعثين وأنشدنى أبو الحسن بن الحارث الهاشمى

تحرّ من الطرق أوساطها وعدّ عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ومما يجرى مجرى فحش القول وهجره فى وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وان كان عقب التأمل سليما وبعد الكشف والروية مستقيما كالذى رواه الأزدى عن الصولى لبعض المتكلفين من الشعراء :

إننى شيخ كبير كافر بالله سيرى
أنت ربى والهى رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أى لابس لأن الكفر التغطية ولذلك سمى الكافر بالله كافرا لأنه قد غطى نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيرى يقسم عليها أن تسير وقوله أنت ربى يعنى ربى ولدك من التربية والهى رازق الطفل الصغير كما أنه رازق الولد الكبير. فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق البشيع ما اعتاض من حيث البديهة اذا سلم بعد الفكر والروية الالؤما ان حسن فيه الظن أو ذما ان قوى فيه الارتياب وقلما يكون ذلك الا من خليع بطر ومرتاب اشر . فأما الحديث المروىّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا تصلوا على النبي فخارج من هذا النوع من التلبيس وفى تأويله وجهان : أحدهما أنه أراد النهى عن الصلاة فى المكان المرتفع المحدودب مأخوذ من النبوة . والثانى انه اراد الطريق ومنه سمى رسل الله أنبياء لأنهم الطرق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لأن موضوع خطابه وشواهد أحواله يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال فى أمر أونهى الى ما لايجوز أن يرد به شرع وينهى عنه

نبي وليس يمتنع ذلك في غيره ولذلك افترق وجوده منه ومن غيره .
ومن آدابه أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الأدباء فان لكل صنف من الناس أمثالا تشاكلهم . فلا تجد لساقط الامثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا وللسقاط أمثال فمنها تمثيلهم للشيء المريب كما قال الصنوبرى :

اذا ما كنت ذابول صحيح   ألا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان : إحداهما أن الأمثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذى الهمة الساقطة الامثل مرذول وتشبيه معلول . والثانية أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها فبحسب ماهم عليه تكون أمثالهم فلهاتين العلتين وقع الفرق بين أمثال الخاصة وأمثال العامة . وربما ألف المتخصص مثلا عاميا أوتشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الأراذل فيسترسل فى ضربه مثلا فيصير به مثلا كالذى حكى عن الأصمعى أن الرشيد سأله يوما عن أنساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت ياأمير المؤمنين فقال له الفضل بن الربيع : أسقط الله جنبيك أتخاطب أمير المؤمنين بمثل هذا الخطاب فكان الفضل بن الربيع مع قلة علمه أعلم بما يستعمل من الكلام فى محاورة الخلفاء من الأصمعى الذى هو واحد عصره وقريع دهره . وللأمثال من الكلام موقع فى الأسماع وتأثير فى القلوب لايكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لأن المعانى بها لائحة والشواهد بها واضحة والنفوس بها وامقة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة فلذلك ضرب الله الأمثال فى كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لأنها فى العقول معقولة وفى القلوب مقبولة ولها أربعة شروط : احدها صحة التشبيه . والثانى أن يكون العلم بها سابقا والكل عليها موافقا . والثالث أن يسرع وصولها للفهم ويعجل تصورها فى الوهم من غير ارتياء فى استخراجها

ولا كدّ فى استنباطها . والرابع أن تناسب حال السامع لتكون أبلغ تأثيرا وأحسن موقعا . فاذا اجتمعت فى الأمثال المضروبة هذه الشروط الأربعة كانت زينة للكلام وجلاء للمعانى وتدبرا للأفهام

(الفصــــل الثــانى فى الصبر والجزع) اعلم أن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصــبر على الملمات والرفق عنــد النوازل وبه نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى : «يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» يعنى اصبروا على ماافترض الله عليكم وصابروا عدوّكم . ورابطوا فيه تأويلان : أحدهما على الجهاد . والثانى على انتظار الصلوات . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألا أدلكم على ما يحبط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يارسول الله قال : إسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعدالصلاة فذلكم الرباط» فنزل الكتاب بتأكيد الصبر فيما أمر به وندب اليــه وجعله من عزائم التقوى فيما افترضــه وحث عليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب» وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الصبرمطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو . وقال عبد الحميد : لم اسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أفضل العدّة الصبر على الشدّة . وقال بعض البلغاء : من خير خلالك الصبر على اختلالك . وقيل فى منثور الحكم : من أحب البقاء فليعدّ للمصائب قلبا صبورا . وقال بعض الحكماء : بالصبرعلى مواقع الكره تدرك الحظوظ . وقال عبيدبن الأبرص :

صــبر النفس عند كل ملم إن فى الصــبر حيلة المحتال
لاتضيقن فى الأمور فقد تكــشف غماؤها بغــير احتيال

رب ماتجزع النفوس من الأمـــر له فرجـــة كحل العقال

وقال ابن المقفع فى كتاب اليتيمة : الصبر صبران فاللئام أصبر أجساما والكرام أصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوى الجسـد على الكدّ والعمل لأن هذا من صفات الحمير ولكن أن يكون للنفس غَلوبا وللأمور متحملا ولجأشه عند الحفاظ مرتبطا

واعلم أن الصبر على ستة أقسام وهو فى كل قسم منها محمود : فأول أقسامه وأولاها الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله عنـه لأنه به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدِّين وتؤدّى الفروض ويستحق الثواب كما قال فى محكم الكتاب : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد» وليس لمن قلّ صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح ومن لم يرلنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال . وقد قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : يامن يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه . وقال أبو العتاهية رحمه الله تعالى :

أراك امرأ ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يحب مقـــيم

تدل على التقوى وأنت مقصر فيا من يداوى الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدّة الخوف فان من خاف الله عز وجل صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره . والقسم الثانى الصبر على ماتقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها أو حادثة قد كدّه الهمّ بها فان الصبر عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة عنها فان صبر طائعا والا احتمل همًّا لازما وصبر كارها آثما . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يقول الله تعالى من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربا سواى» وقال على بن أبى

طالب كرم الله وجهه للأشعث بن قيس : انك ان صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور وان جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور. وقد ذكر ذلك أبو تمام فى شعره فقال :

وقال على فى التعازى لأشعث　　وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وخشية　　فتؤجر أو تسلو سلوّ البهائم

وقال شبيب بن شيبة للمهدى : إن أحق ما تصبر عليه ما لم تجد الى دفعه سبيلا وأنشد :

ولئن تصبك مصيبة فاصبر لها　　عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

وقال آخر

تصبرت مغلوبا وانى لموجع　　كما صبر الظمآن فى البلد القفر
وليس اصطبارى عنك صبرا استطاعة　　ولكنه صبر أمرّ من الصبر

والقسم الثالث الصبر على مافات إدراكه من رغبة مرجوّة وأعوز نيله من مسرة مأمولة فان الصبر عنها يعقب السلوّ منها والأسف بعد اليأس خرق. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون» . وقال بعض الحكماء : اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله . وقال بعض الشعراء :

اذا ملك القضاء عليك أمرا　　فليس يحله غير القضاء
فمالك والمقام بدار ذل　　ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء: ان كنت تجزع على مافات من يدك فاجزع على ما لا يصل اليك فأخذه بعض الشعراء فقال :

لا تطل الحزن على فائت　　فقلما يجدى عليك الحزن
سيان محزون على فائت　　ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها أو يحذر

حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان أكثر الهموم كاذبة وان الأغلب من الخوف مدفوع . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع باب يلج » . وقال الحسن البصرى رحمه الله : لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه . وانشد الجاحظ لحارثة بن زيد :

اذا الهم أمسى وهو داء فأمضه ولست بممضيه وأنت تعادله
ولا يُنْزِلن أمر الشديدة بامرئ اذا هم أمرا عوقته عواذله
وقل للفؤاد ان تجد بك نزوة من الروع فافرخ أكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة يأملها فانه ان أدهشه التوقع لها وأذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه عماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فأبصر رشده وعرف قصده . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الصبر ضياء» يعنى والله أعلم أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الأمور. وقال أكثم بن صيفى : من صبر ظفر . وقال ابن المقفع : كان مكتوبا فى قصر أردشير الصبر مفتاح الدرك . وقال بعض الحكماء : بحسن التأنى تسهل المطالب . وقال بعض البلغاء : من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعمى . وقال محمد بن بشير:

ان الأمور اذا سدت مطالبها * فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبة * اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته * ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه أو حل من أمر مخوف فبالصبر فى هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكايد الأعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه .

وقد قال الله تعالى : «وآصبر على ما اصابك إن ذلك من عزم الأمور» وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليــه وسلم أنه قال : «ان استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل وان لم تستطع فاصــبر فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر» وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبر مستأصل الحدثان والجزع من أعوان الزمان . وقال بعض الحكماء : بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور . وقال بعض البلغاء : عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج . وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن سليمان بن داود عليهما السلام لما استكدّ شياطينه فى البناء شــكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : ألستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال : ففى ذلك راحة فبلغ ذلك سليمان على نبينا وعليه السلام فشــغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله فقال : ألستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال : ففى هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشــغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : الآن جاءكم الفرج فما لبثوا أن أصيب سليمان عليه السلام ميتا على عصاه فاذا كان هــذا فى نبى من انبيــاء الله يعمل بأمره ويقف على حدّه فكيف بمــا جرت به الأقدار من يد عادية وساقه القضــاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهى الا منقرضة وعند بلوغ الغاية الا منحسرة . وأنشد بعض الأدباء لعثمان ابن عفان رضى الله عنه :

خليــلىّ لا والله ما من ملمة   تدوم على حىّ وإن هى جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها   ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
فكم من كريم قد بلى بنــوائب   فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة   تلقيتهــا بالصــبر حتى تجلت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة فقد كانت الدنيـا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصـائب وتخفيف الشـدائد أسـباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقعها وقل تأثيرها وضررها. فمنها استشعار النفس بمـا تعلمه من نزول الفناء وتقضي المسارّ وأن لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء. وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما مثلي ومثل الدنيا الا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها». وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال: تغرّ وتضرّ وتمرّ وسأل بعض خلفاء بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال: اذا أقبلت أدبرت وقال عمرو بن عبيد: الدنيا أمد والآخرة أبد. وقال أنوشروان: ان أحببت أن لا تغتم فلا تقتن ما به تهتم فأخذه بعض الشعراء فقال:

ألم تر أن الدهر من سوء فعله يكدّر ما أعطى ويسلب ما أسدى
فمن سرّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا

وأنشد بعض الحكماء

لحكيمنا بقـراط خير قضية ووصـية تنفي الهموم الركدا
قال الهموم تكون من طبع الورى في لبث ما في طبعه أن ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وأنشدني بعض أهل العلم لسعيد بن مسلم:

إنمـا الدنيا هبات وعوار مسـتردّه
شـدّة بعد رخاء ورخاء بعد شـدّه

ولمـا قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب: اذا لم يكن جدّ ففيم الكدّ وان لم يكن للأمر دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة وقال ابن الرومي:

رأيت حياة المـرء رهنا بموته   وصحتـه رهنا كذلك بالسـقم
اذا طاب لي عيش تنغص طيبه   بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله   فذلك في بؤس وان كان في نعم

ومنها أن يتصوّر انجلاء الشـدائد وانكشاف الهموم وأنها تتقدر بأوقات لا تنصرم قبلها ولا تسـتديم بعدها فلا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كان كل يوم يمرّ بها يذهب منها بشطر ويأخذ منها بنصيب. حتى تنجلي وهو عنها غافل. وحكى أن الرشيد حبس رجلا ثم سأل عنه بعد زمان فقال للموكل به : قل له كل يوم يمضى من نعيمك يمضى من بؤسى مثـله والأمر قريب والحكم لله تعـالى فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال :

لو أن ما أنتمو فيـه يدوم لكم   ظننت ما انا فيـه دائما أبدا
لكنني عالم أني وانـكم   سنستجدّ خلاف الحالتين غدا

وأنشد لبعض الشعراء :

عواقب مكروه الأمور خيار   وأيام ضرّ لا تدوم قصـار
وليس ببـاق بؤسها ونعيمها   اذا كرّ ليـل ثم كرّ نهـار

وأنشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة :

ألم تر أن ربك ليس تحصى   أياديه الحديثـة والقـديمه
تسلّ عن الهموم فليس شيء   يقوم ولا همومك بالمقيمـه
لعـل الله ينظر بعـد هـذا   اليـك بنظرة منـه رحيمه

ومنها ان يعلم أن فيما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو أعظم من رزيتـه وأشـدّ من حادثته ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن لله تعالى في أثناء كل محنة منحة» . وقيل للشعبي في نائبة كيف أصبحت قال : بين نعمتين خير منشور وشر مستور . وقال بعض الشعراء :

لا تكره المكروه عنـد حلوله إن العواقب لم تزل متباينـه
كم نعمة لا تستقل بشكرها لله فى طىّ المكاره كامنـه

ومنها أن يتأسى بذوى الغير ويتسلى بأولى العبر ويعلم أنهم الأكثرون عددا والأسرعون مددا فيستجدّ من سلوة الأسى وحسن العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: الصقوا بذوى الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثى الشعراء قال البحترى:

فلا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعادى من فصيح وأعجم
فحربة وحشى سقت حمزة الردى وموت علىّ من حسام ابن ملجم

وقال أبو نواس

المرء بين مصائب لا تنقضى حتى يوارى جسمه فى رمسه
فمؤجل يلقى الردى فى أهـله ومعجل يلقى الردى فى نفسه

ومنها أن يعلم أن النعم زائرة وأنها لا محالة زائلة وأن السرور بهـا اذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا أدبرت وأنها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن . وقد قيل فى منثور الحكم: المفروح به هو المحزون عليه . وقيل: من بلغ غاية مايحب فليتوقع غاية مايكره. وقال بعض الحكماء: من علم أن كل نائبة الى انقضاء حسن عزاؤه عند نزول البلاء. وقيل للحسن البصرى رحمه الله: كيف ترى الدنيا قال: شغلنى توقع بلائها عن الفرح برخائها فأخذه أبو العتاهية فقال:

تزيده الأيام ان أقبلت شـدّة خوف لتصاريفها
كأنها فى حال إسـعافها تسمعه وقعـة تخويفهـا

ومنها ان يعـلم أن سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصـل صاحبا بفراق صاحب فتكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته وقد

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما قرعت عصا على عصا الا فرح لها قوم وحزن آخرون » وقال البحترى :

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

وقال المتنبي

ذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وأنشد بعض أهل الأدب

ألا انما الدنيا غضارة أيكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها لشيء تفيده سيذهب يوما مثل ما أنت ذاهب
وما هذه الأيام الا فجائع وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها أن يعلم أن طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله وذلك لاحدى علتين إما لأن الكمال معوز والنقص لازم فاذا تواتر الفضل عليه صار النقص فيما سواه . وقد قيل : من زاد فى عقله نقص من رزقه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما انتقصت جارحة من إنسان الا كانت ذكاء فى عقله » وقال أبو العتاهية :

ما جاوز المرء من أطرافه طرفا الا تخونه النقصان من طرف

وأنشدنى بعض أهل الأدب لابراهيم بن هلال الكاتب :

اذا جمعت بين امرأين صناعة فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الأرزاق حين تفرّق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

وإما لأن ذا الفضل محسود وبالأذى مقصود فلا يسلم فى بره من معاد واشتطاط مناو . وقال الصنوبرى :

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد

جاهل وذلك لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لأجل التقدّم وقد قال الشاعر :

فلا غرو أن يمنى عليم بجاهل فمن ذنب التنين تكسف الشمس

ومنها مايعتاضه من الارتياض بنوائب عصره ويستفيده من الحنكة بلاء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بأدنى شدّته ورخائه ويتعظ بحالة عفوه وبلائه . حكى عن ثعلب قال : دخلت على عبيد الله بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه قال لى يا أبا العباس اسمع ما أقول :

نوائب الدهر أدّبتنى وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلوا وذقت مرّا كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم إلّا ولى فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالى تغذوه من درّها الخطوب

فقلت لمن هذه الأبيات قال لى ومنها أن يختبر أمور زمانه ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع فى استواء ولا يؤمل أن تبقى الدنيا على حالة أوتخلو من تقلب واستحالة فان من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها . وأنشد بعض الأدباء :

إنى رأيت عواقب الدنيا فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت فى الدنيا وعالمها فاذا جميع أمورها تفنى
وبلوت أكثر أهلها فاذا كل آمرئ فى شأنه يسعى
أسنى منازلها وأرفعها فى العز أقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها لا فرق بين النعى والبشرى
ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى
أتراك تدرى كم رأيت من الأ حياء ثم رأيتهم موتى

فاذا ظفر المصاب بأحد هذه الأسباب تخففت عنه أحزانه وتسهلت

عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع حسن العزاء . وقال بعض الحكماء : من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا . وقال بعض الشعراء :

ما يكون الأمر سهلا كله   إنما الدنيا سرور وحزون
هوّن الأمر تعش فى راحة   قلما هوّنت الا سيهون
تطلب الراحة فى دار العنا   ضلّ من يطلب شيئا لا يكون

فان أغفل نفسه عن دواعى السلوة ومنعها من أسباب الصبر تضاعف عليه من شدّة الأسى وهم الجزع ما لا يطيق عليه صبرا ولا يجد عنه سلوا . وقال ابن الرومى :

إن البلاء يطاق غير مضاعف   فاذا تضاعف صار غير مطاق

فاذا ساعده جزعه بالأسباب الباعثة عليه وامدّه هلعه بالذرائع الداعية اليه فقد سعى فى حتفه وأعان على تلفه . فمن أسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوّره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصوّر تعزية . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تستفزوا الدموع بالتذكر . وقال الشاعر :

ولا يبعث الأحزان مثل التذكر

ومنها الأسف وشدّة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزاد بالأسف ولها وبالحسرة هلعا . ولذلك قال الله تعالى : «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» . وقال بعض الشعراء :

اذا بليت فثق بالله وارض به   ان الذى يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته   ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه   لا تيأسنّ فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل فى قوله تعالى : «فاصبر صبرا جميلا» انه الصبر الذى لا شكوى فيه ولا بث . روى أنس بن مالك

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما صبر من بث » . وحكى كعب الأحبار أنه مكتوب فى التوراة من أصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه . وحكى أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت صراخا فى دار فقالت ما هذا فقيل لها : مات لهم إنسان فقالت : ما أراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون . وقد قيل فى منثور الحكم : من ضاق قلبه آتسع لسانه . وأنشد بعض أهل العلم :

لا تكثر الشكوى الى الصديق وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعراء :

لا تشك دهرك ما صححت به إن الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع القسم

ومنها اليأس من جبر مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر . وقد قيل : المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين . وقال ابن الرومى :

إصبرى أيتها النفس فان الصبر أحجى
ربما خاب رجاء وأتى ما ليس يرجى

وأنشدنى بعض أهل العلم :

أتحسب أن البؤس للحر دائم ولو دام شىء عده الناس فى العجب
لقد عرفتك الحادثات ببؤسها وقد أدبت ان كان ينفعك الأدب
ولو طلب الانسان من صرف دهره دوام الذى يخشى لأعياه ما طلب

ومنها أن يغرى بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى آلتحف بالأمن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويا وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلزم شكرا على نعمى ولو قابل بهذه النظرة

ملاحظة من شاركه فى الرزية وساواه فى الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج . وأنشدت لامرأة من العرب :

أيها الانسان صبرا　　إن بعد العسر يسرا
كم رأينا اليوم حرّا　　لم يكن بالأمس حرّا
ملك الصبر فأضحى　　مالكا خيرا وشرّا
إشرب الصبر وان كا　　ن من الصبر امرّا

وانشدت لبعض أهل الأدب :

يراع الفتى للخطب تبدو صدوره　　فيأسى وفى عقباه يأتى سروره
ألم تر أن الليل لما تراكمت　　دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبنّ اليأس ان كنت عانا　　لبيبا فان الدهر شتى أموره

واعلم أنه قل من صبر على حادثة وتماسك فى نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج منه قريبا . أخبرنى بعض أهل الأدب أن أبا أيوب الكاتب حبس فى السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض إخوانه يشكو له طول حبسه فردّ عليه جواب رقعته بهذا :

صبرا أبا أيوب صبر مبرح　　فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذى عقد الذى انعقدت له　　عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة　　ولعلها ان تنجلى ولعلها

فأجابه أبو أيوب يقول :

صبرتنى ووعظتنى وأنا لها　　وستنجلى بل لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها　　كرما به اذ كان يملك حلها

فلم يلبث بعد ذلك فى السجن الا أياما حتى أطلق مكرما . وأنشد ابن دريد عن أبى حاتم :

اذا اشتملت على اليأس القلوب　　وضاق لما به الصدر الرحيب

وأوطنت المكاره واطمأنت وأرست فى مكانتها الخطوب
ولم ير لانكشاف الضرّ وجها ولا أغنى بحيلتــه الأريب
أتاك على قنوط منــك غوث يمنّ به اللطيف المستجيب
وكل الحــادثات اذا تنــاهت فموصول بهــا الفرج القريب

(الفصــل الثــالث فى المشورة) اعلم أن من الحزم لكل ذى لُبّ أن لا يبرمَ أمراً ولا يُمْضِىَ عزْماً الا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراجح فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفّلَ به من إرشاده ووَعَدَ به من تأييده فقال تعالى : «وشاورهم فى الأمر » .

قالَ قَتادَة : أمَرَهُ بمشاوَرتِهم تألُّفاً لهم وتطييبا لأنْفُسِهِم . وقالَ الضَحّاك أمَرَهُ بمشاوَرَتِهم لِمَا عَلِمَ فيها من الفَضْل . وقال الحَسَن البَصْرِىّ رَحِمَهُ الله تعالى : أمَرَهُ بمشاوَرَتِهِم ليَسْتَنَّ به المسلمون ويتّبعه فيها المؤمنون وان كان عن مشورتهم غنيا . ورُوِىَ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المَشْوَرَة حِصْنٌ من الندامة وأمانٌ من الملامة» . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نِعْمَ المُوَازَرَةُ المُشاوَرَة وبِئْسَ الاسْتِعْدَاد الاستِبْدَاد . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرِّجال ثلاثة : رجلٌ تَرِدُ عليه الأمور فيُسَدِّدُهَا برأيه . ورجلٌ يشاوِرُ فيما أشْكَلَ عليه وينزلُ حيثُ يأمُرُهُ أهل الرأى . ورجل حائر بأمره لا يأتمر رشدا ولا يطيع مرشدا . وقال عُمَرُ بن عبد العزيز : إنّ المشوَرَةَ والمُنَاظَرَةَ بَابَا رحمة ومِفْتَاحَا بركة لا يَضِلُّ مَعَهُمَا رَأْى ولا يُفْقَدُ مَعَهُمَا حزم . وقال سَيْفُ بن ذِى يَزَن : من أُعْجِبَ برأيه لم يُشَاوِرْ ومن استَبَدَّ برأيه كان من الصواب بعيدا . وقالَ عبد الحميد : المُشَاوِرُ فى رأيه نَاظِرٌ من ورائه . وقيلَ فى مَنْثُورِ الحكم : المُشَاوَرَة راحَةٌ لَكَ وتَعَبٌ على غيرك . وقال بعض الحكماء : الاسْتِشَارَة عَيْنُ الهِدَاية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال بعض الأدباء : ما خابَ من استخار ولا

ندم من استشار . وقال بعض البلغاء: من حقِّ العاقل أن يَضيفَ الى رأيه آراءَ العقلاء ويجمعَ الى عقله عقولَ الحكماء فالرأى الفَذّ ربما زَلَّ والعقل الفرد ربما ضل . وقال بشار بن بُرْد :

إذا بلغَ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً ... فانّ الخوافى قوّة للقوادم

فاذا عزَمَ على المشاورة ارتادَ لها من أهلها من قد استكملت فيه خمس خصال : إحداهنّ عقلٌ كاملٌ مع تجربةٍ سالفة فانه بكثرة التجارب تصح الروية . وقد روى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » . وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد: احذر مشورةَ الجاهل وان كانَ ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوّا فانه يوشك أن يورّطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل . وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم قال: نحن ألفُ رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا ألفَ حازم . وكان يقال: إياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليلَ التجارب فى غيره أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه . وقيل فى منثور الحكم: كلُّ شىء يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب ولذلك قيل: الأيامُ تهتك لك عن الأستار الكامنة . وقال بعض الحكماء: التجارب ليست لها غاية والعاقل منها فى زيادة . وقال بعض الحكماء : من استعانَ بذوى العقول فازَ بدرك المأمول . وقال أبو الأسود الدؤلى :

وما كل ذى لب بمؤتيك نصحه ... ولا كل مؤت نصحه بلبيب

ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب ... فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية — أن يكونَ ذا دينٍ وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلبَ عليه الدين فهو مأمون السريرة موفق

العزيمة . رَوى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أراد أمرا فشاور فيه آمرأ مسلما وفقه الله لأرشد أموره» . والخصلة الثالثة — أن يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودّة يصدقان الفكرة ويمحضان الرأى . وقد قال بعض الحكماء: لاتشاور الا الحازمَ غيرَ الحسود واللبيبَ غيرَ الحقود وإياكَ ومشاورة النساء فان رأيهن الى الأفن وعزمهن الى الوهن . وقال بعض الأدباء: مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر . وقال بعض الشعراء :

أصفِ ضميرًا لمن تعاشره   واسكن الى ناصح تشاوره
وآرضَ من المرء فى مودّته   بما يؤدّى اليك ظاهره
من يكشف الناسَ لايجد أحدا   تصح منهم له سرائره
أوْشكَ أن لايدوم وصل أخ   فى كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة — أن يكونَ سليمَ الفكرِ من همّ قاطع وغمّ شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لايسلم له رأى ولا يستقيم له خاطر . وقد قيل فى منثور الحكم : كل شيء يحتاج الى العقل والعقل يحتاج الى التجارب . وكان كسرى اذا دهمه أمر بعث الى مَرازِبَته فاستشارهم فان قصروا فى الرأى ضرب قهارمته وقال: أبطأتم بأرزاقهم فأخطئوا فى آرائهم . وقال صالح بن عبد القدوس :

ولا مشيرَ كذى نصح ومقدرة   فى مشكل الأمر فاخترذاك منتصحا

والخصلة الخامسة — أن لا يكون له فى الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الأغراضَ جاذبة والهوى صادّ والرأى اذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد . وقد قال الفضل بن العباس ابن عتبة بن أبى لهب :

وقد يحكم الأيامَ من كان جاهلا   ويُردى الهوى ذا الرأى وهو لبيب
ويحمدُ فى الأمر الفتى وهو مخطئ   ويعذلُ فى الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمسُ فى رجل كان أهلا للمشورة ومعدنا للرأى فلا تعدل عن استشارته اعتمادًا على ما تتوهمه من فضــل رأيك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان رأى غير ذى الحاجة أسلم وهو من الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلوّ الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «رأس العقل بعد الايمــان بالله التودّد إلى الناس وما استغنى مستبدّ برأيه وما هلك أحدٌ عن مشورةٍ فاذا أراد الله بعبد هلكةً كان أوّل ما يهلكه رأيه» . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنــه : الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه . وقال لقمان الحكيم لابنه : شــاور من جرّب الأمور فانه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجــانا . وقال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأى . وقال بعض الأدباء: من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زلّ . وقال بعض البلغاء : الخطأمع الاسترشاد أحمد من الصواب مع الاستبداد . وقال الشاعر :

خليلىّ ليس الرأى فى صدر واحد أشيرا علىّ بالذى تريان

ولا ينبغى أن يتصوّر فى نفســه أنه ان شاور فى أمره ظهر للناس ضــعف رأيه وفساد رويته حتى افتقر الى رأى غيره فان هذه معــاذير النوكى وليس يراد الرأى للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتيجته والتحرّز عن الخطأ عند زلله وكيف يكون عارا ما أدّى الى صواب وصــدّ عن خطأ . وقدروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة» . وقال بعض الحكماء : من كمال عقلك استظهارك على عقلك . وقال بعض البلغاء : اذا أشكلت عليك الأمور وتغــير لك الجمهور فارجع الى رأى العقــلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد

فلأن تسأل وتسلم خير لك من أن تستبدّ وتندم. وينبغى أن تكثر من استشارة ذوى الألباب لاسيما فى الأمر الجليل فقلّما يَضِل عن الجماعة رأى ويذهب عنهم صواب لأن إرسال الخواطر الثاقبة و إجالة الأفكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل فى منثور الحكم: من أكثر المشورة لم يَعدم عند الصواب مادحا وعند الخطإ عاذرا وان كان الخطأ من الجماعة بعيدًا. فاذا استشار الجماعة فقد اختلف أهل الرأى فى اجتماعهم عليه وانفراد كل واحد منهم به فمذهب الفرس أن الأَوْلَى اجتماعهم على الارتياء و إجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره وأنتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض أو توجه عليه ردّ نوقض كالجدل الذى تكون فيه المناظرة وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لايبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل إلا ظهر ولا زلل الا بان. وذهب غيرهم من أصناف الأمم الى أن الأولى استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره فى الرأى طمعا فى الحظوة بالصواب فان القرائح اذا انفردت استكدّها الفكر واستفرغها الاجتهاد واذا اجتمعت فوّضت وكان الأوّل من بدائهها متبوعا. ولكل واحد من المذهبين وجه ووجه الثانى أظهر. والذى أراه فى الأَوْلى غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر فى الشورى فان كانت فى حال واحدة هل هى صواب أم خطأ كان اجتماعهم عليها أولى لأن ما تردّد بين امرين فالمراد منه الاعتراض على فساده أو ظهور الحجة فى صلاحه وهذا مع الاجتماع أبلغ وعند المناظرة أوضح. وان كانت الشورى فى خطب قد استبهم صوابه واستعجم جوابه من أمور خافية وأحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب يكشف عن خطئه وصوابه فالأولى فى مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد فى الجواب ثم يقع الكشف عنه أخطأ هو أم صواب فيكون

الاجتهاد فى الجواب منفردا والكشف عن الصواب مجتمعا لأن الانفراد فى الاجتهاد أوضح والاجتماع على المناظرة أبلغ فهكذا هـذا وينبغى أن يسلم أهل الشورى من حسد أو تنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم فى الارتياء والاجتهاد فاذا تصفح أقاويل جميعهم كشف عن أصولها وأسبابها و بحث عن نتائجها وعواقبها حتى لا يكون فى الأمر مقلدا ولا فى الرأى مفوّضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال: إحداهنّ معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رأيه والثالثة وضوح ما استعجم من الرأى وافتتاح ما أغلق من الصواب فاذا تقرّر له الرأى أمضاه ولا يؤاخذهم بعواقب الاكداء فيه فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لاسيما والمقادير غالبة ومتى عرف منه تعقب المشير وكل الى رأيه وأسلم الى نفسه فصار فردا لايعان برأى ولا يمدّ بمشورة. وقد قالت الفرس فى حكمها: أضعف الحيلة خير من أقوى الشدّة وأقل التأنى خير من أكثر العجلة والدولة رسول القضاء المبرم واذا استبدّ الملك برأيه عميت عليه المراشد. واذا ظفر برأى من خامل لا يراه للرأى أهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا فان الرأى كالضالة تؤخذ أين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبه فيطرح فان الدرّة لا يضعها مهانة غائصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الرأى لمكان المشير به فيراعى قدره وانما يراد لانتفاع المستشير وأنشد أبو العيناء عن الأصمعى :

النصح أرخص ماباع الرجال فلا   تردد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصائح لاتخفى مناهجها   على الرجال ذوى الألباب والفهم

ثم لاوجه لمن تقرر له رأى أن ينى فى إمضائه فان الزمان غادر والفرص

منتهزة والثقة عجز . وقيل لملك زال عنه ملكه : ما الذى سلبك ملكك قال : تأخيرى عمل اليوم لغد . وقال الشاعر :

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   ولا تك بالترداد للرأى مفسدا
فانى رأيت الريث فى العزم هجنة   وإنفاذ ذى الرأى العزيمة أرشدا

وينبغى لمن أنزل منزلة المستشار وأحل محل الناصح الموادّ حتى صار مأمول النجح مرجو الصواب أن يؤدى حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافئ على الاستسلام ببذل النصح . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه أن ينصحه » وربما أبطرته المشاورة فأعجب برأيه فاحذره فى المشاورة فليس للمعجب رأى صحيح ولا روية سليمة وربما شح فى الرأى لعداوة أو حسد أو مكر فاحذر العدو ولاتثق بحسود ولاعذر لمن استشاره عدو أو صديق أن يكتم رأيا وقد استرشد ولا أن يخون وقد اؤتمن . روى محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «المستشير معان والمستشار مؤتمن» . وقال سليمان بن دريد :

وأجب أخاك اذا استشارك ناصحا   وعلى أخيك نصيحة لا ترد

ولا ينبغى أن يشير قبل أن يستشار الافيما مس ولا أن يتبرع بالرأى الا فيما لزم فانه لاينفك من أن يكون رأيا متهما أو مطرحا وفى أىّ هذين كان وصمة وانما يكون الرأى مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب أو كان لباعث وسبب . روى ابو بلال العجلى عن حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «قال لقمان لابنه يا بنىّ اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فأعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر» . وقال بيهس الكلابى :

من الناس من إن يستشرك فتجتهد   له الرأى يستغششك مالاَ تُبَايِعُهْ
فلا تمنحنّ الرأى من ليس أهله   فلا أنت محمود ولا الرأى نافعه

(الفصل الرابع فى كتمان السرّ) اعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لأحوال الصلاح . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذى نعمة محسود» وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : سرك أسيرك فان تكلمت به صرت أسيره . وقال بعض الحكماء لابنه : يابنىّ كن جوادا بالمال فى موضع الحق ضنينا بالأسرار عن جميع الخلق فان أحمد جود المرء الانفاق فى وجه البر والبخل بمكتوم السر . وقال بعض الأدباء : من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه . وقال بعض البلغاء : ماأسرّك ما كتمتَ سِرّك . وقال بعض الفصحاء : ما لم تغيبه الأضالع فهو مكشوف ضائع . وقال أنس بن أسيد :

ولا تفش سرّك الاّ اليك فان لكل نصيح نصيحا
فانى رأيت وشاة الرجا ل لا يتركون أديما صحيحا

وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمنا وفى عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا . وقال أنوشروان : من حصن سره فله بتحصينه خَصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات و إظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه لأنه يبوء باحدى وصمتين الخيانة ان كان مؤتمنا أو النميمة ان كان مستودعا فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفى الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلاث أحوال مذمومة : إحداها ضيق الصدر وقلة الصبر حتى انه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر . وقال الشاعر :

اذا المرءُ أفشىَ سره بلسانه ولامَ عليه غيرَه فهو أحمق
اذا ضاق صدرُ المرء عن سرنفسه فصدرالذى يستودع السرُ أضيق

والثانية — الغَفْلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الأذكياء .

وقد قال بعض الحكماء: انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون.

والثالثة — ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر. وقد قال بعض الحكماء: سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد اراقته * واعلم أن من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أمينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحرّ فى اختيار من يأتمنه عليه و يستودعه إياه فليس كل من كان على الأموال أمينا كان على الأسرار مؤتمنا والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار لأن الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظا له وضنا به ولا يرى ما أضاع من سره كبيرا فى جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشدّ تعذرا وأقل وجودا من أمناء الأموال وكان حفظ المال أيسر من كتم الأسرار لأن أحراز الأموال منيعة وأحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق. وقال عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه: القلوب أوعية الاسرار والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره. ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صادّ ودين حاجز ونصح مبذول وودّ موفور وكتوما بالطبع فان هذه الأمور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب. وقيل فى منثور الحكم: قلوب العقلاء حصون الأسرار. وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع اليه و يؤثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خائن. وقال صالح بن عبد القدوس:

لا تذع سرا الى طالبه منك فالطالب للسر مذيع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب الاذاعة وطريق الى الاشاعة لأمرين: أحدهما أن اجتماع هذه الشروط فى العدد الكثير معوز ولا بدّ اذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضها. والثانى

ان كل واحد منهم يجد سبيلا الى نفى الاذاعة عن نفسه و إحالة ذلك على غيره فلا يضاف اليه ذنب ولايتوجه عليه عَتَب . وقد قال بعض الحكماء: كلما كثرت خزّان الأسرار ازدادت ضَياعا . وقال بعض الشعراء :

وسرك ما كان عند امرئ   وسر الثلاثة غير الخفى

وقال آخر : فلا تنطق بسرك كل سر   اذا ماجاوز الاثنين فاشى

ثم لو سلم من إذاعتهم لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما ان لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشدّ من ذلّ الرق وخضوع التعبد . ولذلك قال بعض الحكماء: من أفشى سره كثر عليه المتأمرون فاذا اختار(وأرجوأن يوفق للاختيار) اضطر الى استيداع سره (وليته كفى الاضطرار) وجب على المستودع له أداء الامانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له فى خلد ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل إدلال اللئام . وحكى أن رجلا أسر الى صديق له حديثا ثم قال أفهمت قال : بل جَهِلت قال أحفظت قال : بل نسيت . وقيل لرجل : كيف كتمانك للسر قال : أجحدُ المخبر وأحلف للمستخبر . وقال بعض الشعراء :

ولو قدَرتُ على نسيان ما اشتملت   منى الضلوع على الأسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره   اذ كنت من نشرها يوما على خطر

(١) وحكى أن عبدالله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال ابنه :

---

(١) لايخفى مافى هذه الأبيات من الاضطراب وعدم التماسك . والرواية الصحيحة ما ذكره الصفدى فى شرح لامية العجم نقلا عن صاحب هذا الكتاب قال مانصه . وحكى الماوردى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظ السر فقال

ومستودعى سرا تضمنت سره   فأودعته من مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه وهو صبى

وما السر فى قلبى كثاو بحفرة   لأنى أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكننى أخفيه عنى كأننى   من الدهر يوما ماأحطت به خبرا

كتبه أحمد ابراهيم

ومستودعى سرا تضمنت سره فأودعته من مستقر الحشا قبرا
ولكننى أخفيه عنى كأننى من الدهر يوما ما أحطت به خبرا
وما السر فى قلبى كميت بحفرة لأنى أرى المدفون ينتظر النشرا

(الفصل الخامس فى المزاح والضحك) اعلم أن للمزاح ازاحة عن الحقوق ومخرجا الى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذى الممازح فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرئ عليه الغوغاء والسفهاء وأما أذية الممازح فلأنه معقوق بقول كريه وفعل ممض ان أمسك عنه أحزن قلبه وان قابل عليه جانب أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى» . وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة . وقال بعض الحكماء : انما المزاح سباب الا أن صاحبه يضحك وقيل : انما سمى المزاح مزاحا لأنه يزيح عن الحق . وقال ابراهيم النخعى : المزاح من سخف أو بطر . وقيل فى منثور الحكم : المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب . وقال بعض الحكماء : من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته . وقال بعض البلغاء : من قل عقله كثر هزله . وذكر خالد بن صفوان المزاح فقال : يصك أحدكم صاحبه بأشد من الجندل وينشقه أحرف من الخردل ويفرغ عليه أحر من المرجل ثم يقول انما كنت أمازحك . وقال بعض الحكماء : خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه النيسابورى فى قصيدته الجامعة للآداب فقال وزاد :

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح من الفتى تدعو الى التلاحى
ان المزاح بدؤه حلاوه لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجل الشريف ويجترى بسخفه السخيف

وقال أبو نواس

خــل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
انما السالم من ألــ ـجم فاه بلجــام
ربمــا استفتح بالمز ح مغــاليق الحمــام
والمنــايا آكلات شــاربات للأنام

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى حالتين لا ثالثة لها : احداهما ايناس المصاحبين والتودّد الى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسـط من مستحسن الفعل . وقد قال سـعيد بن العاص لابنــه : اقتصد فى مزاحك فان الافراط فيه يذهب البهاء ويجرئ عليك السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين . والحالة الثانية أن ينفى بالمزاح ماطرأ عليه من سأم وأحدث به من هم فقد قيل : لابد للصدور أن ينفث .
وأنشدت لأبى الفتح البستى :

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشىء من المزح
ولكن اذا اعطيته المزح فليكن بمقدار مايعطى الطعام من الملح

وقد كان النبى صــلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا» فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ما روى أن عجوزا من الأنصار أتته فقالت يارسول الله أدع لى بالمغفرة فقال : اما علمت أن الجنة لايدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا اترابا» وأتته اخرى فى حاجة لزوجها فقال لها : ومن زوجك فقالت : فلان فقال لها : الذى فى عينه بيــاض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلى الى زوجها

وجعلت تتأمل عينيه فقال لها : ما شأنك فقالت : أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فى عينيك بياضا فقال : أما ترين بياض عينىَّ أكثر من سوادهما . وسئل الشعبي عن أكل لحم الشيطان فقال : نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له : ما اسم امرأة ابليس لعنه الله فقال : ذلك نكاح ماشهدناه وقال رجل لغلام : بكم تعمل معى قال : بطعامى فقال له : أحسن قليلا قال : فأصوم الاثنين والخميس . وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه مسترسلا فى مزاحه . وروى ابن قتيبة فى المعارف أن مروان ربما كان يستخلفه على المدينة فيركب حمارا قد شدّ عليه برذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول : الطريق قد جاء الأمير وربما أتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فينفرون وهذا خروج عن القدر المستسمح به ويوشك أن يكون لهذا الفعل منه تأويل سائغ . وقد كان صهيب بن سنان مزاحا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أتأكل تمرا وبك رمد فقال يارسول الله إنما أمضغ على الناحية الأخرى وانما استجاز صهيب أن يعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزح فى جوابه لأن استخباره صلى الله عليه وسلم قد كان يتضمن المزح فأجابه عن استخباره بما يوافقه مساعدة لغرضه وتقربا من قلبه والا فليس لأحد أن يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم مزحا لأن المزح هزل ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم المبين عن الله عز وجل أحكامه المؤدى الى خلقه أوامره هزلا ومزحا فقد عصى الله ورسوله وصهيب كان أطوع لله سبحانه وتعالى من ان يكون بهذه المنزلة فقد قال صلى الله عليه وسلم : «أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش» وليحذر أن يسترسل فى ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى إعلان المساوى هزلا وهو مجدّ ويفسح له فى التشفى مزحا وهو محق . وقد قال بعض الحكماء : اذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك .

وأَما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر فى الأمور المهمة مذهل عن الفكر فى النوائب الملمة وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار . روى أبو إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه» . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : «مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها» أن الصغيرة الضحك . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من كثر ضحكه قلت هيبته وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : اذا ضحك العالم ضحكة مج من العلم مجة . وقيل فى منثور الحكم : ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول فى الضحك كالقول فى المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه وأوحش منه وان ألفه كانت حاله ما وصفناه فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : التبسم دعابة وهذا أبلغ فى الايناس من الضحك الذى قد يكون استهزاء وتعجبا وليس ينكر منه المرة النادرة لطارئ استغفل النفس عن دفعه . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه

(الفصل السادس فى الطيرة والفأل) اعلم أنه ليس شىء أضرّ بالرأى ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيب غراب يردّ قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لاعدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» . فالعدوى ما يظنه الناس من تعدّى العلل والأمراض فأخبر أنها لاتعدى فقيل يارسول الله انا نرى النقبة من الجرب فى مشفر البعير فتتعدّى الى جميعه فقال صلى الله عليه وسلم : فما أعدى الأول . وأما الهامة فهو ما كانت العرب فى الجاهلية تعتقده من أن القتيل اذا طلّ دمه فلم

يدرك بثأره صاحت هامته فى القبر اسقونى . قال الزبرقان بن زيد يعنيها :

يا عمــرو إلا تَدَعْ شتمى ومنقصتى (١) أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وقال إبراهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وأقبرا يصيح صداها بالعشىّ وهامها

تفــانوا ولم يبقوا وكل قبيــلة سريع الى ورد الفنــاء كرامها

واما الصفر فهو كالحية يكون فى الجوف يصيب المــاشية والنــاس وهو أعدى عندهم من الجرب وفيه يقول الشاعر :

لا يمسك الساق من أين ولا وصب ولا يعض على شرسوفه الصفر

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا» وقال الشاعر :

طيرة الناس لا تردّ قضــاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم

أىّ يوم تخصــه بسعود والمنــايا ينزلن فى كل يوم

ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس تجرى لقوم وقوم

وقد كانت الفرس أكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا أرادت سفرا انفرت أوّل طائر تلقــاه فان طار يمنة ســارت وتيمنت واذا طار يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : «أقرّوا الطير على وكناتها» . وحكى عكرمة قال : كنا جلوسا عند ابن عباس رضى الله عنهما فمرّ طائر يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس : لا خير ولا شر . وقال لبيد :

لعمرك ماتدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرت الطــير ما الله صــانع

واعلم أنه قلمــا يخلو من الطيرة أحد لاسيمــا من عارضته المقــادير

(١) هذا البيت من قصيدة نسبها صاحب الأمالى فى صفحة ٢٥٩ من الجزء الأوّل لذى الإصبع العَدْوانىّ .

فى ارادته وصدّه القضاء عن طلبته فهو يرجو واليأس عليه أغلب ويأمل والخوف اليه أقرب فاذا عاقه القضاء وخانه الرجاء جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضاء الله عز وجل ومشيئته فاذا تطير أحجم عن الاقدام ويئس من الظفر وظن أن القياس فيه مطرد وأن العسرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعى ولا يتم له قصد. فأما من ساعدته المقادير ووافقه القضاء فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصدّه خوف ولا يكفه خور ولا يئوب الاظافرا ولا يعود الامنجحا لأن الغنم بالاقدام والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من أمارات الاقبال فينبغى لمن منى بها وبلى أن يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعى الخيبة وذرائع الحرمان ولايجعل للشيطان سلطانا فى نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم أن قضاء الله تعالى عليه غالب وأن رزقه له طالب وأن الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا. ويمض فى عزائمه واثقا بالله تعالى ان أعطى وراضيا به ان منع . فقد روى أبوهريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن فى الانسان ثلاثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة أن لا يرجع ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الحسد أن لايبغى» . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كفارة الطيرة التوكل على الله تعالى». وقيل فى منثور الحكم: الخير فى ترك الطيرة وليقل ان عارضه فى الطيرة ريب أو خامره فيها وهم ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تطير فليقل اللهم لا يأتى بالخيرات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله» . وقد روى أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: انا نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثرت فيها أموالنا ثم تحوّلنا عنها الى أخرى فقلت فيها أموالنا وقل فيها

عددنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذروها فهى ذميمة . وليس هذا القول منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك مااستوحش منه الى ما أنس به . وأما الفأل ففيه تقوية للعزم و باعث على الجدّ ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته وحروبه . وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فأعجبته فقال : أخذنا فألك من فيك . فينبغى لمن تفاءل أن يتأوّل الفأل بأحسن تأويلاته ولا يجعل لسوء الظن على نفسه سبيلا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن البلاء موكل بالمنطق» روى أن يوسف عليه السلام شكا الى الله تعالى طول الحبس فأوحى الله تعالى اليه يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت : رب السجن أحب الىّ ولو قلت العافية أحب الىّ لعوفيت . وحكى أن المُؤَمَّل بن أمَيْل الشاعر لما قال يوم الحيرة :

شَفَّ المُؤَمَّل يوم الحيرة النظر ... ليت المؤمّل لم يخلق له بصر

عمى فأتاه آت فى منامه فقال له : هذا ما طلبت . وحكى أن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله تعالى : «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد» فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

اذا ماجئت ربك يوم حشر ... فقل يارب مزقنى الوليد

فلم يلبث الا أياما حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من البغى ومصارعه والشيطان ومصايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

(الفصل السابع فى المروءة) اعلم أن من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروءة التى هى حلية النفوس و زينة الهمم فالمروءة مراعاة الأحوال التى تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم

باستحقاق . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من عامل الناس فلم يظلمهم وحدّثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته» . وقال بعض البلغاء : من شرائط المروءة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف فى الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويا على ضعيف ولا يؤثر دَنِيّا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم . وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال : العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأجمل

ولن تجد الأخلاق على ماوصفنا من حد المروءة منطبعة ولا عن المراعاة مستغنية وانما المراعاة هى المروءة لا ما انطبعت عليه من فضائل الأخلاق لأن غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من خلائقها والأجمل من طرائقها وان سلمت منها وبعيد أن تسلم الا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا . وقال الشاعر :

من لك بالمحض وليس محض   يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكمل الفضل طبعا وفى المعوز أن يكون مستكملا لكان فى المستحسن من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها هى المروءة واذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل : سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام الطائى :

والحمد شهد لا يرى مشتاره   يجنيه الّا من نقيع الحنظل
غُلّ لحامله ويحسبه الذى   لم يُوه عاتقه خفيفَ المَحْمَل

وقد لحظ المتنبي ذلك فى قوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والاقدام قتال

وله أيضا

واذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

والداعى الى استسهال ذلك شيئان: أحدهما علو الهمة والثانى شرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع الى التخصيص أنفة من خمول الضعة واستنكارًا لمهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب معالىَ الأمور وأشرافها و يكره دنيّها وسَفسافها» . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لا تصغرن هممكم فانى لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم . وقال بعض الحكماء : الهمة راية الجد . وقال بعض البلغاء : علو الهمم بذر النعم . وقال بعض العلماء : اذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة . وقال بعض العلماء : من ترك التماس المعالى بسوء الرجاء لم ينل جسيما . وأما شرف النفس فانه به يكون قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهى به عارفة ونفرت عن التأديب وهى له مستحسنة لأنها عليه غير مطبوعة وله غير ملائمة فتصير منه أنفر ولضدّه الملائم آثر . وقد قيل : ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه واذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفى الفضائل راغبة فاذا مازجها صارت طبعا ملائما فنما واستقرّ فأما من منى بعلوّ الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة لأمر أعوزته آلته وأفسدته جهالته فصار كضرير يروم تعلم الكتابة وأخرس يريد الخطبة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا عَوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «ماهلك امرؤ عرف قدره» . وقيل لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالا قال : من بعدت همته واتسعت أمنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته . وقال أفنون التغلبي :

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه وتقواله للشىء ياليت ذاليا
لعمرك مايدرى آمرؤ كيف يتقى اذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء: تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها نعمة الله عليكم . وقيل فى منثور الحكم: المنى من بضائع النوكى فان صادف بهمته حظا نال به أملا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب اذ ليس فى الحظوظ تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وانما هى كالسحاب الذى يمسك عن منابت الأشجار الى مغاوص البحار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فان صادف أرضا طيبة نفع وان صادف أرضا خبيثة ضر كذلك ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة عامّة وان صادف نفسا دنية ضر وكان نقمة طامّة . وحكى أن موسى بن عمران عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فأوحى اليه قد ملّكتُ أسفلها على أعلاها فقال: يارب كنت أحب لهم عذابا عاجلا فأوحى الله تعالى اليه أليس هذا كل العذاب العاجل الأليم . فأما شرف النفس اذا تجرد عن علوّ الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة فى الجَلْد الكَسِل والجبان الفَشِل تضيع قوته بكَسَله وجَلَدُه بفَشَله وقد قيل فى منثور الحكم: من دام كسله خاب أمله وقال بعض الشعراء:

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانًا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وان ضاق مسكن عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلة يعدّ مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة أولى من علوّ الهمة مع دناءة النفس لأن من علت همته مع دناءة نفسه كان متعدّيا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى آلتماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحق ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الأمرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب . وقد قيل لبعض

الحكماء ما اصعب شيء على الانسان قال : ان يعرف نفسه و يكتم الأسرار فاذا اجتمع الأمران واقترن بشرف النفس علو الهـمة كان الفضـل بهما ظاهرا والأدب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما مسهلة وشروط المروءة بينهما متينة . وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي :

ان المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنـا ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلّة يبني الكريم بهـا المكارم باعها

واعلم أن حقوق المروءة أكثر من أن تحصى وأخفى من أن تظهر لأن منها مايقوم في الوهم حسا ومنها ما يقتضيه شاهد الحـال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل فلذلك أعوز استيفاء شروطها الا جملا يتنبه الفاضل لهـا ليقظته ويستدل العاقل عليها بفطرته وان كان جميع ماتضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها وانما نذكر في هذا الفصـل الأشهر من قواعدها وأصولها والأظهر من شروطها وحقوقها محصورا في تقسيم جامع وهو ينقسم قسمين :

أحدهما شروط المروءة في نفسـه . والثاني شروطها في غيره . فأما شروطها في نفسه بعد التزام ما أوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة أمور : وهي العفة والنزاهة والصيانة . فأما العفة فنوعان : أحدهما العفة عن المحارم والثاني العفة عن المآثم فأما العفة عن المحارم فنوعان : أحدهما ضبط الفرج عن الحـرام والثـاني كف اللسان عن الأعراض . فأما ضبط الفرج عن الحرام فلأن عدمه مع وعيـد الشرع وزاجر العقـل معرّة فاضحة وهتكة واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبه ولَقْلَقه وقَبْقَبه فقـد وُقِيَ » يريد بذَبْذبه الفـرجَ وبلَقْلقه اللسانَ وبقَبْقبه البطنَ . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحب العفاف الى الله تعـالى عفاف الفرج والبطن » وحكى أن

معاوية رضى الله عنه سأل عمرا عن المروءة فقال: تقوى الله تعالى وصلة الرحم وسأل المغيرة فقال: هى العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحل الله تعالى وسأل يزيد فقال: هى الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو عند القدرة فقال معاوية: أنت منى حقا. وقال أنوشروان لابنه هرمز فقال الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم اجتنب المحارم. وقيل: عار الفضيحة يكدر لذتها. وقد أنشدنى بعض أهل الأدب للحسن بن على رضى الله عنهما:

المو تخير من ركوب العار والعار خير من دخول النار

* والله من هذا وهذا جارى *

والداعى الى ذلك شيئان: أحدهما ارسال الطرف والثانى اتباع الشهوة وقد روى عن النبىّ عليه السلام أنه قال لعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: يا علىّ لا تتبع النظرة النظرة فان الأولى لك والثانية عليك وفى قوله لا تتبع النظرة النظرة تأويلان: أحدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك والثانى لا تتبع الأولى التى وقعت سهوا بالنظرة الثانية التى توقعها عمدا. وقال عيسى بن مريم عليه السلام: إياكم والنظرة بعد النظرة فانها تزرع فى القلب الشهوة وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه: العيون مصايد الشيطان. وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه استدعى حتفه. وقال بعض الشعراء:

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وأما الشهوة فهى خادعة العقول وغادرة الألباب ومحسنة القبائح ومسوّلة الفضائح وليس عطب إلاّ وهى له سبب وعليه ألب ولذلك قال النبىّ عليه السلام: « أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهى

وحين يغضب » . وقهرها عن هـذه الأحوال يكون بثلاثة أمور :
أحدها غض الطرف عن إثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرائد المحرك والقائد المهلك . روى سعيد بن سـنان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تقبلوا الىّ بست أتقبل اليكم بالجنة قالوا وما هى يارسول الله قال : اذا حدّث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا اؤتمن فلا يخون غضوا أبصـاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم » . والثانى ترغيبها فى الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله ماحرم شيئا الا وأغنى عنه بمباح من جنسه لمـا علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونا على طاعتـه وحاجزا عن مخالفتـه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ماأمر الله تعالى بشىء الا وأعان عليه ولا نهى عن شىء الا وأغنى عنه . والثالث إشـعار النفس تقوى الله تعالى فى أوامره واتقاؤه فى زواجره و إلزامها ما ألزم من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته و إعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنـه قطمير وأنه يجازى المحسن و يكافئ المسىء وبذلك نزلت كتبه و بلغت رسـله . روى ابن مسعود أن آخر مانزل من القرآن « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وآخر ما نزل من التوراة « اذا لم تستحِ فاصنع ماشئت » وآخر مانزل من الانجيل « شر الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا » وآخر ما نزل من الزبور « من يزرع خيرا يحصـد زرعه غبطة » فاذا أشعرها ماوصفت انقادت الى الكف وأذعنت بالاتقاء فسلم دينه وظهرت مروءته فهذا شرط .
وأما كف اللسان عن الأعراض فلأن عدمه ملاذ السـفهاء وانتقام أهل الغوغاء وهو مستسهل الكلف واذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف وزاجر صادّ تلبط بمعارّه وتخبط بمضارّه وظن أنه لتجافى الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك وأهلك . فلذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم :

«ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرام عليكم» فجمع بين الدم والعرض لما فيه من إيغار الصدور وإبداء الشرور وإظهار البذاء واكتساب الأعداء ولا يبقى مع هذه الأمور وزن لمومق ولا مروءة لملحوظ ثم هو بها موتور موزور ولأجلها مهجور مزجور . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه» وقال بعض الحكماء : انما هلك الناس بفضول الكلام وفضول المال . وما قدح فى الأعراض من الكلام نوعان : أحدهما ما قدح فى عرض صاحبه ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول . والثانى ماتجاوزه الى غيره وذلك أربعة أشياء : الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أوشتم وربما كان السب أنكاها للقلوب وأبلغها أثرا فى النفوس ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لأحد شيئين إما انتقام يصدر عن سفه أو بذاء يحدث عن لؤم . وقد روى أبو سلمة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم» . وقال ابن المقفع : الاستطالة لسان الجهالة . وكف النفس عن هذه الحال بما يصدها من الزواجر أسلم وهو بذى المروءة أجمل فهذا شرط . وأما العفة عن المآثم فنوعان : أحدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثانى زجر النفس عن الاسرار بخيانة . فأما المجاهرة بالظلم فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يئول ان استمر الى فتنة أو جلاء فاما الفتنة فى الأغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس على البادئ بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى : «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله» . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها» . وقال جعفر بن محمد : الفتنة حصاد للظالمين وقال بعض الحكماء : صاحب الفتنة أقرب شىء أجلا وأسوأ شىء عملا .
وقال بعض الشعراء :

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها   الى مـدية تحت الثرى تستثيرها

وأما الجلاء فقد يكون من قوة الظالم وتطاول مدّته فيصير ظلمه مع المكنة جلاء وفناء كالنار اذا وقعت فى يابس الشجر فلا تبقى معها مع تمكنها شيئا حتى اذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت فكذا حال الظالم مهلك ثم هالك. والباعث على ذلك شيئان الجراءة والقسوة ولذلك قال النبي عليه السلام: «اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحماء من أمتى تعيشوا فى أكنافهم» والصادّ عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى فى الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصوّر عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انّه قال: «من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر الله له ما اجترم». وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ياعلى اتق دعوة المظلوم فانه إنما يسأل الله حقه وان الله لايمنع ذا حق حقه». وقيل فى منثور الحكم: ويل للظالم من يوم المظالم. وقال بعض البلغاء: من جار حكمه أهلكه ظلمه. وقال بعض الشعراء:

وما من يد الا يد الله فوقها   ولا ظـالم الا سيبلى بظالم

وأما الاسرار بالخيانة فضـعة لأنه ببذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين. وقيل فى منثور الحكم: من يخن يهن. وقال خالد الربعى: قرأت فى بعض الكتب السالفة أن مما تعجل عقوبتـه ولا تؤخر الأمانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغى على الناس. ولو لم يكن من ذم الخيانة الا مايجده الخائن فى نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصوّر عقبى أمانته وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه وأقوى شفعاء تقدّمه مع ما يجده فى نفسه من العز ويقابل عليه من الاعظام. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أدّ الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك». وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه

الآية : «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل» يعنون أن أموال العرب حلال لهم لأنهم من غير أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذب أعداء الله مامن شيء كان فى الجاهلية الا وهو تحت قدمى الا الأمانة فانها مؤداة الى البر والفاجر . ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زورا ولا مايبديه من العفة غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتكه للتدليس أقبح ولمعرّة الرياء أفضح . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لاتزال أمتى بخير مالم تر الأمانة مغنما والصدقة مغرما» وقال بعض الحكماء : من آلتمس أربعا بأربع آلتمس مالا يكون . من التمس الجزاء بالرياء التمس مالا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس مالايكون ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس مالا يكون ومن التمس العلم براحة الجسد التمس مالا يكون . والداعى الى الخيانة شيئان : المهانة وقلة الأمانة فاذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة . وأما النزاهة فنوعان : أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثانى النزاهة عن مواقف الريبة فأما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لؤم وهما أدفع شيء للمروءة . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : اللهم انى أعوذ بك من طمع يهدى الى طَبَع . وقال بعض الشعراء :

لاتخضعنّ لمخلوق على طمع فان ذلك نقص منك فى الدّين
واسترزق الله مما فى خزائنه فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيئان الشره وقلة الأنفة فلا يقنع بما أوتى وان كان كثيرا لأجل شرهه ولا يستنكف مما منع وان كان حقيرا لقلة أنفته وهذه حال من لا يرضى لنفسه قدرا ويرى المال أعظم خطرا

فيرى بذل أهون الأمرين لأجلهما مغنما وليس لمن كان المال عنده أجل ونفســه عليه أقل إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب . وروى أن رجلا قال يارسول الله أوصنى قال : عليك باليأس مما فى أيدى الناس وإياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صــلاة مودع وإياك وما يعتذر منه . وقال بعض الشعراء :

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان : اليأس والقناعة . وقد روى عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن روح القدس نفث فى رُوعِى أن نفســا لن تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ولا يحملنكم ابطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصى الله تعــالى فان الله عز وجل لايدرك ما عنده الا بطاعته » فهذا شرط . وأما مواقف الريبــة فهى التردد بين منزلتى حمد وذم والوقوف بين حالتى ســـلامة وسقم فتتوجه اليــه لائمة المتوهمين ويناله ذلة المريبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «دع ما يريبك الى ما لا يريبك» وسئل محمد بن على عن المروءة فقال : ألّا تعمل فى السر عملا تستحى منه فى العلانية وقال حسان بن أبى سنان : ماوجدت شيئا هو أهون من الورع قيل له وكيف قال : اذا ٱرْتَبتُ بشئ تركته . والداعى الى هــذه الحال شيئان : الاســترسال وحسن الظن والمــانع منهما شيئان : الحياء والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة وارتفعت التهمة بطول الخبرة . وقد حكى عن عيسى بن مريم عليه الســلام أنه رآه بعض الحواريين وقد خرج من منزل ٱمرأة ذات فجور فقال : ياروح الله ما تصــنع هنا فقال الطبيب انمــا يداوى المرضى . ولكن لاينبغى أن يجعل ذلك طريقا الى الاسترسال وليكن الحذر عليه أغلب والى الخوف من تصديق التهم أقرب فمــا كل ريبة

ينفيها حسن الثقة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد يحادثها وكان معتكفا فمرّ به رجلان من الأنصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما : على رسلكما إنها صفية بنت حي فقالا : سبحان الله أوفيك شك يارسول الله فقال مه : ان الشيطان يجرى من أحدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت أن يقذف فى قلبيكما سوأ . فكيف من تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه الظنون فهل يعرى فى مواقف الريب من قادح محقق ولائم مصدّق . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا لم يشق المرء الا بما عمل فقد سعد » واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان التهم ولم يقف موقف الاعتذار ولاعذر لمختار لم يختلج فى نزاهته شك ولم يقدح فى عرضه إفك . وقد قال الشاعر :

أصونك أن أدل عليك ظنا لأن الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف . وقال بعض الحكماء : من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع . وأنشدنى بعض أهل الأدب لأبى بكر الصولى رحمه الله قوله :

أحسنت ظنى بأهل دهرى فحسن ظنى بهم دهانى
لاآمن الناس بعد هذا ماالخوف الا من الأمان

فهذا شرط استوفينا فيه نوعى النزاهة . وأما الصيانة وهى الثالث من شروط المروءة فنوعان : أحدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقديم مادتها والثانى صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة . فأما التماس الكفاية وتقدير المادة فلأن المحتاج الى الناس كَلٌّ مهتضَم وذليل مستثقَل وهو لما فطر عليه محتاج الى مايستمدّه ليقيم أَوَدَ نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب فى أمثالها : كلب جوّال خير من أسد

رابض . ومايستمدّه نوعان : لازم وندب . فأما اللازم فما قام بالكفاية وأفضى الى سَدّ الخَلّة وعليه فى طلبه ثلاثة شروط : أحدها استطابته من الوجوه المباحة وتوقى المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الأصول محوقة المحصول ان صرفها فى بِرّ لم يؤجَر وان صرفها فى مدح لم يشكَر ثم هو لأوزارها محتقب وعليها معاقب . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يعجبك رجل كسب مالا من غير حله فان أنفقه لم يقبل منه وان أمسكه فهو زاده الى النار . وقال بعض الحكماء : شر المال ما لزمك إثم مكسبه وحرمت أجر إنفاقه . ونظر بعض الخوارج الى رجل من أصحاب السلطان يتصدّق على مسكين فقال : انظر اليهم حسناتهم من سيآتهم . وقال على بن الجهم :

سرّ من عاش ماله فاذا حا سبه الله سرّه الاعدام

والثانى طلبه من أحسن جهاته التى لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها . وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ياحبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربى . وقال أَبو بشر الضرير :

كفى حزنا أنى أروح وأغتدى ومالِىَ من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وسئل ابن عائشة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : «اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه» فقال معناه من أحسن الوجوه التى تحل . والثالث أن يتأنى فى تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن التقدير وإصابة التدبير أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر فى الأرض اذا روعى يسيره زكا وان أهمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن على رضى الله عنه : الكمال فى ثلاثة العفة فى الدين والصبر

على النوائب وحسن التدبير فى المعيشـة . وقيل لبعض الحكماء فلان غنى فقال : لا أعرف ذلك مالم أَعرف تدبيره فى ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمدّه من قدر الكفاية فقد أدّى حق المروءة فى نفسه. وسـئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال : العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء لابنه : يابنىّ لاتكن على أحد كَلا فانك تزداد ذلا واضرب فى الأرض عودا وبدأ ولا تأسف لمـال كان فذهب ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب فهـذا حال اللازم . وقد كان ذووالهمم العلية والنفوس الأبية يرون ماوصل الى الانسان كسبا أفضل ممـا وصل اليه إرثا لأنه فى الارث فى جدوى غيره وبالكسب مجْـدٍ الى غيره وفرق ما بينهما فى الفضل ظاهر . وقال كشاجم :

لا أسـتلذ العيش لم أدأب له   طلبا وسعيا فى الهواجر والغلس
وأرى حراما أن يؤاتينى الغنى   حتى يحاول بالعنـاء ويلتمس
فاصرف نوالك عن أخيك موفرا   فالليث ليس يسيغ الا ماافترس

وأما الندب فهو مافضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الأمر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤساء وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الأكفاء فحسبه ما كفاه فليس فى الزيادة الا شره ولا فى الفضول الا نهم وكلاهما مذموم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خير الرزق مايكفى وخير الذكر الخفى » . وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الدنيا كُلٌّ على العاقل . وقال عبد الله بن مسعود : المستغنى عن الدنيا بالدنيا كمطفئ النار بالتبن . وقال بعض الحكماء : اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام . فان كان ممن منى بعلو الهمم وتحركت فيه أريحيـة الكرم وآثر ان يكون رأسا مقدما وأن يرى فى النفوس معظما ومفخما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فائضا فقد قيـل لبعض العرب

ما المروءة فيكم قال : طعام مأكول ونائل مبذول وبشر مقبول . وقد قال الأحنف بن قيس :

فلو مُدَّ سَرْوِى بمال كثير لجدت وكنت له باذلا
فان المروءة لا تستطاع اذا لم يكن مالها فاضلا

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة فلأن المنة استرقاق الأحرار تحدث ذلة فى الممنون عليه وسطوة فى المان والاسترسال فى الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان . وقال رجل لعمر رضى الله عنه : خدمك بنوك فقال : أغنانى الله عنهم . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه لابنه الحسن فى وصيته له : يابنى ان استطعت أن لايكون بينك و بين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيرا . وقال زياد لبعض الدهاقين : ما المروءة فيكم قال : اجتناب الريب فانه لاينبل مريب و إصلاح الرجل ماله فانه من مروءته وقيامه بحوائجه وحوائج أهله فانه لاينبل من احتاج الى أهله ولا من احتاج أهله الى غيره . وأنشد ثعلب :

من عف خف على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول
وأخوك من وفرت ما فى كيسه فاذا عبثت به فأنت ثقيل

وان كان الناس لحمة لايستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعد والمظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافئون فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستعين فيه مفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع بأكرته فليس من هذا بدّ ولا لأحد عنه غنى وانما الذى يتصوّن عنه الكرام تعاون التفضيل فينقبضون عن أن يستعينوا لئلا يكون عليهم يد ويسارعون أن يعينوا لأن يكون لهم يد ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال فقد أوهى مروءته واستبذل

صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائب ألم أو حادث هجم الى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر فان أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له فى التعرّض للمال ويعدل الى ولاة الأمور فان الحوائج عندهم أنجح وهى عليهم أسهل وهم لذلك مندوبون فهم لايجدون لهم مساويا وليصبرنّ على ابطائهم فان تراكم الأمور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل: قدّم لحاجتك بعض لجاجتك . وقال أبو سارة سحيم بن الأعرف :

تعـدّ قرابة وتعـدّ صهرا ويسـعد بالقرابة من رعاها
وما زرناك من عدم ولكن يهش الى الامارة من رجاها
وأيًّا مّا فعلتَ فان نفسى تعدّ صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة لكن ان وجده قرضا مردودا لم يأخذه صلة وجوداً فان القرض مستسمح به فى المروآت . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فأحسن وقال صلى الله عليه وسلم: «من أعياه رزق الله تعالى حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله» وقال صلى الله عليه وسلم: «المستدين تاجر الله فى أرضه» . وقال البحترى :

ان لم يكن كَثْر فَقُلُّ عطيـةٍ يبلغ بها باغى الرضا بعض الرضا
أو لم يكن هبة فقرض يسرت أسبابه وكواهبٍ مَن أقرضا

ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الافضال . وقد روى عن على بن أَبى طالب رضى الله عنه أنه قال: من أراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء قيل وما فى خفة الرداء من البقاء قال: قلة الدين فان أَعوزه ذلك الا استمناحا فهو الرق المذل ولذلك قيل: لامروءة لمقل . وقال بعض الحكماء: من قبل صلتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه

وجلالته . والذى يتماسك به الباقى من مروءة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذى رغبة مروءة ولا لسائل تصوّن أربعة أمور هى جهد المضطر: أحدها أن يتجافى ضرع السائلين وأبهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالأبهة وليكن من التجمل على مايقتضيه حال مثله من ذوى الحاجات . وقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم قال: اذا زال معها التجمل . وأنشد بعض أهل الأدب لعلى بن الجهم :

هى النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمة ولكنّ عارا أن يزول التجمل

والثانى أن يقتصر فى السؤال على ما دعته اليه الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر فى ضرورته . وقد قال بعض الحكماء: من ألف المسئلة ألفه المنع . والثالث أن يعذر فى المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فما لا يملك وان أجيب فالى ما لا يستحق . فقد قال النمر بن تولب :

لا تغضبن على امرئ فى ماله وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا وكان النجح عنده مأمولا فان ذوى المكنة كثير والمعين منهم قليل . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم «الخير كثير وقليل فاعله» . والمرجوّ للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهى ثلاث : إحداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند . وقد قيل: المخذول من كانت له الى اللئام حاجة . والثانية سلامة الصدر فان العدوّ إِلْبٌ على نكبتك وحَبٌ فى نائبتك وقد قيل: من أوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه

ورحمك بحسن ظفره فأعظم بها محنة أن يصير عدوك لك راحما . وقد قال الشاعر :

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

والثالث ظهور المَكِنة فان من سأل مالا يمكن فقد أحال وكان كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا . وقد قال على كرم الله وجهه : من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو أحمق . ووصى عبدالله بن الأهتم ابنه فقال : يابنىّ لا تطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلبها فى غير حينها ولا تطلب مالست له مستحقا فانك إن فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان . وقال الشاعر :

ولا تسألن امرأ حاجة يحاول من ربه مثلها
فيترك ما كنت حملته ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة فى نفسه . وأما شروط المروءة فى غيره فثلاثة : الموازرة والمياسرة والافضال . أما الموازرة فنوعان : أحدهما الاسعاف بالجاه والثانى الاسعاف فى النوائب . فأما الاسعاف بالجاه فقد يكون من الأعلى قدرا والأنفذ أمرا وهو أرخص المكارم ثمنا وألطف الصنائع موقعا وربما كان أعظم من المال نفعا وهو الظل الذى يلجأ اليه المضطرون والحمى الذى يأوى اليه الخائفون فان أوطأه اتسع بكثرة الأنصار والشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل يمى ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاها أن يخل به فيكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذى قد يعدّه لنوائبه ويستبقيه للذته ويكنزه لذرّيته . وبضدّ ذلك من بخل بجاهه لأنه قد أضاعه بالشح وبدّده بالبخل وحرم نفسه غنيمةَ مَكِنَتِه وفرصةَ قدرته فلم يعقبه الا ندما على فائت وأسفا على ضائع ومقتا يستحكم فى النفوس وذما قد ينتشر فى الناس . وقد روى عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله وأحب خلق الله تعالى اليه أحسنهم صنيعا الى عياله» . وقال بعض الحكماء : اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدّة لزمان بلائك . وقال بعض البلغاء: من علامة الاقبال اصطناع الرجال . وقال بعض الأدباء: بذل الجاه أحد الحباءين. وقال ابن الأعرابي : العرب تقول من أمل شيئا هابه ومن جهل شيئا عابه. وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضدّه من ضدّه وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلا مشكورا وانما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق . وأنشد بعض الأدباء لعلى بن عباس الرومى رحمه الله :

لا يبذل العرف حين يبذله كمشترى الحمد أو كمعتاضه
بل يفعل العرف حين يفعله لجوهر العرف لا لأعراضه

وعلى من أسعد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمدّ بها المزيد من الأجر: أحدها أن يستسهل المعونة مسرورا ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عظمت نعمة الله تعالى عليه عظمت مؤنة الناس عليه» فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرّض تلك النعمة للزوال . والثانى مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لؤم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع وإحباط الشكر . وقد قيل للحكيم اليونانى من أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقا قال: من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه . والثالث أن لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفى مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم» وقال النابغة الجعدى :

ألم تعلمـا أن الملامة نفعها قليل اذا ماالشىء ولى فأدبرا

وأما الاسعاف فى النوائب فلأن الأيام غادرة والنـوازل غائرة والحوادث عارضـة والنوائب راكضة فلايعذر فيها الا عليم ولايستنقذه منها الا سليم وقد قال عدى بن حاتم :

كفى زاجرا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسـعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله» وقيل لبعض الحكماء :هل شىء خير من الذهب والفضة قال : معطيهما والاسعاف فى النوائب نوعان : واجب وتبرع . فاما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم : الأهل والاخوان والجيران أما الأهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج أهله الى غيره . وقال حسان بن ثابت :

وإن امرأ نال المنى لم ينـل به قريبـا ولا ذا حاجة لزهيـد
وإن امرأ عادى الرجال على الغنى ولم يسأل الله الغـنى لحسـود

وأما الاخوان فلمسـتحكم الود ومتأكد العهد . وسـئل الأحنف ابن قيس عن المروءة فقال : صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى فى كل مكان . وقال بعض حكماء الفرس : صفة الصديق أن يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب . ورأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لايفترقان فسأل عنهما فقيل هما صديقان فقال : ما بال أحدهما فقير والآخر غنى . وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره قال على كرم الله وجهه : ليس حسن الجوار كف الأذى بل الصبر على الأذى . وقال بعض الحكماء : من أجار جاره أعانه الله وأجاره .

وقال بعض البلغاء : من أحسن الى جاره فقد دل على حسن نجاره .
وقال بعض الشعراء :

وللجـار حق فاحترز من أذاته   وماخير جار لم يزل لك مُـؤْذيا

فيجب من حقوق المروءة وشروط الكرم فى هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم وإسعافهم فى نوائبهم ولا فسحة لذى مروءة عند ظهور المكنة أن يكلهم الى غيره أو يلجئهم الى سؤاله وليكن سائل نفسه عنهم فانهم عيال كرمه واضياف مروءته فكما أنه لايحسن أن يلجئ عياله وأضيافه الى الطلب والرغبة فهكذا من عاله كرمه وأضافته مروءته . وقال بعض الشعراء :

حق على السـيد المرجوّ نائله   والمستجار به فى العرب والعجم
أن لا ينيل الأقاصى صوب راحته   حتى يخص به الأدنى من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غوار به   روّى السواحل ثم امتدّ فى الأمم

وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء الذين لايدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروءة فنهض فى حوادثهم وتكفل بنوائبهم فقد زاد على شروط المروءة وتجاوزها الى شروط الرياسة . وقيل لبعض الحكماء أى شىء من أفعال الناس يشبه أفعال الاله قال : الاحسان الى الناس . وان كف تشاغلا بما لزم فلا لوم ما لم يلجأ اليه مضطر لأن القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة . وأما المياسرة فنوعان : أحدهما العفو عن الهفوات والثانى المسامحة فى الحقوق . فأما العفو عن الهفوات فلأنه لامبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص أو خلل ومن رام سليما من هفوه والتمس بريئا من نبوه فقد تعدّى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا . وقد قالت الحكماء : لاصديق لمن أراد صديقا لاعيب فيه . وقيل لأنوشروان هل من أحد لاعيب فيه قال : من لاموت له واذا كان الدهر لايوجده ماطلب ولا

ينيله ما أحب وكان الوحيد فى الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم وحشيا لزمه مساعدة زمانه فى القضاء ومياسرة اخوانه فى الصفح والاغضاء . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ان الله تعالى أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بأداء الفرائض» . وقال بعض الأدباء: ثلاث خصال لاتجتمع الا فى كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال . وقال ابن الرومى :

فعذرك مبسوط لذنب مقدّم   وودّك مقبول بأهل ومرحب
ولو بَلَّغَتْنِى عنك أذْنِى أقِمتُها   لدىّ مُقامَ الكاشح المتكذب
فلستُ بتقليب اللسان مُصارِما   خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضاء حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب . والهفوات نوعان : صغائر وكبائر . فالصغائر مغفوره والنفوس بها معذوره لأن الناس مع أطوارهم المختلفة وأخلاقهم المتفاضلة لايسلمون منها فكان الوجد فيها مطرحا والعتب مستقبحا . وقد قال بعض العلماء: من هجر أخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده فى غير أوانه . وقال أبو العتاهية :

وشر الأخلاء من لم يزل   يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقاء   ويبريك فى السر برى القلم

وأما الكبائر فنوعان أن يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عليها موضوع لأن هفوة الخاطئ هدر ولومه هذر . وقال بعض الحكماء: لاتقطع أخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه . وقال الأحنف بن قيس: حق الصديق أن تحمل له ثلاثا: ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة . وحكى ابن عون أن غلاما هاشميا عربد على قوم فأراد عمه أن يسىء به فقال ياعم: إنى قد أسأت وليس معى عقلى فلا تسئ بى ومعك عقلك . وقال أبو نواس :

لم أؤاخذك إذ جنيت لأنى واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العـــدو غير جميـل وقبيح الصـــديق غير قبيح

فان تشبه خطؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم فيكون ملوما ولا يلوم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل: التثبت نصف العفو. وقال بعض الحكماء: لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له وقال بعض شعراء هذيل:

فبعض الأمر تصلحه ببعض فان الغث يحمله السـمين
ولا تعجل بظنـك قبل خبر فعند الخـبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا وفيما أضمروا الفضل المبـين
كلون المـاء مشتبها وليست تخـبر عن مذاقتـه العيون

والثانى أن يعتمد ما اجترم من كبائره ويقصد ما اجترح من سيآته ولا يخلو فيما أتاه من أربع أحوال: فالحال الأولى أن يكون موتورا قد قابل على وترته وكافأ على مساءته فاللائمة على من وتره عائدة والى البادئ بها راجعة لأن المكافئ أعذر وان كان الصفح أجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والمشارّة فانها تميت الغُرّة وتحيي العُرّة». وقال بعض الحكماء: من فعل ماشاء لقي مالم يشأ. وقال بعض الأدباء: من نالته إساءتك همه مساءتك وقال بعض البلغاء: من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة. وقال صالح بن عبد القدوس:

اذا وترت آمرأً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
إن العـدو وإن أبدى مسالمة اذا رأى منك يوما فرصـة وثبا

والاغضاء عن هذا أوجب وان لم تكن المكافأة ذنبا لأنه قد رأى عقبى اساءته فان واصل الشر واصلته المكافأة. وقد قيل: باعتزالك الشر يعتزلك وبحسن النَّصَفة يكون المواصلون. وقال بعض الحكماء: من كنت

سببا لبــلائه وجب عليك التلطف له فى علاجه من دائه . وقد قال أوس بن حجر :

اذا كنت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليما أو أصابك جاهل

والحال الثانية أَن يكون عدوّا قد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه واســتخشنت ضراؤه فهو يتربص بدوائر السوء انتهازَ فُرَصــه ويتجرع بمهانة العجز مرارة غُصَصِه فاذا ظفر بنائبة ساعــدها واذا شاهد نعمة عاندها فالبعد منــه حذرا أسلم والكف عنه متاركة أغنم فانه لا يســلم من عواقب شره ولا يفلت من غوائل مكره . وقد قالت الحكماء : لاتَعَرَّضنّ لعدوك فى دولته فاذا زالت كفيت شره . وقال لقمان لابنه : يابنى كذب من قال ان الشر بالشر يطفأ فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ احداهما الأخرى وانمـا يطفئ الخــير الشر كما يطفئ الماء النار . وقال جعفر بن محمد : كفاك من الله نصرا أن ترى عدوّك يعصى الله فيك . وقال بعض الحكماء : بالسيرة العادلة يقهر المعادى وقال البحترى :

وأقسم لا أجزيك بالشر مثله كفى بالذى جازيتنى لك جازيا

والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الأصل قد أغراه لؤم الطبع على سوء الاعتقاد وبعثه خبث الأصل على اتيان الفساد فهو لايستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة أَطَم لأن الاضرار بهــا أَعَم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضارى فى سوارح الغنم وكالنار المتأججة فى يابس الحطب لايقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك . روى مكحول عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الناس كشجرة ذات جنى ويوشك أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهــم ناقدوك وان هربت منهــم طلبوك وان تركتهم

لم يتركوك قيل يارسول الله وكيف المخرج قال : أقرضهم من عرضك ليوم فاقتك» . وقال عبد الله بن العباس : العاقل الكريم صديق كل أحد إلامن ضره والجاهل اللئيم عدوّ كل أحد الا من نفعه وقال : شر مافى الكريم أن يمنعك خيره وخير مافى اللئيم أن يكف عنـك شره . وقال بعض البلغاء : أعداؤك داؤك وفى البعد عنهم شفاؤك . وقال بعض البلغاء: شرف الكريم تغافله عن اللئيم. ووصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بنيّ اذا سلم الناس منك فلا عليك أن لاتسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان . وقال عبد المسيح بن نفيلة :

الخير والشر مقرونان فى قرن فالخير متبع والشر محـذور

والحال الرابعة أن يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغـيرا أو أخا قد اسـتجدّ جفوة وتنكرا فأبدى صفحة عقوقه واطّرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الأعداء فهـذا قد يعرض فى المودّات المستقيمة كما تعـرض الأمراض فى الأجسام السليمة فان عوجلت اقلعت وان أهملت أسقمت ثم أتلفت ولذلك قالت الحكماء : دواء المودّة كثرة التعاهد . وقال كشاجم :

أقل ذا الودّ عثرته وقفـه على سنن الطريق المستقيمه

ولا تسرع بمعتبـة اليـه فقـد يهفو ونيتـه سليمه

ومن الناس من يرى أن متاركة الاخوان اذا نفروا أصلح واطراحهم اذا فسدوا أولى كأعضاء الجسد اذا فسدت كان قطعها أسـلم فان شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد له أجمل . وقد قال بعض الحكماء : رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهـدك فيمن يرغب فيك صغر همة . وقد قال بزرجمهر: من تغير عليك فى مودته فدعه حيث كان قبل معرفته . وقال نصر بن أحمد :

صل من دنا وتناس من بعدا لاتكرهنّ على الهوى أحـدا

قد أكثرت حوّاء اذ ولدت فاذا جفا ولد نخذ ولد

فهذا مذهب من قل وفاؤه وضعف إخاؤه وساءت طرائقه وضاقت خلائقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل العقوق بالعقوق فلا بالفضل أخذ ولا الى العفو أخلد وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه و يؤذيه وهما أخص به وأحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بأدواته فيريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه لنفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع أن من لم يحتمل بقى فردا وانقلب الصديق فصار عدوّا وعداوة من كان صديقا أعظم من عداوة من لم يزل عدوّا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أوصانى ربى بسبع الاخلاص فى السر والعلانية وأن أعفو عمن ظلمنى وأعطى من حرمنى واصل من قطعنى وأن يكون صمتى فكرا ونطقى ذكرا ونظرى عبرة» . وقال لقمان لابنه: يابنى لاتترك صديقك الأول فلا يطمئن اليك الثانى يابنى اتخذ ألف صديق والألف قليل ولا تتخذ عدوّا واحدا والواحد كثير. وقيل للمهلب بن أبى صفرة ما تقول فى العفو والعقوبة قال: هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بأيهما شئت. وأنشد ثعلب

اذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد بكفيك فى ادباره متعلقا

اذا أنت لم تترك أخاك وزلة اذا زلها أوشكتما أن تفرّقا

فاذا كان الأمر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء فيعالجه فان من لم يعرف الداء لم يقف على الدواء . كما قد قال المتنبي :

فان الجرح ينغَر بعد حين اذا كان البناء على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال السبب من أن يكون لملل أو زلل فان كان لملل فمودّات الملول ظل الغمام وحلم النيام . وقد قيل

في منثور الحكم : لاتأمنن الملول وان تحلى بالصلة وعلاجه أن يترك على ملله فيمل الجفاء كما مل الاخاء . وان كان لزلل لوحظت أسبابه فان كان لها مدخل في التأويل وشبهة تئول الى جميل حمله على أجمل تأويل وصرفه الى أحسن جهة كالذى حكى عن خالد بن صفوان أنه مر به صديقان له فعرّج عليه أحدهما وطواه الآخر فقيل له في ذلك فقال : نعم عرّج علينا هذا بفضله وطوانا ذلك بثقته بنا . وأنشد بعض أهل الأدب لمحمد بن داود الاصفهاني :

وتزعم للواشين أنى فاسـد عليك وأنى لست فيما عهدتنى
وما فسـدت لى يعلم الله نيـة عليـك ولكن خنتنى فاتهمتنى
غدرت بعهدى عامدا وأخفتنى فخفت ولو آمنتـنى لأمـنتنى

وان لم يكن لزلله في التأويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل إنابة ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجأ الى ذل التحريف أو خجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إياكم والمعاذر فان أكثرها مفاجر» وقال على رضى الله عنه : كفى بما يعتذر منه تهمة . وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه : لايدعونك أمر قد تخلصت منه الى الدخول فى أمر لعلك لاتخلص منه . وقال بعض الحكماء : شفيع المذنب إقراره وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء : من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت إساءته . وقال بعض الحكماء : الكريم مَن أوسع المغفرة اذا ضاقت بالذنب المعذرة . وقال بعض الشعراء :

العذر يلحقه التحريف والكذب وليس فى غير مايرضيك لى أرب
وقد أسأت فبالنعمى التى سلفت إلا مننت بعـفو ماله سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل إنابته فالعـذر توبة والتنصل إنابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر غدره

فيكون لئيم الظفر سيئ المكافأة . وقد قيل : من غلبته الحدّة فلا تغترر بمودّته . وقال بعض الحكماء : شافع المذنب خضوعه الى عذره . وقال بعض الشعراء :

إقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن برّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلك من يعصيك مستترا

وان ترك نفسه فى زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته وإنابته راعيت حاله فى المتاركة فستجده لاينفك فيها من أمور ثلاثة أحدها أن يكون قد كف عن سيئ عمله وأقلع عن سالف زلله فالكف إحدى التوبتين والاقلاع أحد العذرين فكن أنت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : المحسن على المسيء أمير . والثانى أن يكون قد وقف على ما أسلف من زلله غير تارك ولا متجاوز فوقوف المرض أحد البرءين وكفه عن الزيادة إحدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف عن التجاوز أحد شطريه فعول به على صلاح شطره الآخر وإياك وإرجاءه فان الارجاء يفسد شطر صلاحه والتلافى يصلح شطر فساده فان من سقم من جسمه مالم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه . والثالث أن يتجاوز مع الأوقات فيزيد فيه على مرور الأيام فهذا هو الداء العضال فان أمكن استدراكه وتأتى استصلاحه وذلك باستنزاله عنه ان علا وبارغابه ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فآخر الداء العياء الكىّ ومن بلغت به الأعذار الى غايتها فلا لائمة عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع . وقد قيل : من سل سيف البغى أغمده فى رأسه فهذا شرط . وأما المسامحة فى الحقوق فلأن الاستيفاء موحش والاستقصاء منفر ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمخاشنة والمشاحة لما استقر

فى الطباع من مقت من شاقها ونافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقرّ حب من ياسرها وسامحها فكان أليق لأمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة وتألفها بالمقاربة والمساهلة . قال بعض الحكماء : من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم . وقال بعض الأدباء : اذا أخذت عفو القلوب زكا ريعك وان استقصيت أكديت . والمسامحة نوعان فى عقود وحقوق فأما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مأمون الغيبة بعيدا من المكر والخديعة . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أجملوا فى طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها» . وقال صلى الله عليه وسلم : «ألا أدلكم على شىء يحبه الله تعالى ورسوله قالوا بلى يارسول الله قال التغابن للضعيف» . وحكى ابن عون أن عمر بن عبيد الله اشترى للحسن البصرى إزارا بستة دراهم ونصف فأعطى التاجر سبعة دراهم فقال ثمنه ستة دراهم ونصف فقال انى اشتريته لرجل لا يقاسم أخاه درهما . ومن الناس من يرى أن المساهلة فى العقود عجز وأن الاستقصاء فيها حزم حتى انه لينافس فى الحقير وان جاد بالجليل الكثير كالذى حكى عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس فى درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له فى ذلك فقال : ذلك مالى أجود به وهذا عقلى بخلت به . وهذا انما يسوغ من أهل المروءة فى دفع مايخادعهم به الأدنياء ويغابنهم به الأشحاء وهكذا كانت حال عبدالله بن جعفر . فأما مماكسة الاستنزال والاستسماح فكلا لأنه مناف للكرم ومباين للمروءة . وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين : أحدهما فى الأحوال والثانى فى الأموال . فأما المسامحة فى الأحوال فهى اطراح المنازعة فى الرتب وترك المنافسة فى التقدّم فان مشاحة النفوس فيها أعظم والعناد عليها أكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع أخذه بأفضل الأخلاق واستعماله لأحسن الآداب أوقع فى النفوس

من أفضاله برغائب الأموال ثم هو أزيد فى رتبته وأبلغ فى تقدّمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لأخشن الأخلاق واستعماله لأهجن الآداب أنكى فى النفوس من حدّ السيف وطعن السنان ثم هو أخفض للرتبة وأمنع من التقدّم . حكى أن فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبى داود فقال: يابنىّ ان الآداب ميراث الأشراف ولست أرى عندك من سلفك إرثا . وأما المسامحة فى الأموال فتتنوّع ثلاثة أنواع: مسامحة إسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة إنكار لعسرة وهى مع اختلاف أسبابها تفضل مأثور وتألف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرّفه كان أولى أن يجود بما خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه . وقد تصل المسامحة فى الحقوق الى من لايقبل البر ويأبى الصلة فيكون أحسن موقعا وأزكى محلا وربما كانت المسامحة فيها آمن من ردّ السائل ومنع المجتدى لأن السائل كما اجترأ على سؤالك فسيجترئ على سؤال غيرك ان رددته وليس كل من صار أسير حقك ورهين دينك يجد بدًّا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثناء وجزيل الأجر . وقال محمود الوراق رحمه الله :

المرء بعد الموت أحدوثة   يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرئ   تطيب بعد الموت أخباره

فهذه حال المياسرة . وأما الافضال فنوعان: إفضال اصطناع و إفضال استكفاف ودفاع فاما إفضال الاصطناع فنوعان: أحدهما ما أسداه جودا فى شكور والثانى ما تألّف به نَبْوَةَ نَفُور وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الأشياع والأتباع ومن قلت صنائعه فى الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروءة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم . وقال عمر بن

عبدالعزيز ما طاوعني الناس على شيء أردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيـا . وقال بعض الحكماء: أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها الى معصيته . وأنشدت لبعض الأعراب :

من جمع المـال ولم يجدبه وترك المـال لعام جدبه
هان على الناس هوانَ كلبه

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلي :

يبقى الثنـاء وتذهب الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم الا الجـواد بمـاله المفضال
لاترض من رجل حلاوة قوله . حتى يصدّق ما يقول فعـال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بمـاله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط المروءة سنادها فليواس بنفسه مواساة المسعف وليسعد بها إسعاد المتألف . قال المتنبي :

فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

وان كان لا يراها وان أجهدها الا تبعا للمفضـلين قليلة بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطى والمـانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المـال و يرونه كالصدى ان ردّ صوتا لم يجد نفعا كما قال الشاعر :

يجود بالوعد ولكنـــه يدهن من قارورة فارغه

فكل ماخرج عندهم عن المـال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان هينا وقد قدّمنا من القول فى شروط الافضال ما أقنع . وأما إفضال الاستكفاف فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعتريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه فان غفل عن استكفاف السفهاء وأعرض عن استدفاع أهل البذاء صار عرضه هدفا للثالب وحاله عرضة للنوائب واذا استكف السفيه واستدفع البذى صان عرضه وحمى

نعمته . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ماوقى به المرء عرضه فهو صدقة» وقالت عائشة رضي الله عنها : ذبوا بأموالكم عن أحسابكم . وامتدح رجل الزهري فأعطاه قميصه فقال له رجل : أتعطى على كلام الشيطان فقال : من ابتغى الخير اتقى الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «من أراد بر الوالدين فليعط الشعراء» وهذا صحيح لأن الشعر ساتر يستر به ما ضمن من مدح أوهجاء ومن أجل ذلك قيل : لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا . ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان : أحدهما أن يخفيه حتى لاتنتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلوا الى اجتذابه بسببه والى ماله بثلبه . والثاني أن يتطلب له في المجاملة وجها ويجعله في الافضال عليه سببا لئلا يرى أنه على السفه واستدامة البذاء . واعلم أنك ماحييت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يراقبك صديق ولا يحامى عنك شقيق فكن أحسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا وأجرك عند الله مذخورا . فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك» فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروءة وان كان كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها والله سبحانه وتعالى أعلم

(الفصل الثامن في آداب منثورة) اعلم ان الآداب مع اختلافها بتنقل الأحوال وتغير العادات لايمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل إنسان ما بلغه الوسع من آداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو أمكن ذلك لكان الأول قد أغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتأخر تكلفها وانما حظ الأخير أن تعاطى حفظ الشارد وجمع المفترق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان

موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمدّ خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان أسعف بشيء فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مألوفا من كلام الوقت وعرف أهله فان لأهل كل وقت في الكلام عادة تؤلف وعبارة تعرف ليكون أوقع في النفوس وأسبق الى الأفهام ثم يرتب ذلك على أوائله ومقدماته ويثبته على أصوله وقواعده حسب ما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من العلوم طريقة هي أوضح مسلكا وأسهل مأخذا فهذه خمسة شروط هي حظ الأخير فيما يعانيه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطى ما تقدم به الأول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا ونرجو الله أن يمدّنا بالتوفيق لتأدية هذه الشروط وتنهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكليف ونبرأ من عيوب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطئ معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان أحسن فقد استعطف وان أساء فقد استقذف وقد مضت أبواب تضمنت فصولا رأيت اتباعها بما لا أحب الاخلال به . فمن ذلك حال الانسان في مأكله ومشربه فان الداعي الى ذلك شيئان حاجة ماسة وشهوة باعثة . فأما الحاجة فتدعو الى ماسدّ الجوع وسكن الظمأ وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ النفس وحراسة الجسد ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين لأنه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد لأن ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابا وأعظم أجرا اذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات وإتيان القرب ومن أخسر نفسه ربحا موفورا أو حرمها أجرا مذخورا كان زهده في الخير أقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا الشهوة بريائه

وسمعتـــه . وأما الشهوة فتتنوّع نوعين شهوة فى الاكثار والزيادة وشهوة فى تنـاول الألوان اللذيذة فأما النوع الأوّل وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقـدار الكفاية فهو ممنوع منه فى العقل والشرع لأن تناول مازاد على الكفاية نَهَمٌ معَرّ وشَرَهٌ مضَرّ . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إيا كم والبِطْنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة » وقال على رضى الله عنه ان كنت بَطنا فعدّ نفسَك زمِنا . وقال بعض البلغاء أقلل طعاما تحمد مناما . وقال بعض الأدباء الرَّغَب لؤم والنَّهَم شؤم . وقال بعض الحكماء أ كبر الدواء تقـدير الغذاء . وقال بعض الشعراء :

فكم من لقمة منعت أخاها بلذة سـاعة أ كلات دهر
وكم من طالب يسعى لأمر وفيه هلا كه لو كان يدرى

وقال آخر

كم دخلت أ كلة حشا شره فأخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله فى الطعـام اذا كان هلاك النفوس فى المعد

ورب أ كلة هاضت الآ كل وحرمته مآ كل . روى أبو يزيد المدنى عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) إن الله لم يخلق وعاء ملئ شرا من بطن فان كان لابدّ فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح . وأما النوع الثانى وهو شهوة الأشياء اللذيذةومنازعة النفوس الى طلب الأنواع الشهية فمذاهب الناس فى تمكين النفس منها مختلفة فمنهم من يرى أن صرف النفس عنها أولى وقهرها

(١) لفظ الحـديث المشهور ماملأ آدمى وعاءشرا من بطنه بحسب ابن آدم أ كلات يقمن صلبه فان كان لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن المقدام بن معد يكرب قال الحـا كم صحيح وانظر المناوى على الجـامع
كتبه مصححه

عن اتباع شهواتها أحرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لأن تمكينها وما تهوى بطر يطغى وأشر يردى لأن شهواتها غير متناهية فاذا أعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان أسير شهوات لاتنقضى وعبد هوى لاينتهى ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه فضل . وأنشدت لأبى الفتح البستى :

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته لتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وللحذر من هذه الحال ماحكى أن أبا حزم رحمه الله كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك الجنة . وقال آخر تمكين النفس من لذاتها أولى وإعطاؤها مااشتهت من المباحات أحرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فتنحسر عنها ذلة المقهور وبلادة المجبور ولا تقصر عن درك ولا تعصى فى نهضة ولا تكل عن استعانة . وقال آخرون بل توسط الأمرين أولى لأن فى اعطائها كل شهواتها بلادة والنفس البليدة عاجزة وفى منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفى تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمرى أشبه المذاهب بالسلام لأن التوسط فى الأمور أحمد . واذ قد مضى الكلام فى المأكول والمشروب فينبغى أن يتبع بذكر الملبوس

اعلم أن الحاجة وان كانت فى المأكول والمشروب أدعى فهى الى الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما فى الملبوس من حفظ الجسد ودفع الأذى وستر العورة وحصول الزينة . قال الله تعالى : «يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير» فمعنى قوله أنزلنا عليكم لباسا أى خلقنا لكم ماتلبسون من الثياب يوارى سوآتكم أى يستر عوراتكم وسميت العورة سوأة لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده وقوله وريشا فيه أربعة تأويلات : أحدها أنه

المـال وهو قول مجاهد . والثانى أنه اللباس والعيش والنعم وهو قول ابن عبـاس رضى الله عنهما . والثالث أنه المعاش وهو قول معبد الجهنى . والرابع أنه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد . وقوله ولباس التقوى فيه ستة تأويلات . أحدها أن لباس التقوى هو الايمان وهوقول قتادة والسدى . والثانى أنه العمل الصالح وهوقول ابن عباس رضى الله عنهما . والثالث أنه السمت الحسن وهوقول عثمان بن عفان رضى الله عنه . والرابع هو خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير . والخامس انه الحياء وهذا قول معبد الجهنى . والسادس هو ستر العورة وهذا قول عبد الرحمن بن زيد . وقوله ذلك خير فيه تأويلان . أحدهما أن ذلك راجع الى جميع ماتقدم من قوله قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك خير أى ذلك الذى ذكرته خير كله . والثانى أن ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام أن لباس التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدى فلما وصف الله تعـالى حال اللباس وأخرجه مخرج الامتنان علم أنه معونة منه لشدّة الحاجة اليه . واذا كان كذلك ففى اللباس ثلاثة أشياء : أحدها دفع الأذى . والثانى ستر العورة . والثالث الجمـال والزينة . فأما دفع الأذى به فواجب بالعقل لأن العقل يوجب دفع المضـارّ واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى «والله جعل لكم ممـا خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم» فأخبر بحالها ولم يأمر بهـا اكتفاء بمـا يقتضيه العقل واستغناء بمـا يبعث عليه الطبع ويعنى بالظلال الشجر وبالأكنان جمع كن وهو الموضع الذى يستكن فيه ويعنى بقوله سرابيل تقيكم الحر ثياب القطن والكتان والصوف وبقوله وسرابيـل تقيكم بأسكم الدروع التى تقى البأس وهو الحرب . فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد وقال جعل لكم

من الجبال أكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان أحدهما أن القوم كانوا أصحاب جبال وخيام فذكرلهم الجبال وكانوا أصحاب حرّ دون برد فذكرلهم نعمته عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطاء . والجواب الثانى أنه اكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الآخر اذكان معلوما أن السرابيل التى تقى الحر أيضا تقى البرد ومن اتخذ من الجبال أكنانا اتخذ من السهل وهذا قول الجمهور . وأما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل أو بالشرع فقالت طائفة وجب سترها بالعقل لما فى ظهورها من القبح وما كان قبيحا فالعقل مانع منه ألا ترى أن آدم وحواء لما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تنبها بعقولها لستر مارأياه مستقبحا من سوآتهما لأنهما لم يكونا قد كلفا ستر مالم يبد لهما ولا كلفاه بعد أن بدت لهما وقبل سترها . وقالت طائفة أخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لأنه بعض الجسد الذى لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرعى فوجب أن يكون مايلزم من سترها حكما شرعيا . وقد كانت قريش وأكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الألباب يطوفون بالبيت عراة ويحرّمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك أبلغ فى القربة وانما القرب ما استحسنت فى العقل حتى أنزل الله تعالى « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين » يعنى بقوله خذوا زينتكم الثياب التى تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ماحرمتموه على أنفسكم من اللحم والودك . وفى قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان : أحدهما لاتسرفوا فى التحريم وهذا قول السدى . والثانى لاتأكلوا حراما فانه إسراف وهذا قول ابن زيد فأوجب بهذه الآية ستر العورة بعد أن لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على أن سترها وجب بالشرع دون

العقل . وأما الجمال والزينة فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير أن يوجبه عقل أو شرع وفى هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير . والتوسط المطلوب فيه معتبر من وجهين : أحدهما فى صفة الملبوس وكيفيته والثانى فى جنسه وقيمته . فأما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين أحدهما عرف البلاد فان لأهل المشرق زيا مألوفا ولأهل المغرب زيا مألوفا وكذلك لما بينهما من البلاد المختلفة عادات فى اللباس مختلفة والثانى عرف الأجناس فان للأجناد زيا مألوفا وللتجار زيا مألوفا وكذلك لمن سواهما من الأجناس المختلفة عادات فى اللباس وانما اختلفت عادات الناس فى اللباس من هذين الوجهين ليكون اختلافهم سمة يتميزون بها وعلامة لايخفون معها فان عدل أحد عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قيل العرى الفادح خير من الزى الفاضح . وأما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين أحدهما بالمكنة من اليسار والاعسار فان للموسر فى الزى قدرا وللمعسر دونه والثانى بالمنزلة والحال فان لذى المنزلة الرفيعة فى الزى قدرا وللمنخفض عنه دونه ليتفاضل فيه على حسب تفاضل أحوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زى المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الى زى الدنىء كان مهانة وذلا وان عدل المعسر الى زى الموسر كان تبذيرا وسرفا وان عدل الدنىء الى زى الرفيع كان جهلا وحمقا ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المقصود أدل على العقل وأمنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إياكم لبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة . وقال بعض الحكماء البس من الثياب مالا يزدريك فيه العظماء ولا يعيبه عليك الحكماء . وقال بعض الشعراء:

ان العيونَ رمتْكَ اذ فاجأتها وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ماتشا واجعل لباسك مااشتهاه الناس

واعلم أن المروءة أن يكون الانسان معتدل الحال فى مراعاة لباسه من غير إكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الى العناية لها دناءة ونقص وربمـا توهم بعض من خلا من فضل وعرى عن تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة لمـا يرى من تميزه بذلك عن الأكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفى عليه أنه اذا تعدّى طوره وتجاوز قدره كان أقبح لذكره وأبعث على ذمه فكان كما قال المتنبى :

لايُعجبَن مضيما حسنُ بِزّته وهل يروق دفينا جودة الكفن

وحكى المبرد أن رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس أرث ثيابه واذا ضاق لبس أحسنها فقيل له فى ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة . وقد أتى ابن الرومى بأبلغ من هذا المعنى فى شعره فقـال :

وما الحلى الا زينة لنقيصـــة يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفـــرا كحسنك لم يحتج الى أن يزوّرا

ولذلك قالت الحكماء : ليست العزة فى حسن البزة . وقال بعض الشعراء :

وترى سفيه القوم يدنس عرضه سفها ويمسح نعـله وشرا كهـا

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده أنفس وهو على مراعاته أحرص . وقد قيل فى منثور الحكم : البس من الثيـاب ما يخدمك ولا يستخدمك . وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية : أراك لاتبالى مالبست فقال : ألبس ثوبا أقى به نفسى أحب الىّ من ثوب أقيه بنفسى . فكما أنه لايكون شديد الكلف بها فكذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكى عن عائشة أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فنظر اليه رث الهيئة فقال : ما مالك؟ قال : من كل المال قد آتانى الله فقال : ان الله تعالى يحب اذا أنعم على امرئ

نعمة أن ينظر الى أثرها عليه . وقد قيل: المروءة الظاهره فى الثياب الطاهره . وهكذا القول فى غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم فصاروا سببا لمقته وطريقا الى ذمه لكن يكفهم عن سىء الأخلاق ويأخذهم بأحسن الآداب ليكونوا كما قال فيهم الشاعر :

سهل الفناء اذا مررت ببابه   طلق اليدين مؤدب الخدام

وليكن فى تفقد أحوالهم على مايحفظ تجمله ويصون مبتدله . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ادّهنوا يذهب البؤس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم وأحسنوا الى مماليككم فانه أكبت لعدوّكم » وليتوسط فيهم مابين حالة اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان على خطر منهم . حكى أن الموبذ سمع ضحك الخدام فى مجلس أنوشروان فقال: أماتمنع هؤلاء الغلمان فقال أنوشروان : انما بهم يهابنا أعداؤنا . وقال أبو تمام الطائى :

حشم الصديق عيونهم بحاثة   لصديقه عن صدقه ونفاقه

فلينظرن المرء من غلمانه   فهم خلائفه على أخلاقه

واعلم أن للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياها كلت وحالة تصرف ان أرحتها فيها تخلت فالأولى بالانسان تقدير حاليه حال نومه ودعته وحال تصرفه ويقظته فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضرّ بالنفس مجاوزة أحدهما وتغير زمانهما . فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «نومة الصُّبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة للحاجة» . وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما: النوم ثلاثة نوم خرق وهى الصُّبحة ونوم خلق وهى القائلة ونوم حمق وهو العشىّ . وقد روى محمد بن يزدان عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشىّ

حق » . وقيل فى منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد . فاذا أعطى النفس حقها من النوم والدعة واستوفى حقه بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها . وحكى أن عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز دخل على أبيه فوجده نائما فقال ياأبت أتنام والناس بالباب فقال يابنىّ نفسى مطيتى وأكره أن أتعبها فلا تقوم بى . وينبغى أن يقسم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف به ان تجاوز الى ماليس بمهم هل يكون الا

كتاركة بيضها بالعَـــرَاء وملبسة بيض أخرى جناحا

ثم عليه أن يتصفح فى ليله ماصدر من أفعال نهاره فان الليل أخطر للخاطر وأجمع للفكر فان كان محمودا أمضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان مذموما استدركه ان أمكن وانتهى عن مثله فى المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد أفعاله لاتنفك من أربعة أَحوال : إما أن يكون قد أَصاب فيها الغرض المقصود بها أو يكون قد أَخطأ فيها فوضعها فى غير موضعها أو يكون قصر فيها فنقصت عن حدودها أو يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها وهذا التصفح إنما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة وينتهز به استدراك الخطأ وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره . وكما يتصفح أحوال نفسه فكذا يجب أن يتصفح أحوال غيره فربما كان استدراكه الصواب منها أسهل بسلامة النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده من غيره أو أعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح أَفعال غيره فاقتدى بأحسنها وانتهى عن سيئها . وقد روى زيد بن خالد الجهنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « السعيد من وعظ بغيره » . وقال الشاعر :

إن السعيد له من غيره عظة وفى التجارب تحكيم ومعتبر

وأنشدنى بعض أهل العلم لطاهر بن الحسين

اذا أعجبتـك خصال آمرئ فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجـد والمكرمات اذا جئتها حاجب يحجبـك

فأما ما يرومه من أعماله ويؤثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب أن يقدم الفكر فيه قبل دخوله فان كان الرجاء فيه أغلب من الاياس منه وحمدت العاقبة فيه سلكه من أسهل مطالبه وألطف جهاته وبقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس أغلب عليه من الرجاء مع شدّة التغرير ودناءة الأمر المطلوب فليحذر أن يكون له متعرضا . فقـــد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا هممت بأمر ففكر فى عاقبته فان كان رشـــدا فأمضه وان كانــ غيا فانته عنه » . وقالت الحكماء طلب ما لايدرك عجز . وقال بعض الشعراء :

فاياك والأمر الذى ان توسعت موارده ضاقت عليك المصـادر

فمـا حسن أن يعذر المرء نفســه وليس له من سائر النـاس عاذر

وليعلم أن لكل حين من أيام عمره خلقا وفى كل وقت من أوقات دهره عملا فان تخلق فى كبره بأخلاق الصغر وتعاطى أفعال الفكاهة والبطر استصغره من هو أصغر وحقره من هو أقل وأحقر وكان كالمثل المضروب بقول الشاعر :

وكل بازيمســـه هرم تخرا على رأسه العصافير

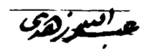
فكن أيها العاقل مقبلا على شانك راضـــيا عن زمانك سلما لأهل دهرك جاريا على عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس عليه ولاتباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولاتجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فانه لاعيش لمقوت ولاراحة لمعادى . وانشـــد بعض أهل الأدب لبعضهم :

اذا اجتمع الناس فى واحد وخالفهم فى الرضا واحد
فقد دل إجماعهم دونه على عقله أنه فاسد

واجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولاتداهنها باخفاء عيبك وإظهار عذرك فيصير عدوّك أحظى منك فى زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التى هى أخص بك لاغرائك لها بأعذارك ومساءتك فحسبك سوءا رجل ينفع عدوّه ويضر نفسه . وقال بعض الحكماء أصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك . وقال بعض البلغاء من أصلح نفسه أرغم أنف أعاديه ومن أعمل جدّه بلغ كنه أمانيه . وقال بعض الأدباء من عرف معابه فلايلم من عابه وأنشدنى أبو ثابت النحوى لبعض الشعراء

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من أخيه لأبصرا
ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه لأمسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب أيها الانسان نفسك بافتكار عيوبك وانفعها كنفعك لعدوّك فان من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ . أعاننا الله وإياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول وحسبنا الله وكفى .



(المطبعة الاميرية ٧٣٩٣ / ١٩٢١ / ٢٥٥٠)


Bibliotheca Alexandrina
0364818